بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم/سماحة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي

الحمد لله الذي بنعمه تتم الصالحات، الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وصلوات الله وسلامه على سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد ...

فهذا هو الجزء السادس من خطبي المنبرية، التي تولى الأخ الكريم الباحث الداعية الموفق الدكتور الشيخ خالد السعد المدرس بجامعة البحرين، حفظه الله ورعاه، وسدد خطاه، تفريغها من أشرطتها، وكتابتها بخطه وقلمه، والتعليق عليها أحيانًا بما يراه ملائمًا، مع ترقيم الآيات، وتخريج الأحاديث تخريجًا موجزًا.

وقد تعود أن يبعث بها إلي لأراجعها، فقد أعدل بها بعض العبارات التي يقتضيها الارتجال، أو أملأ بعض الفجوات نتيجة الخلل في التسجيل، أو أُخرج بعض الأحاديث التي قد يستعصي عليه تخريجها وأضع لها بعض العناوين الجانبية، وأكتب لها مقدمة موجزة، ثم أدفع بها إلى المطبعة.

وها هو قد فعل مع الجزء السادس كما فعل مع إخوته الخمسة من قبل، وهو يتناول موضوعات حية وساخنة من الموضوعات التي تعيشها أمتنا،

ولا يستطيع الخطيب أن يعزل نفسه عنها.

وقد أعد الخ الدكتور خالد خمس عشرة خطبة، وأعد مكتبي في قطر: الخمسة الأخيرة من أحدث الخطب، لتتم العشرين، كما التزمنا في الأجزاء السابقة: أن يشتمل كل منها على عشرين خطبة، لأنها عادة خطب طويلة، وإن كنت أنصح قرائي وأبنائي من خطباء المساجد ألا يقلدوني في هذا التطويل. فقد يحتمل الناس مني ما لا يحتملون منهم، وقد قبلني الناس على ذلك، وهم يأتون من أماكن بعيدة لذلك. وقد كنت أتمنى أن أكون تعودت غير ذلك.

وإني لأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الخطب قائلها وجامعها وناشرها وقارئها، إنه سميع مجيب.

الفقير إلي عفو ربه

يوسف القرضاوي

القاهرة في: ذو القعدة 1425هـ

ديسمبر 2004 م

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم: خالد السعد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه الغر الميامين.

وبعد:

فهذا هو الجزء السادس من «خطب الشيخ القرضاوي» أكرمه الله ورعاه، يسر الله جمعه وإخراجه لينضم إلى إخوته الخمسة التي سبقته، وليساهم معها في تبصير الأمة وتوعيتها في هذا الوقت بالذات، لا سيما أنه يعالج في جملة من مواضيعه حادثة «الحادي عشر من سبتمبر» من عام (2001 م) التي أخذ فيها الأبرياء بأوزار المسيئين، وما أعقبها من تداعيات خطيرة لا تزال تفعل فعلها في عالم الإنسانية المعذب، وتخص أمتنا بمزيد من القهر والأذى.

أمام هذا الحدث الرهيب والملمة الصعبة، وقف الشيخ القرضاوي - وقد استشعر الخطر الذي يهدد قلعة الإسلام - شاهرًا سلاحه في وجه من يريد اختراقها وكأنه مقاتل في معركة، يصول ويجول، ويكر ويفر، لئلا يؤتى الإسلام من قبله. وهذا في الحقيقة هو شأنه في كل معركة موجهة ضد الإسلام وأمته، يبدو فيها هذا الشيخ الوقور أصلب من الحديد، لا يهاب ولا يلين، ولا يخضع لإغراء أو وعيد، حتى لو كلفه ذلك حياته كما صرح هو غير مرة.

هكذا عهدناه من قبل في العديد من القضايا مثل: قضية فوائد البنوك، وقضية سلمان رشدي، ومؤتمر السكان بالقاهرة، ومعركة الحجاب في فرنسا، وقصة «وليمة لأعشاب البحر»، والمكتب التجاري الإسرائيلي بالدوحة، واستقبال بيريز في قطر، والتطبيع مع دولة الغدر والعدوان، واتفاقيات السلام المزعوم، ومقاطعة البضائع الأمريكية والإسرائيلية، والعمليات الاستشهادية ضد المحتلين، والانتفاضة الفلسطينية الأولى والثانية، وقضايا المسلمين في البوسنة وأفغانستان، وكشمير والشيشان، والفلبين والسودان، وكوسوفو وجنوب لبنان، وأخيرًا العراق ... إلخ.

وما أحوج أمتنا في مثل هذه الظروف المعقدة، والقوارع التي تنهال عليها وتتتابع: أن تفزع - بعد الله - إلى علمائها الأفذاذ، وشيوخها الثقات، لمعرفة الموقف السديد فتلتزمه، والواجب المطلوب فتؤديه، عسى أن يبدل الله حالها إلى أحسن حال، ويهيئ لها من أمرها رشدا.

حفظ الله شيخنا الكريم، وابقاه بيننا ناطقًا بالحق، مناضلًا في سبيله، سنين عديدة، وأعوامًا مديدة، موفور الصحة والعافية، وسائر علماء الإسلام الصادقين الأحرار.

خالد السعد

* * *

(1)

قتل البرآء جريمة كبرى[1]

سواء كان للدنيا أم الدين

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

شهدت في بعض محطات التليفزيون في هذه الأيام - منذ يومين فقط - مشاهد تركت في نفسي أثرًا عميقًا، وعلى الأخص مشهدين:

القتل لأجل السرقة:

المشهد الأول: مشهد ثلاثة من الشبان في مصر قتلوا امرأة وطفليها الصغيرين، قتلوا المرأة وابنها وابنتها الطفلين الصغيرين.

لماذا قتلوا هؤلاء؟

من أجل مصوغات تلبسها المرأة!!

من أجل هذه الأشياء يقتلون هذه الأنفس البريئة!

هؤلاء الشبان - وهم في العشرينيات من العمر ... في عمر الزهور ... في ريعان الشباب ومقتبل العمر - كيف طوعت لهم أنفسهم أن يقتلوا هذه المرأة ولا ذنب لها إلا أن يأخذوا ذهبها وحليها؟ وكيف طوعت لهم أنفسهم أن يقتلوا الطفلين {**... نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ...**} [الكهف: 74]؟

---

(1) ألقيت في جامع عمر بن الخطاب بالدولة في نوفمبر 1997م.

أمن أجل قطعة من الذهب يفعل هذا كله؟!

ماذا حدث لأبنائنا؟ ماذا حدث لشبابنا؟ ما الذي حدث؟ ما الذي غير هؤلاء؟

ما كانت هذه الأشياء تحدث في الزمن الماضي إلا على ندرة، ومن مجرمين عتاة. أما من شباب في مقتبل عمرهم يفعلون هذا، يقتلون بنتًا صغيرة، وابنا صغيرًا، ويقتلون امرأة، يخنقونهم إلى الموت، أو يذبحونهم بالسكين، فما كان يحدث هذا.

من أجل الدنيا حدث هذا.

لقد تطورت مفاهيم الناس وتغيرت قيمهم. أصبح الإنسان لا يبالي بإزهاق الروح وسفك الدم، من أجل قطعة من الذهب أو من الحلي!

وحوش في لبوس البشر:

هذا يدل على أن مجتمعاتنا انحدرت انحدارًا كبيرًا، وأصبح الإنسان أقرب إلى الحيوان، لا، بل أقرب إلى الوحش. الحيوان لا يؤذي، البقرة لا تقتل، والحمار لا يقتل، هذا شر من البقرة والحمار ومن الأنعام، إنه وحش كاسر.

بل إن كثيرًا من الوحوش لا تقتل إلا إذا جاعت، الأسد لا يأكل الإنسان إلا إذا جاع، يقتله من أجل أن يملأ معدته.

فالوحوش أرحم من هؤلاء ... هؤلاء الذين يرتدون ثياب البشر وليس في صدورهم قلوب البشر، نزعت الرحمة من قلوبهم، فهم أولى أن لا يرحموا من الله عز وجل، فإنما يرحم الله من يرحم الناس: «**الراحمون يرحمهم**

الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»(2).

ولهذا كتب الله على هؤلاء القصاص، كما قال تعالى: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ...}** [البقرة: 178] أي فرض عليكم، كما قال: **{... كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ}** [البقرة: 183]، ففرضية القصاص كفرضية الصيام.

والناس في عصرنا في الحضارة الحديثة يلغون عقوبة الإعدام، ويطالبون المسلمين بأن يلغوا عقوبة الإعدام، يرحمون القاتل ولا يرحمون المقتول وأهل المقتول، يشفقون على المجرم ولا يشفقون على ضحاياه، يزعمون أنهم أرحم من الله بعباده، وهيهات هيهات.

إن الله الذي خلق الناس هو أعلم بهم، أعلم بما يصلحهم وما يفسدهم، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها، ولكنه قرر القصاص: **{وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ}** [البقرة: 179].

حرمة دم المسلم:

هذا هو المشهد الأول.

ومثل هذا المشهد يتكرر كثيرًا فيما نقرأه في الصحف، وفيما نسمعه في الإذاعات، وفيما نشاهده في أخبار التلفزات. أحداث هائلة من هذا النوع الذي تراق فيه الدماء، من أجل بضعة دولارات، أو جنيهات، أو آلاف، أو حتى ملايين. والله إن نفس الإنسان لأعظم عند الله من هذا كله، والنبي صلى الله

---

(2) رواه أحمد في «المسند» (6494) بلفظ: **«ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء»** وقال محققو «المسند»: صحيح لغيره ورواه أبو داود في الأدب (4941)، والترمذي في البر والصلة (1925) وقال: هذا حديث حسن صحيح، كلهم عن عبد الله بن عمرو .

عليه وسلم يقول: «**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق**»[(3)]، زوال الدنيا كلها ... لأن الله هو الذي بنى هذا الإنسان فلا يملك مخلوق أن يهدمه، لا يملك أحد أن ينتزع روحه إلا الذي وهبها له، في الوقت الذي حدده له.

لا يجوز لإنسان أن يتعدى على حق الله تتت ويقتل الإنسان بغير حق، إلا إذا كان إنسانًا شريرًا خرج من إنسانيته.

ومنذ فجر البشرية وجد الشر في حياة الناس، وجد الإنسان الخير والإنسان الشرير ... الإنسان الطيب والإنسان الخبيث. منذ كانت البشرية أسرة واحدة ... عائلة واحدة، قتل ابن آدم أخاه، ابن آدم الشرير قتل أخاه الطيب الخير، بغير جرم جناه، بغير ذنب اقترفه، إلا أنهما قدما قربانًا إلى الله فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر!

ما ذنبي أنا إذا لم يقبل الله قربانك؟ هنالك قال له حسدًا وبغيًا: {**لَأَقْتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ 27 لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ**} [المائدة: 27، 28] ومع هذه الموعظة البليغة المؤثرة لم يرتدع هذا الإنسان الشرير: {**فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ**} [المائدة: 30].

سلالة ذلك الشرير لا تزال في عصرنا وفي كل عصر، وفي بيئتنا وفي كل بيئة، يوجد هذا الإنسان الشرير الذي لا يبالي أن يقتل أخاه من أجل أي

---

(3) رواه النسائي في تحريم الدم (82/7)، والترمذي في الديات (1395)، وذكره الألباني في «صحيح الجامع» (5078).

شيء يراه.

ما أكثر الأحداث التي نشاهدها في عصرنا من قتل، حتى رأينا من يقتل أولاده، ورأينا من يقتل زوجته، ورأينا من تقتل زوجها، ورأينا من يقتل أخاه، ورأينا من يقتل عمته أو خالته!

كل ذلك من أجل دنيا يتهافتون عليها تهافت الذباب على الطعام أو على الجيف، هذه الجيفة التي يسمونها «الدنيا» يتهافت الناس عليها، ويقتلون من أجلها، حتى يقتل الإنسان أقرب الناس إليه.

هذا المشهد الأول أيها الأخوة ... مشهد هؤلاء الشباب، الفتية الذين قتلوا المرأة وطفليها من أجل حُليها.

قتل السياح المستأمنين في بلادنا:

المشهد الثاني رأيته أمس في التلفزيون في قناة الجزيرة: مشهد الشابين الذين قتلا ثمانية من السياح الألمان ومعهما سائق الحافلة المصري. وصدر عليهما بالأمس حكم بالإعدام من المحكمة العسكرية العليا.

هذان الشابان استقبلا هذا الأمر - حكم الإعدام - بفرح وسرور، وهنأ أحدهما الآخر، وقالا للصحفيين - حينما قالوا لهما: ما شعوركما؟ - هذا يوم عيد!

ثم سأل أحد المذيعين الشاب الأول - المخطط الأول للجريمة الذي دفع أخاه إليها وأخذه معه، صابر أبو العلا هذا - ما الذي جعلك تفعل هذا؟ قال: أنا لم أفعل هذا من أجل دنيا، لم أفعل هذا من أجل مال، ولا من أجل نساء، ولا من أجل ذهب ولا فضة، فعلت هذا لله، فعلت هذا من أجل الدين!

وهذه مصيبة أخرى، لا تقل عن مصيبة الذي قتل من أجل الدنيا.

إخلاص مصحوب بحماقة:

إنه لا يكفي أن يكون الإنسان مخلصًا ليكون عمله صحيحًا.

هذا قتل لله كما يقول، قتل أناسًا برآء لله ... من أجل الله ... من أجل الدين! أناسًا جاؤوا بلاد الإسلام مستأمنين، لهم حق الأمان وحق العهد، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**من قتل معاهدًا لم يرح - أو لم يَرَح - رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا**»(4). هؤلاء لهم عهد الله وميثاقه، ونحن مأمورون أن نفي بالعهد: {**وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ ...**} [النحل: 91]، {**... وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا**} [الإسراء: 34]، {**وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ**} [المؤمنون: 8، المعارج: 32].

ما ذنب هؤلاء المدنيين؟

لم يقاتلونا، ولم يحاربونا، حتى نقتلهم.

يقول هذا الشاب: أنا قتلتهم لله، مخلصًا، نيته نية خالصة.

حسن النية لا يبرر الأعمال الطائشة:

ولكن لا يكفي أن تكون النية خالصة، لا بد أن يكون العمل مشروعًا، لا بد أن يشرع الله هذا العمل.

سئل الإمام العالم الزاهد أبو علي الفضيل بن عياض عن قول الله تعالى: {**... لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ...**} [الملك: 2]. قيل له: يا أبا علي، ما أحسن العمل؟

---

(4) رواه البخاري في الجزية والموادعة (3166) عن عبد الله بن عمرو.

قال: أحسن العمل أخلصه وأصوبه. إن الله لا يقبل العمل إذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا، ولا يقبل العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا. وإنما يقبله إذا كان خالصًا صوابًا، وخلوصه أن يكون لله، وصوابه أن يكون على السنة. أي على المنهج الشرعي ... على الصراط المستقيم الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

لا يكفي الإخلاص حتى يكون العمل مشروعًا.

المبتدعون مخلصون في ابتداعاتهم، يتقربون إلى الله بالبدعة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «**كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار**»[5]. يتقربون إلى الله بما لم يشرعه لعباده، شرعوا في الدين ما لم يأذن به الله. هم مخلصون في هذه الزيادات وفي الغلوات في الدين، ولكن لا يكفي الإخلاص وحده.

كثير من هؤلاء آفتهم ليست في إخلاصهم ولا في ضمائرهم، إنما آفتهم في عقولهم وأفهامهم. الآفة ليست في النفوس، وإنما في الرؤوس. مشكلة هؤلاء أنهم لم يفقهوا دينهم.

النبي عليه الصلاة والسلام قال عن أسلافهم من قديم: «**يقرأون القرآن لا يجاوز حناجهم**» أي لا يتعمق في قلوبهم وفي أعماق نفوسهم. الخوارج قديمًا كانوا من أعبد الناس لله، كانوا صوامًا قوامًا، يقوم أحدهم ليله يقرأ القرآن، ولكنهم كانوا يدعون أهل الأوثان ويقتلون أهل الإسلام، يستحلون دماء الناس وأموالهم. ولذلك صح فيهم الحديث - كما قال الإمام أحمد - من عشرة أوجه

---

(5) رواه مسلم في الجمعة (867)، والنسائي (1578) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

كلها تذمهم وتحذر منهم. يقول الحديث «**يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وقيامه مع قيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**»[6]!

لهم قراءة، ولهم قيام، ولهم صلاة، ولهم صيام، حتى إن الصحابة ليحقر أحدهم عبادته بجانب عبادتهم، ولكنهم يمرقون من الدين! لماذا؟ لأنهم استحلوا دماء المسلمين وأموالهم، حتى إنهم كفروا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فارس الإسلام ... الابن البكر للإسلام ... حكيم الأمة. كفروه، واستحلوا دمه وقتلوه. وقال قائلهم يمدح قاتل علي:

يا ضربة من تقي ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش
إني لأذكره يومًا فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا

يعتبر قاتل علي أوفى الناس ميزانًا عند الله! ما أراد بهذه القتلة وبهذه الضربة بالسيف «إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا»! أراد بها رضوان الله.

هذه مشكلة ... الذين يقتلون الناس تدينًا، ولا يفرقون بين برئ ومسيء. بعض هذه الجماعات - التي تقتل في الجزائر وفي غيرها - لا يفرق بين مدني وعسكري، لا يفرق بين مجرم وضحية، لا يفرق بين كبير وصغير. يقتل الشيوخ والنساء والأطفال الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا.

أخلاق الإسلام في الحرب:

مع أن الإسلام في حربه الرسمية بينه وبين أعدائه المشركين وغيرهم: نهى عن قتل النساء، ونهى عن قتل الشيوخ الكبار، ونهى عن قتل الأطفال

---

(6) رواه البخاري في المناقب (3610)، ومسلم في الزكاة (1064) عن أبي سعيد الخدري.

الصغار، وجاء ذلك في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم[7]. ورأى عليه الصلاة والسلام امرأة مقتولة في إحدى الغزوات فأنكر ذلك وقال: **«ما كانت هذه لتقاتل»**[8].

إنما نقاتل ونقتل من يقاتلنا، كما قال الله عز وجل: **{وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ}** [البقرة: 190]. روى الإمام ابن جرير الطبري عن ابن عباس ترجمان القرآن رررب أنه فسر «الاعتداء» هنا بقتل النساء والشيوخ والأطفال[9].

وهكذا جاءت الأحاديث النبوية تنهي عن ذلك. وجاءت الوصايا الراشدية من أبي بكر وعمر تنهى عن قتل هؤلاء. بل جاء عن أبي بكر ررر قال: ستجدون رجالًا قد حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له.

نهى عن قتل الرهبان لأنهم لا يقاتلون.

وكذلك نهى عمر عن قتل الفلاحين، قال: إنهم لا ينصبون لكم الحرب فدعوهم وشأنهم.

---

(7) انظر - على سبيل المثال: «صحيح البخاري» كتاب الجهاد والسير، باب «قتل الصبيان في الحرب» وباب «قتل النساء في الحرب». وكذلك: «كتاب السنن الكبرى» للبيهقي: باب ترك قتل من لا قتال فيه من الرهبان والكبير وغيرهما (9/89 - 91).

(8) قال الحافظ ابن حجر: أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث رباح بن الربيع «فتح الباري» (6/172) ط. دار الريان بالقاهرة. رواه أحمد في «المسند» (15992) عن رباح بن الربيع. وقال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن وأخرجه النسائي في «السير» (8571)، وابن ماجه في «الجهاد» (2842) وقال محققه: إسناده صحيح.

(9) وهذا القول هو الذي رجحه الإمام ابن جرير. انظر كتابه «جامع البيان» (2/190) ط. مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده.

ولذلك ذهب من ذهب من فقهاء المسلمين بأنه لا يقتل حراث ... زراع.

وهكذا كان شأن الصحابة حينما فتحوا البلاد في العراق وفي الشام وفي مصر: تركوا الفلاحين في أرضهم وزراعاتهم، لم ينالوا أحدًا منهم بسوء.

فما بال هؤلاء؟ ما بال هؤلاء يقتلون كل من هب ودب؟

جاء الفقه الإسلامي ينهى عن قتل من لم يقاتل: لا يقتل راهب، ولا يقتل زمن - أي إنسان مصاب الشلل أو نحو ذلك ولا يستطيع أن يحارب - ولا يقتل أعمى، ولا صاحب عاهة، لا يقتل واحد من هؤلاء إلا إذا كان له مشاركة في الحرب، ولو بالرأي والتدبير. لو كان هناك شيخ كبير ولكنه يشارك في الحرب برأيه وتدبيره وكيده وتخطيطه، هذا نعتبره مقاتلًا أو في حكم المقاتل. وقد قال أبو الطيب:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول، وهي المحل الثاني!

أما ما دون هؤلاء فلا يجوز لنا أبدًا أن نقتلهم.

هذا ما جاء به الإسلام.

الإسلام يقتصد في القتل حتى في حروبه الرسمية بينه وبين أعدائه. ولذلك كانت الوصايا النبوية والوصايا الراشدية من الخلفاء: ألا يقتلوا شيخًا، ولا طفلًا، ولا امرأة، ولا يهدموا بناء، ولا يقطعوا شجرًا، ولا يحرقوا شيئًا في طريقهم، إلا ما اقتضته ضرورة الحرب.

ولذلك وصف المسلمون بأنهم كانوا أرحم الناس في الحروب. وقال أحد المؤرخين - غوستاف لوبون - : ما عرف التاريخ فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب «يعني المسلمين».

هكذا كانت هذه الأمة.

أبو بكر ررر أرسل إليه أحد القادة برأس قائد ... جاءه مندوب يبشره ومعه صرة، فتح أبو بكر الصديق الصرة فوجد فيها رأس إنسان مقتول، فاستعاذ بالله وقال: ما هذا؟ قالوا له: يا خليفة رسول الله، إنهم يفعلون بنا مثل ذلك، فارس والروم إذا قتل أحد من قادتنا يبعثون برأسه إلى ملكهم أو امبراطورهم أو قائدهم الأعلى يبشرونه بهذا الأمر، فنحن نعاملهم بالمثل. فقال أبو بكر ررر: آستنان بفارس والروم؟[10] - أنستن بهم؟ نقتدي بهم؟ أنتخذهم أساتذة لنا؟ نجعلهم أسوة لنا؟ - والله لا يحمل إلى رأس بعد اليوم؟

هذا هو المنهج الإسلامي.

فكيف بهؤلاء الشباب الذين يتقربون إلى الله بقتل الناس المدنيين وتفخيخ السيارات في الشوارع؟!

صحيح في بعض البلدان - كما في الجزائر - اختلط الحابل بالنابل، والتبس الحق بالباطل، وما عدنا نعرف: ما الذي تفعله تلك الجماعات المسلحة، وما تفعله السلطة وما يفعله الآخرون؟ حتى إننا نرى أحيانًا مجزرة تحدث وتظل ساعات يحدث فيها التذبيح والتقيل بأشد أنواع الأساليب وحشية، ضربًا بالفؤوس أو قطعًا للرؤوس بالسكاكين أو البلطة أو بغير ذلك أو بالتحريق في الأفران! أشياء فظيعة جدًا، ولا يأتي أحد من رجال الأمن أو

---

(10) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (306/5) الأثر رقم (9701)، وسعيد في «السنن» (ج 3) الأثر رقم (2636) والبيهقي في «السنن الكبرى» (132/9) وقال ابن حجر في «تلخيص الجبير» إسناده صحيح (108/4).

من رجال الجيش أو من رجال الشرطة! أين هؤلاء؟ ولذلك اختلطت علينا الأمور.

كل ما نقوله: إننا ننكر هذه الأحداث أيًا كان فاعلها، ننكر أن تحدث باسم الدين أو باسم السياسة، ننكر العنف العشوائي الذي لا يميز بين برئ ومسيء، هذا ما لا يجوز بحال من الأحوال.

إننا نرى هاتين الصورتين أيها الإخوة: صورة من يقتل من أجل الدنيا، وصورة من يقتل من أجل الدين. هذه مصيبة.

احترام الإسلام للنفس البشرية وصيانتها:

نرى ما يحدث في أفغانستان: سنوات من القتل والقتال وسفك الدماء بين إخوة الأمس الذين كانوا رفقاء الجهاد ورفقاء السلاح. كيف يحدث هذا؟ يزعمون أنهم يفعلون هذا من أجل الدين! آلدين أمركم أن يقتل بعضكم بعضا ... أن ترجعوا كفارًا كالجاهلية يضرب بعضكم رقاب بعض؟[11].

هذا ما ننكره.

الدم المسلم يجب أن يصان، ألا يراق إلا بحقه، وحقه معروف حددته الأحاديث: « **... الثيب الزاني، والنفس بالنفس «أي القصاص»، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[12].

---

(11) بل الدين نهانا عن ذلك وجاء في الحديث: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**» رواه البخاري في العلم (121)، ومسلم في الإيمان (65) عن جرير بن عبد الله.

(12) رواه البخاري في الديات (6878)، ومسلم في القسامة والمحاربين (1676) عن ابن

لا يجوز أن يتعدى الناس، ويتجاوزوا، ويقتلوا من لا يستحق القتل.

إن القرآن الكريم اعتبر قتل النفس جريمة كبرى: { **... أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا**} [المائدة: 32].

قتل النفوس أمر اتفقت الشرائع السماوية والأرضية على تجريمه. كل الشرائع لا يمكن أن تبيح سفك الدماء، وفقاؤنا أجمعوا على أن الضروريات الشرعية خمس، الضروريات التي جاءت الشريعة - بكل أحكامها وأوامرها ونواهيها - للمحافظة عليها هي خمس: المحافظة على الدين، والمحافظة على النفس، والمحافظة على العقل، والمحافظة على النسل، والمحافظة على المال.

الدين ثم النفس: {**وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا**} [الإسراء: 33].

ماذا نقول في هذا العصر الذي استهان الناس فيه بحرمة النفس الإنسانية، فأصبحنا نرى القتل هنا وهناك، هذا ما لا يجوز بحال من الأحوال.

ومما يؤسف له ما قرأناه بالأمس عن محاولة اختطاف أو اغتيال السفير القطري في اليمن، هذا أمر غريب أيضًا.

لا ينبغي أن يستهان بأرواح الناس ولا بحرماتهم ولا بحرياتهم إلى هذا الحد.

مسعود وأوله: «**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث**».

آفة الغلو والتطرف:

حتى من كان يعارض المؤتمر الاقتصادي. أنا أعارض المؤتمر الاقتصادي، ولكن نعارض الرأي بالرأي، والحجة بالحجة، والكلمة بالكلمة، لا يتعدى ذلك إلى أن نختطف الناس، هذا أمر لا يقره شرع ولا خلق ولا قانون.

متى تستطيع هذه الأمة أن تتعامل بحرية وصراحة، ويقول بعضها لبعض: نعم ولا، هذا صواب وهذا خطأ، وهذا يجوز وهذا لا يجوز؟ وينبغي أن تتسع الساحة للجميع، ولا يضيق أحد ذرعًا بكلمة الحق، كل يقول ما عنده، أما أن يتعدى ذلك من اللسان إلى اليد ... أن أتكلم بلغة الدم بلغة العنف، فهذا ما نرفضه.

إننا نهيب الأمة أن تعود لتربية شبابها تربية إسلامية متوازنة، تنفخ فيها من روح الإيمان، تغرس فيها قيم الحق والخير، تعلمها الإسلام الصحيح المتوازن لا إسلام الغلو والتنطع. لقد جاء في الحديث: «**هلك المتنطعون «المتزيدون المتعمقون»، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون**»(13). قالها النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثًا لعظم خطر التنتطع. وقال: «**إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك مثن كان قبلكم بالغلو في الدين**»(14).

لا تغلو في دينكم، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرًا

---

(13) رواه مسلم في العلم (2670) عن ابن مسعود.

(14) رواه أحمد في «المسند» (1851) عن ابن عباس، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم، ورواه ابن ماجه في «المناسك» (3029) وقال محققه: إسناده صحيح، وذكره الألباني في «صحيح ابن ماجه» (2455).

وضلوا عن سواء السبيل.

أسأل الله تتت أن ينير بصائرنا، وأن يفقهنا في ديننا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، إنه سميع قريب.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد أيها الإخوة المسلمون:

هناك تنبيهان أردت أن أذكر بهما:

أولهما: أن وزارة الأوقاف في قطر أنشأت صندوقًا للزكاة، تأخذها من الأغنياء لتردها إلى الفقراء. وهذا الصندوق مفتوح لكل من يريد أن يحرر نفسه من رجس الشح { **... وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ**} [الحشر: 9، التغابن: 16]. الله تعالى يقول: {**خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**} [التوبة: 103].

ذكرى وعد «بلفور» المشؤوم:

والتنبيه الثاني: أنه بعد غد يكون قد مر ثمانون عامًا على وعد بلفور. بلفور وزير خارجية بريطانيا الذي وعد اليهود في العالم بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين. كان ذلك في (2) نوفمبر سنة (1917م) أثناء الحرب العالمية الأولى.

مر ثمانون عامًا على هذا الوعد الذي علق عليه من قال: إن من لا يملك

وعد من لا يستحق. وعلق عليه مفتي فلسطين الأكبر المجاهد الحاج أمين الحسيني حجح فقال: إن فلسطين ليست وطنًا بغير شعب حتى تستقبل شعبًا بغير وطن.

ولكن الدول الغربية ـ وفي مقدمتها بريطانيا في ذلك الوقت ثم أمريكا بعد ذلك ودول الغرب بصفة عامة ـ كادوا للفلسطينيين، وكادوا للعرب، وكادوا للمسلمين، وكادوا للأمة الإسلامية حتى قامت «إسرائيل» في هذه الأرض.

ولا تزال إسرائيل تركل بقدميها هذه الجبهة، وتضرب تلك الجبهة، وتصفع تلك الجبهة، وتتحدى، وتتصدى، وتتعدى، ولا تجد من يقاومها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

تجد الاستسلام الهزيل المر، تجد هذا الخنوع الذي نراه هنا وهناك، إلا فتية آمنوا بربهم وزادهم هدى، وضعوا رؤوسهم على أكفهم، وأرواحهم في أيديهم، وبذلوها لله، وقال أحدهم: وعجلت إليك ربى لترضى. هؤلاء هم الأمل، وهم معقد الرجاء إن شاء الله في تحرير فلسطين، وفي إعادتها إلى أهلها، إن لم يكن اليوم فغدا، وإن غدًا لناظره قريب.

لن نيأس أبدًا أيها الإخوة الكثيرون ييأسون، ونحن لن نيأس من روح الله، بـ { ... **إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ**} [يوسف: 87].

إن الزمن قلب، وإن الدنيا دول، وإن دوام الحال من المحال، والله تعالى يقول: { ... **وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ** ...} [آل عمران: 140].

من كان يظن أالاتحاد السوفيتي الذي يملك تلك الترسانة النووية الهائلة والقوة العسكرية الضخمة، ويملك ما يملك، ينهار في سنوات قليلة؟ من كان

يظن هذا؟

إن التاريخ لا يملك زمامه أمريكا، ولا تملك زمامه إسرائيل، إنما يملك زمامه رب العالمين.

إن الغد لنا، وإن المستقبل لنا. الرصيد في حسابنا يزداد إن شاء الله.

سنسترد إن شاء الله - إن لم يكن في القريب العاجل ففي يوم يعلمه الله عز وجل - سنسترد حقنا، ستعود إلينا حقوقنا إن شاء الله، وما ذلك على الله بعزيز.

أسأل الله عز وجل أن يفتح لنا فتحًا مبينًا.

اللهم افتح لنا فتحًا مبينًا، واهدنا صراطًا مستقيما، وانصرنا نصرًا عزيزا، وأتم علينا نعمتك، وأنزل في قلوبنا سكينتك، وانشر علينا فضلك ورحمتك.

اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللهم انصرنا على اليهود المعتدين، اللهم رد عنا كيدهم، وفل حدهم، اللهم إنا ندرأ بك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم، اللهم أنزل عليهم بأسك الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

اللهم انصر إخوتنا المجاهدين في فلسطين ولبنان، وفي كشمير والسودان، وفي سائر بلاد الإسلام.

اللهم خذ بأيدي إخواننا المضطهدين والممتحنين والمعتقلين، اللهم افكك بقوتك أسرهم، واجبر برحمتك كسرهم، وتول بعنايتك أمرهم.

اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا، واجعل غدنا خيرًا من يومنا، وأحسن

عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهم لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا. اللهم هيئ لنا من أمرنا رشدا. اللهم اجعل هذا البلد آمنا مطمئنًا، سخاء رخاء وسائر بلاد الإسلام.

{ ... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147].

عباد الله، يقول الله تنت: **{إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا}** [الأحزاب: 56].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

{ ... وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

* * *

(2)
القصاص في الشريعة الإسلامية(15)

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

منذ عدة أشهر والإعلام الغربي يشوش على الشريعة الإسلامية، والقضاء الشرعي في ديار الإسلام.

كتبوا المقالات وأثاروا الشبهات منذ أن حكم القضاء الشرعي في دولة الإمارات على فلبينية قتلت مخدومها، قتلته عمدًا ومع سبق الإصرار، وحكم القضاء الشرعي عليها بالإعدام قصاصًا، إلاّ أن يعفي أولياء الدم، وهذا أمر قرره الشرع الإسلامي بنص القرآن: **{وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا}** [الإسراء: 33].

ثم حدثت حادثة أخرى في المملكة العربية السعودية: قتلت امرأة بريطانية امرأتين أستراليتين، واحتكموا إلى القضاء الشرعي، فحكم القضاء بالقصاص من هذه المرأة القاتلة المتعمدة. هذا هو الجزاء إذا احتكم هؤلاء إلى القضاء الشرعي كما قال تعالى: **{فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔاۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ}** [المائدة: 42]. والقسط هو ما أنزله الله عز وجل من القصاص من القاتل المتعمد

---

(15) ألقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة في أوائل نوفمبر 1997م.

كما قال عز وجل: **{وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ}** [البقرة: 179].

لماذا شرع الله القصاص:

شرع الله تعالى القصاص ليؤمن الحياة للناس، حتى لا يعتدي الناس بعضهم على بعض، ولا يتطاول بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضا دون رادع.

إن للنفس الإنسانية منزلة كبيرة في هذا الدين، وإن لحياة الإنسان قيمة كبيرة عند الله، فهو بنيان الله تعالى ملعون من يهدمه، ملعون من يريد أن ينتزع الروح من بين جسد إنسان، ولم يعطه الله تعالى هذا الحق.

ولذلك قرر الله تعالى هذا القصاص لحياة الناس: **{وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ...}** [البقرة: 179].، والله تعالى يقول: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ...}** [البقرة: 178].

في سورة البقرة جاء هذا التعبير عدة مرات: **{كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ...}** [البقرة: 178] في القانون الجنائي.

{كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ ...} [البقرة: 180] في قانون الأسرة.

{كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ} [البقرة: 183] في قانون العبادات.

{كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ ...} [البقرة: 217] في قانون العلاقات

الدولية.

{كُتِبَ عَلَيۡكُمُ} أي فرض عليكم فرضية موثقة مؤكدة، فهكذا كتب الله القصاص على هذه الأمة **{كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى}** [البقرة: 178].

كما كتب الصيام وفرض الصيام: كتب القصاص **{ ...ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ ...}** [البقرة: 178]. جاء ذلك كما قال المفسرون: إن بعض قبائل العرب الذين كانت لهم عزة ومنعة، كانوا لا يقبلون أن يقتل الإنسان بمثله، إذا قتل عبد قالوا: نريد مقابله حرًا من عندكم، وإذا قتلت امرأة قالوا: نريد رجلًا، وإذا قتل وضيع قالوا: نريد سيدًا من ساداتكم، فالله تعالى قال: **{ ...ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ ...}**[16] [البقرة: 178].

بين القصاص والعفو:

ثم شرع القرآن العفو: **{ ... فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ ...}**[17] [البقرة: 178]، وانظروا إلى هذا التعبير: **{مِنۡ أَخِيهِ}** أبقى الأخوة رغم جريمة القتل، مما يدل على أن هذه الجريمة وحدها لا تخرج الإنسان من الملة، كما قال تعالى: **{وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا ...}** [الحجرات: 9]، **{إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ ...}** [الحجرات: 10].

{ ... فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ} [البقرة: 178].

---

(16) انظر: القرطبي (244/2).

(17) راجع تفسير هذه الآية في «تفسير الطبر» (107/2)، والقرطبي (244/2).

هذا ما جاء به الإسلام، لم يقل ما قالت المسيحية: إن من ضربك على خدم الأيمن فأدر له خدم الأيسر! فهذا قد يصلح في زمن محدود لفئة محدودة خاص، ولكنه لا يصلح شريعة عامة وشريعة خالدة لكل الناس، ولكل البيئات، ولكل الأعصار.

الإسلام شرع العدل وشرع الفضل، العدل أن تقتص لنفسك: { ... **فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ** ...} [البقرة: 194]، {**وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا** ...} [الشورى: 40]. والفضل أن تعفو وتتفضل: {**فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ**} [الشورى: 40]، و{**وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ**} [النحل: 126].

ولهذا كان حكم القضاء الشرعي في هذه الحوادث هو: القصاص، إلا أن يعفو أولياء الدم، فإذا عفوا فهم أحرار.

هذا هو العدل الذي جاء به الإسلام.

رحمة في غير موضعها:

ولكن هؤلاء لا يفهمون العدل، هؤلاء يشفقون على المجرمين، ولا يشفقون على الضحايا، إنهم مع الجاني المجرم الشرير، أحنى عليه من الأم على أولادها، أما المجتمع الذي يضحى بأمنه ويضحي بماله ويضحي بحرماته من هؤلاء العتاة الذين لا يرحمون مخلوقًا ولا يخشون خالقًا، فهم مشفقون عليهم، مترفقون بهم.

هذا المجرم الذي يقتل، والذي يسرق، وأحيانًا وهو يسرق لا يبالي أن يقتل ... لا يبالي أن يدمر ... لا يبالي أن يفعل ما يفعل ...

قد ذكرت لكم في الأسبوع الماضي ذلك الرجل الذي قتل المرأة وطفليها من أجل أن يسرق حُليها، قتل ثلاثة أنفس، امرأة لا ذنب لها، وليست من الغنيات ولا الثريات كل ما تملكه هذه «الغوايش» أو هذه الأشياء في يديها. وقتل طفلين زكيين لا ذنب لهما من أجل أن يسرق.

هؤلاء رحماء مشفقون على هذا الجاني ... لا ينبغي أن تقطع مثل يد هذا الإنسان المجرم.

ردع المجرمين ليستقيم ميزان العدل:

هؤلاء لا أدري كيف يفكرون، يقولون: إنا خسرنا نفسًا - وهو نفس الإنسان المقتول - فلا ينبغي أن نخسر نفسًا بشرية أخرى! وهي نفس القاتل.

نظروا هذه النظرة الجزئية، ونسوا أن ترك هذا القاتل بدون عقوبة يجرئ غيره على القتل ... يغريهم بالقتل ما دام الإنسان لا يقتل، وإنما يسجن، ثم في مناسبة من المناسبات يفرج عنه ... يعطى عفوًا مع من يعفى عنهم، هذا لا يردع الناس. وبهذا يزداد عدد المقتولين، وعدد القاتلين أيضًا.

خصائص العقوبة الإسلامية:

إن من خصائص العقوبة الإسلامية أنها:

1 - **عقوبة رادعة:** شرع ذلك من هو أرحم بالناس من الوالدة بولدها ... من هو أبر بالناس من أنفسهم ... من يعلم المفسد من المصلح **{أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ}** [الملك: 14].

شرع ذلك الله الذي يعلم أن النفوس الشريرة لا يردعها إلا عقوبة زاجرة { ...**ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}** [المائدة: 33]. وكما قال

ذو القرنين: {**قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا**} [الكهف: 87]، هذا منطق الفطرة.

منطق الفطرة: أن يعاقب الجاني عقوبة رادعة تزجره أن يعود إلى مثل هذه الجريمة، وتردع غيره أن يقلده في مثلها.

ما الذي جرى في هذه المجتمعات التي تشفق على الجاني وتعتبره إنسانًا مريضًا! وتعتبره ضحية من ضحايا المجتمع! وتسلبه الإرادة والاختيار؟!

ويقول قائلهم: إن الفرد دمية يحرك خيوطها المجتمع!

سلبوا الإنسان الإرادة، سلبوه المسئولية، مع أنه يفكر ويخطط وينفذ من أجل طمع في مال، أو من أجل انتقام، أو من أجل حقد، أو من أجل أي شيء من هذا.

الإنسان هو الإنسان، قتل الإنسان أخاه منذ فجر البشرية { **... قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ... فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ ...**} [المائدة: 27 - 30]. ولذلك قرر الله تعالى بعد أن ذكر لنا هذه الحادثة ... حادثة قتل ابن آدم لأخيه: { **... أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا**} [المائدة: 32].

{**مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ**} بغير قصاص، يستحق القتل. {**أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ**} النفس إذا أفسدت في الأرض كما في حد الحرابة وقطع الطريق وغيرها تستحق القتل. {**فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا**} يستمرئ الإنسان القتل، الاعتداء على الفرد كالاعتداء على النوع، من هان عليه أن يقتل إنسانًا واحدًا لا يبالي بعد ذلك. بمن يقتل.

السجن وحده ليس رادعًا عن الجريمة:

من أجل هذا كان الردع بالقصاص، السجن ليس ردعًا، كتبوا على السجون هذه العبارة: السجن تأديب وتهذيب وإصلاح! ولكنا جربنا فلم نجد السجون هذبت، ولا أدبت، ولا أصلحت. رأينا الذي يسرق يدخل السجن فيخرج منه أشد ضراوة وأشد حنكة وتجربة، تعلم من العتاة ... من اللصوص الذين هم أسبق منه زمنًا وأكثر منه خبرة، تعلم منهم الإجرام.

لو كان معه الشهادة الابتدائية في الإجرام يجد من معه الثانوية! وإن كان معه الثانوية يجد من معه البكالوريوس أو الدكتوراه في الإجرام! هناك درجات في الإجرام!

ولذلك انتشرت السرقات، رغم عقوبات السجن في البلاد الإسلامية التي عطلت حدود الله عز وجل.

حينما أقامت المملكة العربية السعودية حد السرقة، وكان يضرب بها المثل في اختلال الأمن ـ كان الناس يقولون في مصر قديمًا عندما يذهب الإنسان إلى الحج: الذاهب مفقود والعائد مولود! وذلك لانتشار الجرائم هناك، والقتل والسطو وقطع الطريق وقطع الرقاب ـ فلما أقيمت هذه الحدود ... لما أقيم هذا الجزء من حكم الشريعة كان له أثره ... كان له أثره في إقامة الأمن في الحياة، في المجتمع كله، أصبح الإنسان يذهب إلى متجره ويتركه أحيانًا ويذهب إلى الصلاة، ويعود لا شيء يحدث. معظم جرائم السرقة تحدث من أناس يفدون من الخارج لهذا الأمر.

ماذا حدث في المجتمعات الغربية التي تسخر من حدود الشريعة الإسلامية

... تسخر من حد السرقة وتسخر من القصاص؟

اختل الأمن اختلالًا تامًا، لا تكاد تمر دقيقة إلا وحادث قتل أو سرقة أو جريمة، يحدث في مدينة من المدن. يعيش الإنسان خائفًا على نفسه ... خائفًا على أهله ... خائفًا على ماله ... خائفًا على عرضه، لم يعودوا يستمتعون بالأمن، الخوف الجماعي هو السمة العامة في هذا المجتمع.

حينما تذهب إلى هناك يقولون لك: أغلق باب الحجرة في الفندق بالترباس، ولا تفتح لأي أحد يقرع بابك، انظر من العين السحرية، واحذر ثم احذر ثم احذر، وإذا خرجت فلا تخرج بعد الساعة السادسة مساء أو نحو ذلك، وإياك أن تخرج وحدك، وإذا خرجت فلا تأخذ معك مالًا كثيرًا في جيبك، ولا تخرج بغير مال أيضًا، لأن هؤلاء اللصوص الذين يأتون يفتشونك فإذا لم يجدوا معك شيئًا قالوا: إنك تستحق القتل وقتلوك، فاترك لهم شيئًا يرضيهم في جيبك!! وهكذا الخوف من القتل والخوف من الاعتداء هو السمة العامة في هذا المجتمع.

هذه هي تشريعاتهم الوضعية، هذه قوانينهم الأرضية، فماذا يعيبون علينا؟

إن الله شرع هذه الأحكام لمصلحة عباده، الله تعالى لا يناله فنع من وراء ذلك، هو غني عن العالمين، إنما يشرع ما يشرع لمصلحة العباد في المعاش والمعاد، لمصلحة الفرد ومصلحة المجتمع، المصلحة الآنية والمصلحة المستقبلية، المصلحة المادية والمصلحة المعنوية، المصلحة الخاصة والمصلحة العامة، المصالح يرعاها هذا الشرع العظيم لأنه شرع الله، ليس شرع فلان ولا علان، شرع الله لعباده، حكم الله لخلقه: {**أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ**

وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ} [المائدة: 50].

لهذا كان «الردع» في هذه الأحكام وفي هذه العقوبات هو أول خصائص هذه العقوبات: **{وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ}** [المائدة: 38]، **{إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}** [المائدة: 33].

باب التوبة مفتوح للمجرمين:

ومع هذا فإن هذا الشرع العظيم فتح باب التوبة على مصراعيه لمن يريد أن يتوب. في هذا الحد ... السرقة الكبرى ... حد الحرابة أو قطع الطريق يقول القرآن: **{إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ}** [المائدة: 34] هؤلاء الذين أرهبوا الناس، وأرعبوا البشر، وأخافوا الطريق، إذا هيأت لهم أنفسهم أن يتوبوا، وأن يرجعوا عن غيهم، وأن يسيروا في طريق الاستقامة، فتابوا إلى الله، وقرعوا بابه، وجاؤوا وسلموا أنفسهم مختارين **{إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ}** [المائدة: 34].

وبعد حد السرقة يقول عز وجل: **{فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ}** [المائدة: 39]. بعض الفقهاء يشترط أن يتوب السارق قبل القدرة عليه ويرد المال - كما يقول الأحناف - ويسلم نفسه فلا تقطع يده. والبعض يفتح الباب للتوبة باستمرار كما هو رأي الإمام ابن تيمية وابن القيم: أن من تاب وظهرت عليه علامات التوبة، فمن حق القاضي أن يسقط عنه الحد،

وإذا سقط الحد ليس معناه سقوط العقوبة نهائيًا، يسقط القطع ولكن يعزر بما يناسبه، يسقط الجلد ولكن يعزر بما يناسبه، يسقط القصاص ولكن يعزر بما يناسبه. ولكن فرق ما بين القصاص والحدود الأخرى: أن القصاص حق الإنسان ... حق أولياء الدم، هم أصحاب الحق فيه. الحدود الأخرى هي حق الله، ولذلك لا يشترط في تلك الحدود أن يطالب بها مطالب، أما في القصاص فلا بد أن يطالب ولي الدم، وهو حر إن شاء قبل الدية أو أكثر من الدية، وصالح القاتل على ما يتفقان عليه، وإن شاء عفا بغير شيء، وإن شاء أخذ حقه بالقصاص.

التوبة تسقط الحد، وهذه فرصة عظيمة في هذا الدين، إذا رأى القاضي أن الجاني قد بدت عليه أمارات التوبة والاستقامة، وشعر منه بالصدق، فإن من حقه أن يسقط عنه الحد. لكن إذا رآه متلاعبًا، تاب مرة وعفا عنه ثم جاء في المرة الثانية والثالثة وهكذا، هذا يضحك على القضاة، هذا لا بد أن يردع، ولا بد أن يعاقب العقوبة التي تليق بمثله.

من خصائص العقوبة في الإسلام: الردع.

2 ـ **من خصائص العقوبة المساواة:** من قتل يُقتل، يُقتل الصغير بالكبير، يُقتل الطفل بالإنسان الكهل، يُقتل من قتل فراشًا أو ساعيًا وكان أستاذًا كبيرًا، يُقتل به، يُقتل الغني بالفقير، يُقتل الإنسان بالإنسان.

الإسلام ينظر إلى النفس الإنسانية: «النفس بالنفس»، أسود أو أبيض، غني أو فقير، كبير أو صغير، حاكم أو محكوم، لا فرق بينهما. حتى الحاكم يحكم عليه القاضي، يذهب الوالي إلى القاضي ويحكم عليه، حتى قال جمهور

الفقهاء: الإمام الأعظم ... الخليفة الأكبر لو ارتكب جريمة يذهب إلى قاضي المسلمين ويحكم عليه، وعليه أن ينفذ. وإذا لم ينفذ فإنه يعاقب أمام الله عقوبتين: عقوبة من أجل أنه استحق عليه الحد وعقوبة أخرى: أنه عطل هذا الحد وواجب عليه أن يرعاه وينفذه.

ليس في الإسلام إنسان كبير على حكم الله، القوانين الوضعية استثنت أناسًا كثيرين لا يقام عليهم حكم القانون، أعطتهم حصانة ... حصانة برلمانية ... حصانة قضائية ... حصانة دبلوماسية ... حصانات مختلفة! الإسلام لا يحصن إنسانًا ارتكب جريمة وقامت عليه الأدلة، كل الناس سواسية كأسنان المشط أمام أحكام الله تتت.

هذه هي المساواة التي جاء بها هذا الدين.

ويكفي أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما هم قريشًا أمر تلك المرأة المخزومية التي تكررت منها السرقة ثم قامت البينة عليها فوجب أن تقطع يدها، فأهم قريشًا أن هذه من بني مخزوم من ذؤابة قريش، إنها لفضيحة الدهر أن تقطع يدها، فقالوا: ماذا نفعل؟ فكلموا أسامة بن زيد حبَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن حبه ليشفع في هذه المرأة، فجاء أسامة ليشفع عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: **«يا أسامة، أتشفع في حد من حدود الله؟ إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»**[18] -

---

(18) رواه البخاري في أحاديث النبي (3475)، ومسلم في الحدود (1688)، وأبو داود،

هكذا قال صلى الله عليه وسلم - وهي أعز الناس عليه، وأحب الناس إليه. حماها الله من السرقة!

الناس سواء في ميزان الإسلام، هذا ما جاء ه هذا الدين.

3 - **من خصائص العقوبة: العدل:** ثم هناك أيضًا من خصائص العقوبة الإسلامية أنها تقوم على العدل. والعدل أكبر من المساواة، العدل أن تراعي الظروف، العدل أن تخفف عمن يستحق التخفيف.

ولذلك من عجائب ما جاءت به هذه الشريعة أنها جعلت عقوبة الحر ضعف عقوبة العبد، العبد يخفف عنه، على غير ما كان عند الرومان وغيرهم، كان العبيد يقتلون في جرائم بسيطة، وكان الأشراف والنبلاء إذا قتلوا عند الرومان لا يقتص منهم، خصوصًا إذا قتلوا أحدًا من الطبقات الدنيا ... الطبقات الضعيفة المسحوقة التي لا وزن لها عندهم.

الإسلام جاء وتحدث عن هؤلاء الإماء الجواري وقال: { **... فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ...**} [النساء: 25] أي ما على الحرائر من العذاب، عليهن النصف. ولذلك قال الفقهاء: إن عقوبة العبد نصف عقوبة الحر في الكم وفي الكيف، حتى قالوا: إن السوط الذي يجلد به العبد إذا ارتكب جريمة يجب أن يكون أخف من السوط الذي يضرب به الحر، لأن هذا مقتضى التخفيف.

والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، عن عائشة رضي الله عنه ا «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للقرضاوي (651/2) برقم (1398).

العذر بالجهل:

من العدل أن تراعى ظروف الإنسان، إذا كان جاهلًا ومن شأنه أن يجهل - كما قال عمر ررر: لا أحد إلا على من علمه - من يجهل أن السرقة حرام ربما كان في بادية لم يسمع بأحكام الإسلام أو كان حديث عهد بإسلام أو نحو ذلك ممن يعذر بجهله فيخفف عنه. إذا سرق من حاجة - دفعته الحاجة لأن يسرق - يخفف عنه.

ومن أجل هذا نجد عمر بن الخطاب ررر أوقف إقامة الحد في عام المجاعة، عام المجاعة الذي أصاب المسلمين في بلاد الحجاز أوقف فيه عمر الحد. لم يسقط عمر الحد كما يقول الناس، إنما لم يجد استيفاء الحد، لم يستوف الحد شروطه، ولم تنتف موانعه.

درء الحدود بالشبهات:

لا بد أن تتهيأ الشروط وتتوافر، وتنتفي الموانع ومن هذه الموانع: الشبهات، فقد جاء «**ادرءوا الحدود بالشبهات ...**»[19]. وروى الحاكم وغيره: «**ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن وجدتم للمسلم مخرجًا فخلوا سبيله، فإن الإمام لأن يخطئ في العفو خير من أن**

---

(19) رواه ابن عدي عن ابن عباس رضي الله عنه ب، ورواه أبو مسلم الكجي وابن السمعاني عن عمر بن عبد العزيز مرسلًا، قال ابن حجر: وفي سنده من لا يعرف، ورواه مسدد البصري في مسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا بلفظ: «**ادرأوا الحدود بالشبهة**» قال ابن حجر: وهو موقوف حسن الإسناد «فيض القدير» للمناوي (227/1، 228) برقم (314). وتتمته «**وأقيلوا الكرام عثراتهم إلا في حد من حدود الله تعالى**».

يخطئ في العقوبة»[20].

هذا ما جاء به الإسلام، لا بد أن تنتفي الشبهات.

ولذلك قالوا: لو سرق إنسان من بيت المال لا يقطع، لماذا؟ قالوا: «لأن له حقًا فيه»[21]. إذا قال: انا لم آخذ حقي وهذا بيت المال ولي حق فيه. إذا سرق الوالد من ولده، إذا سرقت المرأة من زوجها ... لأن هناك حقوقًا مشتركة.

لا بد أن تنتفي الشبهة، وفي عام المجاعة الشبهة قائمة.

بعض الناس يقولون: إن عمر برأيه وتقديرًا للمصلحة أسقط الحد، ومن حقنا في عصرنا أن نسقط الحدود بناء على ما اتجه إليه عمر! وحاشى لله أن يسقط عمر حدًا من حدود الله، قد وصف بأنه كان وقافًا عند كتاب الله. كانت المرأة تقول له شيئًا فيقول: أصابت المرأة وأخطأ عمر. كان عمر رجاعًا إلى النصوص، لا يمكن أن يفتات عليها، ولكنه رأى أن الحد لم يجب، لم يستوف شروطه، ولم تنتفي موانعه.

وكذلك الغلامان اللذان سرقا ناقة[22] ... غلاما حاطب بن أبي بلتعة سرقا

---

(20) رواه ابن أبي شيبة والترمذي والحاكم والبيهقي في «السنن» عن عائشة رضي الله عنه ت مرفوعًا، وقال الحاكم صحيح، ورده الذهبي وقال: وأجود ما في الباب خبر البيهقي عن ابن مسعود: «**ادرأوا الحد والقتل عن المسلمين ما استطعتم**» قال: موصول جيد «فيض القدير» للمناوي (227/1) برقم (314). وقد حسن الألباني إسناده موقوفًا في «إرواء الغليل» رقم (2355).

(21) وقد حدث أن سرق رجل من بيت المال بالكوفة، فسأل ابن مسعود عمر عمن سرق من بيت المال. فقال: أرسله فما من أحد إلا وله في هذا المال حق. انظر: «المغني» لابن قدامة (386/12).

(22) قصة غلامي حاطب بن أبي بلتعة ذكرها البيهقي في «الكبرى» (278/8)، وعبد

ناقة الرجل المزني فنحراها، وأكلاها، واشتكاهما الرجل، وهم عمر أن يقيم عليهما الحد، ولكن عرف أنهما فعلا ذلك من الجوع، وقال: لولا أعلم إني أراكم تجيعونهم حتى لو أكلوا ما حرم الله عليهم لأبيح لهم لقطعت أيديهم، ثم قال لعبد الرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة: والله لغرمنك غرامة توجعك، ثم قال للرجل: كم ثمن ناقتك؟ قال: عرض علي فيها أربعمائة درهم، قال: فادفع له ثمانمائة درهم. غرمه ضعف ثمنها. وهذا لأنه لا يقبل الإسلام أن يقام الحد إلا على مجرم، أما من سرق من حاجة فليس بمجرم.

الحدود وحدها لا تكفي لاستقامة المجتمع:

ومن هنا نقول: إننا إذا أردنا أن نقيم الحدود اليوم فلا يجوز أن نأخذ الحدود وحدها ونقيمها دون سائر أحكام الشريعة، كأن الله لم ينزل في كتابه إلا: **{وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا ...}** [المائدة: 38]، **{ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ ...}** [النور: 2]، إن الحدود في القرآن لا تكاد تبلغ نحو عشر آيات، وهناك أكثر من ستة آلاف آية، فلماذا أخذنا هذه وحدها؟ ومعظم الحدود جاءت في سورة «المائدة» وهي من أواخر ما نزل من القرآن، أي بعد أن قام المجتمع الإسلامي واستقرت دعائمه ورسخ بنيانه بدأت هذه العقوبات.

والعقوبات للشواذ من الناس، لمن انحرفوا عن الطريق، أما القرآن والإسلام فجاء ليصنع الأسوياء، ليربي المستقيمين على الحق، فمن شذ بعد ذلك عوقب بما يرده على سواء السبيل.

الرزاق في «مصنفه» (239/10).

إننا قبل أن نقيم الحد لا بد أن نقيم تعاليم الإسلام كلها، قبل أن نقيم: {فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا} [المائدة: 38]، لا بد أن نقيم {وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ}(23)، نأخذ الزكاة من الأغنياء لنردها على الفقراء، نقيم العدالة الاجتماعية ... التكافل الاجتماعي العام حتى يصبح المجتمع كالأسرة الواحدة، وكالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، وكالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله.

هذا ما ينبغي أن نفهمه في هذه العقوبات(24).

إن العقوبات التي جاء بها الإسلام هي مفخرة لنا نحن المسلمين، هي مأثرة من مآثر هذا الدين، وليست شيئًا، نخجل منه، أو نستحي من الحديث عنه، إنها عدل الله في أرض الله لعباد الله، ولن يحقق المسلمون رخاء ولا استقرارًا ولا ازدهارًا ولا أمنًا حقيقيًا إلا إذا أقاموا حدود الله بشروطها، كما شرعها الله عز وجل.

لا نريد أن يؤخذ من الإسلام الحدود وحدها، لا، وإنما يؤخذ الإسلام كله، لا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض، وكما قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: {وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ} [المائدة: 49]، لا يجوز أن يفتنك هؤلاء عن بعض

---

(23) البقرة: 43، 83، 110، 277. النساء 77. التوبة: 5، 11. الحج: 78. النور: 56. المجادلة: 13. المزمل: 20.

(24) لمزيد من التفصيل انظر: «بينات الحل الإسلامي»، و «ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده» للدكتور يوسف القرضاوي. طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة. وانظر: «أثر إقامة الحدود في استقرار المجتمع» للدكتور محمد حسين الذهبي. طبعة مكتبة وهبة.

ما أنزل الله إليك، إذن لا بد أن تحكم بكل ما أنزل الله إليك **{... فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ}** [المائدة: 49].

أسأل الله تتت أن يردنا إلى دينه وشريعته ردًا جميلًا، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدا، وأن يفقهنا في دينه، إنه سميع قريب، أقول قولي هذان وأستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

موقف أمريكا من الإسلام:

أما بعد أيها الإخوة المسلمون:

لا أدري ماذا بيننا وبين أمريكا، لماذا تأخذ أمريكا دومًا دور المعادي للأمة الإسلامية، الممالئ لأعدائها؟ لماذا تقف أمريكا أبدًا مع إسرائيل؟ لا تضغط عليها، بل تدللها، وتربت على كتفها، وتملي لها، وترخي لها العنان لتفعل ما تشاء، وإذا أراد المجتمع الدولي أن يضغط على إسرائيل بقرار فإن «الفيتو» الأمريكي واقف لهم بالمرصاد.

أمريكا وحصار السودان:

آخر ما صنعته أمريكا في هذا الأسبوع هو القرار الذي اتخذته بالمقاطعة والحصار الاقتصادي الشامل لجمهورية السودان!

ما الذي جناه السودان حتى يحاصر؟ وهو محاصر من زمن غير قريب. السودان محاصر من جهات شتى، ولكن يراد الحصار الكامل الشامل على السودان.

ما جناية السودان؟ ما الجريمة التي صنعها السودان؟ هل ارتكب السودان ما ارتكبته إسرائيل؟ إسرائيل التي تسفك الدماء وتهتك الحرمات، وتفعل ما تفعل في القدس، وتضم ما تضم، تقيم المستوطنات، تحفر تحت المسجد الأقصى، تفعل هذه الأفاعيل، ولا تعاقب بشيء والسودان يعاقب!

ما جريمة السودان؟

قالوا: أن السودان يؤوي الإرهاب العالمي! وقال السودان مرارًا وتكرارًا: يا قوم تعالوا هاتوا مفتشيكم، ابعثوا مندوبيكم ومراقبيكم، وأنتم لا يخفى عليكم شيء، الأرض أمامكم، اذرعوها شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، وابحثوا هل هناك معسكرات للإرهابيين؟ هل هناك ارهابيون في السودان؟

كان هناك بعض الأفراد أووا إلى السودان في فترة ما، ثم تركوا السودان من أنفسهم، لم يريدوا أن يحرجوا هذا البلد الذي يتجه إلى الإسلام.

قالوا: السودان يؤوي الإرهاب! لماذا تركتم الإرهابي الأكبر إسرائيل ولم تعاقبوه بشيء؟ «السودان يؤوي الإرهاب» دعوى، مجرد دعوى.

والدعاوي ما لم تقيموا عليها بينـــات أبناؤهـــا أدعـــا

دعوى لا دليل عليها ولا بينة.

ويقولون: السودان يعتدي على الدول المجاورة، يهدد أمن الدول المجاورة؟! يا سبحان الله من الذي يهدد الآخر؟ ومن الذي يعتدي على الآخر؟ السودان معتد أو معتدى عليه؟ السودان اعتدى عليه.

السودان وقف مع أريتريا حتى استقلت، رغم اعتراض كثير من الإسلاميين على السودان، وقالوا: هؤلاء ليسوا أحبابًا لكم ولا أولياء لكم، هم

عدو لكم وستعلمون. السودان وقف مع أريتريا، والآن أريتريا قلبت ظهر المجن للسودان، وأصبحت تهدد السودان، وأصبح المعارضون في أريتريا، وأصبحت القوات تدخل من أريتريا، وكذلك من أوغندنا، وكذلك من أثيوبيا.

السودان هو المهدد من جيرانه، فكيف انقلت الآية؟ كيف انعكس الأمر؟ كيف قلب الوضع؟!

هذا هو العجيب، هذا هو المنطق الذي يقلب الحقائق أباطيل والأباطيل حقائق، لأنه يستند إلى منطق القوة لا إلى قوة المنطق، أصبحت القوة هي التي تتكلم:

تكلم السيف فاسكت أيها القلم تحكم الذئب فاخضع أيها الحمل!

هذا هو المنطق الذي يقوله الأقوياء المتجبرون المستكبرون في الأرض، وكأنهم أصبحوا آلهة في هذا الكون لا يسألون عما يفعلون.

لا، إن الله أكبر منهم، وأقوى وأعظم، ولن يستمر القوي قويًا ولن يستمر الضعيف ضعيفًا، دوام الحال من المحال، وسنن الله تأبى ذلك: { **... وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ...**} [آل عمران: 140]

وقالوا: إن السودان يعتدي على حقوق الإنسان! حقوق الإنسان مهدرة في السودان! كيف هذا؟ إن الإنسان في السودان كما رأيت لا يستطيع أحد أن يهدر حقوقه. السودان بلد يقوم على العشائرية وعلى الخلطة بين الناس بعضهم وبعض، ليس هناك حاكم فرعون، ليس هناك حاكم مستكبر، الإنسان يستطيع أن يكلم رئيس الجمهورية، وأن يكلم أي وزير، وأن يحادث أي والٍ ويستطيع أن يصل إليه. ولذلك يتعذر أن يوجد في السودان ما يوجد في غيره.

وأنا أقول لهؤلاء الغيورين على حرمات الإنسان وعلى حقوق الإنسان: أين أنتم من البلاد التي رأينا فيها حقوق الإنسان وقد ضاعت، وكرامة الإنسان وقد أهدرت، وحياة الإنسان وقد هددت، وأمن الإنسان وقد زال؟ أين أنتم من العذارى والنساء اللاتي يؤخذن من خدورهن ويذهب بهن إلى المعتقلات؟ أين أنتم من المرأة التي تجبر على أن تخلع حجابها، ويصبح الحجاب جريمة، وهو فريضة عليها من ربها؟! لا تستطيع أن تذهب إلى مدرسة، ولا تستطيع أن تذهب إلى جامعة، ولا أن توظف في حكومة ولا مؤسسة عامة، بل لا تستطيع أن تعالج في مستشفى إلا إذا خلعت حجابها وخمارها؟! لماذا تسكتون عن هؤلاء؟ لماذا لا تعاقبونهم؟

السودان هو الذي ينتهك حقوق الإنسان؟! أين هذه الحقوق التي انتهكت؟

السودان يطبق الشريعة، وقال: إنما تطبق الشريعة على الولايات التي فيها أكثرية إسلامية، والتي ليس فيها أكثرية إسلامية يترك لها الخيار، إما أن تقبل الشريعة الإسلامية إذا أرادات، أو تقبل أي قانون وضعي. تركوا الخيار للناس.

ما الذي فعله السودان في انتهاك حقوق الإنسان؟ أهذا منطق؟ أهذا منطق البلد الذي أعطاه الله القوة، وأصبح هو القوة الوحيدة والقطب الأوحد في العالم؟!

إن الإنسان إذا أعطاه الله نعمة فلم يصنها ولم يشكرها، فإنه جدير أن تزال عنه هذه النعمة، والله تعالى يقول: **{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}** [إبراهيم: 7].

إننا نناشد أمريكا أن تكف عن هذه الطريقة في التعامل مع الأمة العربية والإسلامية.

لماذا هذا التعامل مع بلاد العرب والمسلمين وحدهم؟

لماذا الضغط على العراق وحده؟ نحن لسنا من أتباع صدام حسين، ولسنا من البعثيين، ولكننا مع الشعب العراقي ... مع الجائعين ... مع الأطفال، لا نريد أن يذوق هذا الشعب ثمرة انحراف حكامه.

لماذا هذا كله مع الشعب العراقي حينا ... مع الشعب الليبي حينا ... مع إيران حينا آخر، مع السودان أخيرًا.

إننا نطالب أمريكا أن تكون منصفة، وأن تكون عادلة، وأن تراقب الله وقد أعطاها هذه القوة الهائلة، ولكن الله أقوى منها **{فَأَمَّا عَادٌ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ}** [فصلت: 15].

* * *

(3)
أكذوبة اضطهاد الأقليات المسيحية!

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

التنصير في أندونيسيا:

تتناول الصحف الأجنبية والعربية في هذه الأيام، قضية اختلقتها وغذّتها وضخمتها القوى المعادية للإسلام، ونفخ فيها الإعلام الغربي حتى جعلها تسيطر وتتداعى بها وتتناقلها وكالات الأنباء وغيرها.

هذه القضية ما يسمونه: اضطهاد الأقليات المسيحية في الشرق الإسلامي! في بلاد العرب خاصة، وبلاد الشرق الإسلامي عامة. فبعد أن كانوا من قبل يتهمون مصر والسودان والسعودية وإيران، أضافوا إليها الآن ماليزيا وأندونيسيا.

ولماذا ماليزيا وأندونيسيا؟ قالوا: لأن هؤلاء يقفون ضد المبشرين الإنجيليين الأمريكيين، ولا يفتحون لهم الأبواب على مصاريعها!

هذا مع أن هؤلاء يعملون منذ عقود من السنين، والأبواب مفتحة أمامهم، والفرص متاحة، ولم يكن يسألهم أحد: لم؟ ولا يقول لهم: كيف؟ حتى إنه في أندونيسيا أقيم نحو ستين مطارًا للإرساليات المسيحية الأجنبية! تعلمون أن أندونيسيا آلاف من الجزر، المسلمون يتنقلون من جزيرة إلى أخرى عن طريق المراكب والقوارب، أما الإرساليات المسيحية فكانت تنتقل عن طريق

الطائرات الهليوكبتر، وعن طريق المطارات التي وجدت في كل مكان، حتى قاربت الستين مطارًا.

كان هؤلاء قد رسموا خطة وحددوا هدفًا: أن ينصروا أندونيسيا(25) في خمسين عامًا، لا يمر نصف قرن إلا ويغلب على أندونيسيا العنصر المسيحي.

هكذا خططوا: أن يضربوا أكبر بلد إسلامي في آسيا بل في العالم كله وهو: أندونيسيا، ومثل ذلك في أكبر بلد إسلامي في إفريقيا وهو: نيجيريا.

وعملوا عملهم، ونجحوا إلى حد كبير، ويجب أن نعترف بذلك، حتى إني أذكر منذ نحو ربع قرن في أول مرة أزور فيها أندونيسيا وبلاد الشرق الأقصى - وكنت مع الأخ المرحوم الشيخ عبد الله الأنصاري حححح - سألت المضيف في الطائرة: هل أنت مسلم؟ قال: لا، أنا مسيحي، ولكن زوجتي مسلمة! تصوروا الخلل الذي حدث.

وسألت المضيفة: هل أنت مسلمة؟ قال: لا، أنا مسيحية، ولكني من أسرة مسلمة! يعني أنها نصرت ارتدت والعياذ بالله(26).

فهكذا كانوا يفعلون في هذا المجتمع، وكانوا ساكتين في ذلك الوقت، ما

---

(25) من أراد التوسع فليراجع كتاب: «غارة تبشيرية جديدة على أندونيسيا»، لمؤلفه: أبو هلال الأندونيسي، طبعة دار الشروق ط. (1980)، طبعة رابعة.

(26) انظر تفاصيل هذه الرحلة وما أسفرت عنه من دعوة شيخنا القرضاوي لإنشاء مؤسسة تحفظ على المسلمين إسلامهم وتدينهم، فكانت «الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية» بالكويت، انظر: «ابن القرية والكتاب» للدكتور القرضاوي الجزء الثالث. طبعة دار الشرق القاهرة.

دامت الأمور في صفهم فلا حرج في ذلك! بل كانوا ينشرون ما بين الحين والحين أنهم فاشلون في المجتمعات الإسلامية، وأن التبشير لا يؤتي أكله، ولا يحقق هدفه.

لماذا يدعي التنصير الفشل في بلادنا؟

وقصدهم من هذا عدة أمور، من هذه الأمور:

1 - أن يستدروا عواطف أولئك الذين يدفعون إليهم بالملايين، فيقولوا لهم: إن المسلمين مستعصون علينا، نريد مزيدًا من الدعم ومزيدًا من الإمداد، فتتوالى عليهم التدفقات المالية والتبرعات المليونية.

هذا من ناحية.

2 - ومن ناحية أخرى لعلهم أرادوا أن ينومونا ويخدرونا ليقول: الإسلام بخير، والإسلام لا يستطيع أحد أن يواجهه. وننام على آذاننا، ونترك هؤلاء يعبثون في الأرض فسادًا، ويعبثون بعقائد الأمة ومقدساتها، وبأبنائها وبناتها.

3 - ولعلهم أيضًا يعتبرون أن ما يحققونه هو شيء ضئيل بالنسبة لما يأملونه وينشدونه، فلذلك هم ينشرون أنهم فاشلون، وأنهم مخفقون في العالم الإسلامي.

هكذا كانت الأمور تجري في ذلك الوقت، فكانوا صامتين، ما كانوا يتحدثون عن اضطهاد ولا عن شيء، لأنهم هم الذين يكسبون، وهم الذين يغنمون، وهم الذين يضللون.

فلما استيقظ المسلمون، ولما بدأ عصر الصحوة الإسلامية، وبدأ المسلمون يفيقون من سكرتهم، ويستيقظون من سباتهم، ويعرفون هويتهم وأنهم مسلمون، وبدأ الدعاة إلى الله يعملون، بدأ هؤلاء يشعرون بإخفاقهم، وبدأوا يثيرون هذه النعرات وهذه الدعاوي الباطلة: أنهم مضطهدون، وانهم لا تفتح لهم الأبواب. وما هذا بصحيح.

الواقع أن الصحوة الإسلامية هي التي عرفت الناس حقيقة هؤلاء. هم لم يجيئوا بأهداف دينية حقيقية، وإنما تحوط بهم علامات استفهام، فهم طلائع الاستعمار الجديد. وإلا كان عليهم أن يذهبوا إلى البلاد التي لا تعرف دينًا ... إلى البلاد الوثنية والبلاد الملحدة، بدل أن يذهبوا إلى بلاد الإسلام بلاد التوحيد.

إن هذه الحملة الجديدة التي تشن على العرب والمسلمين هنا وهناك، تشنها القوى المعادية للإسلام في أمريكا اليوم، وأمريكا الآن تتزعم هذا الأمر، من لم يخضع لها؛ من لم ينحن لأوامرها؛ من لم ينفذ طلباتها؛ من لم يسر في ركابها، فلا بد أن تثير عليه المثيرات، و لا بد أن تخلق حوله الأزمات.

وهكذا، وكل بلد لا يقول: نعم ... لا يحني رأسه ... لا يسلم بهذا الإله الجديد: أمريكا المستكبرة في الأرض بغير الحق، التي تريد الناس أن يكونوا عبيدًا لها، كل بلد يخضع لهذه الأوامر: تثير حوله هذه الشبهات وهذه الأزمات.

التسامح بين المسلمين والأقباط في مصر:

وهكذا الآن يثار حول مصر، لأنها حاولت أن تتحرر من الضغط

الأمريكي يثار حولها أنها تضطهد الأقباط.

وللأسف هناك بعض الأقباط ممن يعيشون في أمريكا غذّوا هذا الأمر، ومشوا فيه أشواطًا.

وقد نشأنا في مصر صغارًا وشببنا فيها كبارًا، وما رأينا اضطهادًا للأقباط، بل رأينا تعايشًا سليمًا. كثيرًا ما نجد الكنيسة والمسجد متجاورين، هذا مسجد وتجاهه كنيسة، ولم يحدث أي صراع أو أي نزاع.

أذكر وأنا صبي صغير كان في بلدنا صرّاف اسمه «الحاج جرجس»! وكنت في صغري أحسبه مسلمًا، لأنه «حاج»! حتى عرفت بعد ذلك أنه «حاج» أي حجّ إلى القدس! وأنه ليس بمسلم. بلدنا ليس فيه أي مسيحي، ولكن كان المسيحيون يحتكرون مهنة الصيرفة، وكل الصيارفة كانوا مسيحين، حتى دخلها الأزهريون بعد ذلك، وأصبح المسلمون يكونون فيها أغلبية. فما كنت أشعر بأي شيء بين المسلمين والمسيحيين، وأرى الناس يستقبلون هذا الصراف ويكرمونه ويعيش بينهم، ولا أجد في ذلك أي شيء، ولا يجد هو أي حرج.

ما عرف الناس هذا الأمر.

هل المسلمون والمسيحيون إخوة؟[27]

المسلمون والمسيحيون عاشوا طوال العصور إخوة متحابين، هكذا قلت من قبل، فقال لي بعض الإخوة: كيف تقول «إخوة متحابين»، والله تعالى يقول: **﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾** [الحجرات: 10]؟ قلت له: الأخوة ليست كلها دينية.

---

(27) انظر ما ذكرناه في كتابنا: «فتاوى معاصرة» (192/3) وما بعدها.

هناك أخوة دينية كما في الآية: {إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ...}، وكما في الحديث: «**المسلم أخو المسلم ...**»[28]. ولكن هناك أخوة قومية أو وطنية كما قال الله تعالى: **{كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ 105 إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ ... كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ 123 إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ ... كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ 141 إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ ...}** [الشعراء: 105 - 142] أخوهم أي منهم لأنه من قومهم. ولذلك لما لم يكن شعيب من أصحاب الأيكة قال: **{كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ 176 إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ ...}** [الشعراء: 176، 177] لأنه لم يكن واحد منهم، كانوا قومًا غير قومه. إنما كان من مدين، ولذا قال تعالى:

{وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا} [الأعراف: 85].

فهناك أخوة قومية، وهناك أخوة وطنية. هذه المعايشة وهذا الجوار كون نسيجًا واحدًا من دينين مختلفين: **{لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ}** [الكافرون: 6].

أسس التسامح مع المخالفين[29]:

هكذا علمنا الإسلام: مع اختلاف الدين نستطيع أن نتعايش.

---

(28) جزء من حديث رواه البخاري في المظالم (2442)، ومسلم في البر والصلة (2580) وأبو داود والترمذي، من حديث ابن عمر رضي الله عنه ب وتتمته « **... لا يظلمه ولا يسلمه من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة**».

وفي حديث آخر: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله**» رواه أحمد بإسناد حسن وكذا قال الهيثمي. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للقرضاوي برقم (1302، 1386، 1569، 1796، 2182).

(29) راجع ما ذكرناه في «فتاوى معاصرة» (184/3) تحت عنوان: أساس التسامح الإسلامي، وانظر ذلك بالتفصيل أيضًا في رسالتنا: موقف الإسلام العقدي من اليهود والنصارى (ص61)، طبعة مكتبة وهبة ط. (1999م).

حل الإسلام هذه القضية بإيجاد أساس عقدي وفكري للتسامح، يقوم هذا الأساس على عدة عناصر:

1 - العنصر الأول: أن اختلاف الناس في أديانهم واقع بمشيئة الله تتت، ومشيئة لا تنفصل عن حكمته، فللَّه في ذلك حكمة، ولذلك قال تعالى: **{وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ 118 إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ}** [هود: 118، 119].

قال المفسرون: **{وَلِذَٰلِكَ}** أي وللاختلاف خلقهم[30]. لأنه خلقهم وأعطاهم الحرية والإرادة، فإذا أعطى الإنسان العقل والحرية والإرادة فلا بد أن يكون له اتجاه غير اتجاه الآخر، لا بد أن يختلف الناس.

فهذا بمشيئة الله، ولا يستطيع أحد أن يعارض مشيئة الله عز وجل في كونه.

2 - العنصر الثاني: أن الناس وإن اختلفوا ما بين مؤمن وكافر، وبر وفاجر، ومهتد وضال، فإن الحساب بين هؤلاء ليس في هذه الدنيا، إنما الحساب عند الله يوم القيامة، ولذلك يقول الله تعالى: **{وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ}** [الحج: 68، 69]، **{ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ}** [الشورى:15].

3 - وهناك عنصر ثالث: أن الإسلام يحترم الإنسان من حيث هو إنسان، كل إنسان أيًّا كان دينه، آمن أو كفر، بر أو فجر، له كرامة الإنسان، كما قال

---

(30) وهذا القول هو الذي اختاره ابن جرير الطبري ورجحه على القول الآخر وهو: «وللرحمة خلقهم». انظر: «جامع البيان» (12/141 - 142).

تعالى: {**وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ...**} [الإسراء: 70].

هو من حيث آدميته مكرم ... من حيث إنسانيته مصون الحرمات، ولهذا روى البخاري في «صحيحه» أن النبي صلى الله عليه وسلم مرت به جنازة - نعش ميت - فقام لها واقفًا.

فقيل له: إنها جنازة يهودي. فقال صلى الله عليه وسلم: «**أليست نفسًا؟**»(31) بلى. معنى هذا أن لكل نفس في الإسلام حرمة ومكانة، وإن كانت نفس إنسان يهودي.

4 - وعنصر رابع: أن الإسلام جاء بالعدي للناس جميعًا، عدل الله لكل عباد الله، هذه قضية مسلمة ولا نزاع فيها، الله تعالى يقول: { **... وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ...**} [النساء: 58]. {**بَيۡنَ ٱلنَّاسِ**} وليس بين المسلمين وحدهم فالعدل لكل الناس. ويقول عز وجل: { **... وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ...**} [المائدة: 8]، أي لا يحملنكم شدة عداوة قوم وشدة بغضهم لكم على أن تظلموهم وعلى ألا تعدلوا بينهم {**ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ**}.

نزلت تسع آيات في سورة النساء تدافع عن يهودي اتهم ظلمًا بالسرقة، وهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يدافع عن أولئك الذين هم المتهمون الحقيقون، فقال تعالى: {**وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا 107 يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ**

---

(31) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (1312)، ومسلم في الجنائز (961) عن سهل بن حنيف وقيس بن سعد.

يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا} [النساء: 107، 108].

هذا هو أساس التسامح عند المسلمين.

شهادة التاريخ على سماحة المسلمين:

ومن أجل هذا كان المسلمون مضرب المثل في التسامح. لا يُعرف أمة تسامحت مع مخالفيها في الدين كما عُرف عن الأمة الإسلامية(32)، وهذا ما شهد به المؤرخون المنصفون من الغربيين أنفسهم، شهد بذلك «غوستاف لوبون» في كتابه «حضارة العرب»، وشهد بذلك «توماس أرنولد» في كتابه «الدعوة إلى الإسلام»، وشهد بذلك الكثيرون ممن كتبوا عن المسلمين.

ولسنا في حاجة إلى شهادتهم، الواقع ينطق بهذا، والتاريخ ينطق بهذا.

حينما غزا التتار دمشق وما حولها، أسروا جماعة من المسلمين ومن النصارى، وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى قائدهم «قطلوشاه» يطلب منه أن يفك الأسرى عنده، فقال له: يا شيخ إكرامًا لك أفك أسرى أهل ملتك من المسلمين. فقال: لا والله، أهل ذمتنا قبل أهل ملتنا! وأبى إلا أن يفك أسر الجميع، وكان له ما أراد.

وحينما أراد أحد خلفاء بني عثمان أن يتخلص من بعض أولئك الذين يجلبون عليه المشاغبات من غير المسلمين وقال: نقتل هؤلاء ونستريح منهم، وقف شيخ الإسلام والعلماء من ورائه في وجهه وقالوا: لا يبيح لك الدين هذا، والله تعالى عصم دماءهم وعصم أموالهم بما لهم من عقد الذمة.

---

(32) انظر فصل «تسامح فريد» من كتاب «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي» للشيخ القرضاوي، (ص 43 - 50)، ط. مؤسسة الرسالة.

وكلمة «الذمة» ليست كما يتصورها بعض الناس كلمة فيها ذم أو تنقيص. الذمة معناها: العهد. أي لهم عهد الله وعهد رسوله وعهد جماعة المسلمين: أن تُصان أديانهم وأموالهم وأعراضهم ومعابدهم وشعائرهم وحرماتهم. وهكذا عاشوا طوال التاريخ الإسلامي.

حتى إن عمر بن الخطاب ررر حينما طُعن وأصبح على فراش الموت كان وصيته: أوصى الخليفة من بعدي بأهل الذمة أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وأن لا يكلفهم فوق طاقتهم.

وحينما رأى ابن الخطاب ررر - وهو يسير ليتفقد أمور الرعية - رجلًا شيخًا من يهود يسأل، قال: فيم تسأل؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، فقال: ما أنصفناك إذا أخذنا منك الجزية شابًا وأهملناك شيخًا. ثم قال لخازن بيت ماله: افرضوا له ولضربائه - لأمثاله - من بيت مال المسلمين ما يكفيه، ثم تلا قول الله تعالى: {**إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ ...**} [التوبة: 60] قال: وهذا من مساكين أهل الكتاب.

وبهذا استدل بعض العلماء من علماء السلف أن الزكاة يجوز أن تُعطى لفقراء أهل الذمة عملًا بما صنعه عمر[33].

هذا ما كان عليه حال المسلمين[34].

---

(33) انظر: كتابنا «فقه الزكاة» (ح752/2) وما بعدها، طبعة مكتبة وهبة، الطبعة الحادية والعشرون (1994م).

(34) من أراد التوسع في هذا الموضوع ومعرفة المزيد فليراجع ما كتبه الشيخ القرضاوي عن حقوق أهل الذمة في الإسلام في كتابه: «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي» (ص 9 - 30). ط. مؤسسة الرسالة بيروت. وانظر: فصل «التسامح الإسلامي» من

لم يكن هناك بيننا وبين الأقليات المسيحية أو اليهودية أي صراع ولا أي مشاكل. بالعكس، بعضهم تولى الوزارة، وذكر الإمام الماوردي في كتابه «الأحكام السلطانية»: أن وزارة التنفيذ يجوز أن يتولاها أهل الذمة.

ورأينا من هؤلاء من وصل إلى مناصب كبيرة، حتى قال أحد الشعراء الساخرين من مصر:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
المجد فيهم والمال عندهمو ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إني نصحت لكم تهودوا، قد تهود الفلك!

أراد هذا الرجل أن يلفت النظر أن اليهود بلغوا حدًّا كبيرًا، فقال لهم: أفضل طريقة لتصلوا إلى المال والمجد والملك والسلطان أن تكونوا يهودًا: تهودوا قد تهوّد الفلك!

وهذا مبالغة أيضًا في التنازل عن الحقوق وعن الهويات. ولكن لكي نعرف إلى أي حد وصل هؤلاء.

وقد رأينا بأعيننا في مصر اليهود يملكون أكبر المتاجر وأكبر المحلات التجارية المشهورة. من منا لا يذكر: شكوريل، وأركو، وسمعان، وصيدناوي، وبنزايون، وداود عدس وغيرهم.

لم يعرف المسلمون باضطهاد الأقليات في وقت ما، بل ربما يتهمون بالغفلة أنهم تركوا لهم الأمر، ليصلوا إلى أكثر مما ينبغي أن يصلوا إليه!

كتاب المؤلف: «تاريخنا المفترى عليه». باب: تاريخ له مفاخر ومآثر. طبعة دار الشروق بالقاهرة.

وما كانت هناك مشكلات.

متى بدأت الفتنة؟

بدأت المشكلات من عهد الحروب الصليبية، حينما جاءت الجيوش الصليبية - جيوش الفرنجة كما يسميها علماؤنا القدامى - من أوروبا، بقضها وقضيضها، وثالوثها وصليبها، وأحقادها وأطماعها، وأثارت هذه الأمور.

ثم جاء الاستعمار الحديث وكان مما أعلنه: أن من أهدافه الدفاع عن الأقليات المسيحية في بلاد الشرق!

ولازال الأمر يظهر ما بين الحين والحين.

والآن تتولى أمريكا كبر هذا الموضوع، وخصوصًا بعد أن أصبح للّوبي الصهيوني قوته وتأثيره ونفوذه، وأصبح هناك عدد من الوزراء في حكومة أمريكا الحالية من اليهود، وزراء: الدفاع، والمالية، والخارجية، ونائب وزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط، ومنسق السلام في الشرق الأوسط، وكبار الموظفين في الوزارات المختلفة، ومستشارو الأمن القومي، كل هؤلاء يهود.

أصبح هناك تأثير صهيوني كبير على السياسة الأمريكية، ومن أجل هذا بدأت تثير هذه الأمور.

سياسة الكيل بمكيالين:

ولا أدري لماذا لا تثير أمريكا الأمور الأخرى المقابلة؟ لماذا لا تثير قضية البلاد التي يضطهد فيها المسلمون ولا ينالون فيها حقوقهم؟ لماذا لم تثر ضد تركيا العلمانية التي ترفض أن يكون للمسلمين أي تمثيل سياسي؟ لماذا لم تتدخل في هذه الأمور؟ لماذا لم تتدخل في البلاد التي تحرم المسلمين من أدنى

حقوقهم حتى تحرم على المرأة أن تلبس الحجاب الشرعي في داخل بلاد المسلمين وخارج بلاد المسلمين، كما في فرنسا العلمانية؟ والمفروض أن العلمانية تتخذ موقفًا محايدًا من أمور الدين، لا تقبل الدين ولا ترفضه، لا تؤيده ولا تعاديه. أما أن يتخذ موقف من الدين ويفرض على المسلمة أن تخالف أمر ربها وأن تخالف دينها، فهذا ما لا يقبل.

لماذا سكتت أمريكا عن هذا كله؟

لماذا لا تتحدث عن الأقليات الإسلامية؟ والأقليات الإسلامية أقليات ضخمة، بعضها عشرات الملايين.

المسلمون في الهند يعتبرون أقلية وهم أكثر من مائة وخمسين مليونًا! ماذا لهم؟ هل لهم وزراء؟ هل لهم أناس في السلطة السياسية؟ لا نعرف لهم أحدًا يمثلهم.

لماذا لا يذكرون هذا؟

يذكرونه فقط للتشويش على المسلمين.

ما رأينا المسلمين يضطهدون أحدًا، لا في مصر، ولا في السودان. في السودان نجد عددًا من الوزراء من المسيحين في الجنوب. وأذكر مرة ذهبت إلى ندوة هناك فكان الوزير الذي نجتمع تحت رايته من مسيحي الجنوب.

لماذا يقال: إن السودانيين يضطهدون المسيحيين، والمصريين يضطهدون الأقباط، والماليزيين والأندونيسيين والسعوديين والإيرانيين ... ؟ هكذا، الآن أصبحت الحملة تشمل السعودية وتشمل إيران وتشمل عددًا من البلدان.

هل يريدون أن يغيروا طبيعة هذه البلاد ... أن يسمح للتبشير - أو للتنصير - وأن تفتح له الأبواب على مصاريعها ليغير أديان المسلمين وعقائدهم ونقول لهم: أهلًا ومرحبًا؟ هل يسمح أي مجتمع بتغيير دينه بهذه السهولة؟ لا يقبل هذا أحد.

فكيف إذا كان هؤلاء تحوط بهم الشبهات؟ ليسوا دينيين مخلصين، إنهم يمثلون الجهات التي جاؤوا منها، يمثلون مطامعها وأحلامها التوسعية في بلاد المسلمين.

لماذا لا يتحدثون عن الفلسطينيين الذين يضطهدون، والذين يسجنون، والذين يعتقلون، والذين تكسر عظامهم، والذين تهدم بيوتهم، والذين تحاصر ديارهم، والذين تصادر أرزاقهم؟

لماذا لا يتحدثون عن هؤلاء؟

إذا كانوا هم حماة العدل كما يزعمون، وأنهم مبعوثو العناية الإلهية في الأرض، وأنهم موكلون بالحكم على البشرية كلها بعد أن انفردوا بالقوة، فليحموا هؤلاء المستضعفين.

ونقول لهؤلاء: إن كنتم أصحاب قوة فكونوا أصحاب عدل، فإن القوة لا تدوم. العدل إن دام عمر، والظلم إن دام دمّر، والله تعالى «**يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته**» كما قال النبي صلى الله عليه وسلم[35] ثم قرأ: {**وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ**

---

(35) متفق عليه في «اللؤلؤ والمرجان» (1668)، رواه البخاري في التفسير (4686)، ومسلم في البر والصلة (2583)، والترمذي عن أبي موسى رضي الله عنه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للقرضاوي (619/2) برقم (1303).

رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ} [هود: 102].

إننا نحن المسلمين سنظل مستمسكين بديننا ... بالعروة الوثقى لا انفصام لها، لن نبيع ديننا بملك المشرق والمغرب، لن نفرط في عقائدنا مهما يكن من الضغط علينا، ومهما يكن من التسلط علينا. الإسلام هو جوهر حياتنا وحقيقة وجودنا، نحن بالإسلام كل شيء، وبغير الإسلام لا شيء، ولذلك سنظل ثابتين على هذا الدين، لا نحيد عنه، ولا نفرط فيه، مهما تكن النتائج والله معنا.

خلوا بيننا وبين إخوتنا:

أما إخواننا الذين يعيشون بيننا من المسيحيين، فهم منا ونحن منهم، القاعدة الإسلامية تقول: لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

فارفعوا أيديكم عنهم، وارفعوا أيديكم عنا وعن ديارنا، دعونا نتعايش مع إخواننا. وإذا كان بيننا وبينهم بعض المشكلات فنحن جديرون أن نحلها معًا بعيدًا عنكم، في ظل الأخوة الوطنية والقومية، نحن أولى بحل مشاكلنا ولا نحتاج إلى وصاية علينا، فقد بلغنا الأشد، وبلغنا الرشد، ولسنا في حاجة إلى أوصياء.

هذا ما نقوله لأولئك الذين يريدون أن ينصبوا أنفسهم أوصياء على البشرية كلها.

إن عندنا من ديننا ومن عقيدتنا ومن شريعتنا ومن قيمنا ومن تراثنا، ومن مصادرنا: ما يكفينا لأن نسير على الطريق المستقيم، وأن نهتدي سبلنا، والله تعالى يقول: {وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ}

[العنكبوت: 69].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

ذريعة قتل السياح في بلاد المسلمين:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

قد يقول بعض الناس: أنت تقول: إن المسلمين متسامحون، وإن الإسلام دين التسامح، ولكن ها هي الأحداث تأتي يومًا بعد يوم لتدل على أن المسلمين متعصبون، وهم يقتلون الأجانب والسياح لغير ذنب اقترفوه، ولغير جرم ارتكبوه. هم جاؤوا إلى بلادكم أيها المسلمون سائحين مستأمنين، فكيف قتلهم هؤلاء الذين يدعون أنهم مسلمون وأنهم جماعات إسلامية؟

ونقول: إن هذه الشريحة الضئيلة من الشباب لا تمثل المسلمين، ولا تمثل الإسلام.

هم شباب اختلط عليهم الأمر، التبس عليهم الحق بالباطل، فسدت عقولهم. واختل فقههم، ربما لم يكن الفساد في نياتهم وضمائرهم، ربما كان بعضهم مخلصين، ولكنهم ضلوا الطريق بفساد عقولهم، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في أسلافهم قديمًا: الخوارج، قال: «**يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وقيامه إلى قيامهم، وقراءته إلى قراءتهم**» ومع هذا وصفهم بأنهم: «**يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**» وقال: «**يقرأون القرآن**

لا يجاوز حناجرهم»[36]! أي لا يتعمق القرآن في أعماق عقولهم وقلوبهم، لم يفقهوا القرآن وإن كانوا يتلونه بألسنتهم، ولكنها تلاوة لا تؤثر في العقول.

فساد هؤلاء في أفهامهم. فهم ليسوا حجة على الأمة، ولا حجة على الإسلام، بل الإسلام حجة عليهم.

ثم إن هناك أسبابًا أخرى[37] اختلطت فيها أشياء بأشياء:

اختلط الثأر ... الثأر من الدولة والثأر من الناس ... اختلط هذا بذاك.

معظم هؤلاء الشباب في مصر من الصعيد، ونحن نعرف أن الصعيد عنده عادات وتقاليد، ويرى الثأر هذا من الكرامة، ولا يمكن أن يحيا الإنسان إذا لم يأخذ ثأره ... إلخ. إنه لا يعد في الرجال! اختلطت هذه الأمور، وأدخلوها في الدين وألبسواها لباس الدين.

براءة الإسلام من الأعمال الإرهابية:

ونحن نقول: إن الدين من هذا براء.

ما ذنب السائح الذي جاء من اليابان أو من كوريا أو من سويسرا أو من ألمانيا ليسيح في مصر؟ ما ذنبه حتى نسفك دمه ونقطع رقبته؟ هب أن بينك وبين الحكومة خلافًا، تصفى خلافك على حساب هذه الأرواح البريئة؟!

إن الإسلام لم يجز في حال الحرب الشرعية الرسمية بينه وبين محاربيه من غير المسلمين أن يقتل إلا من يقاتل. لم يجز قتل امرأة، وأنكر النبي قتل

---

(36) سبق تخريجه في (ص 12).

(37) انظر «أسباب العنف في العالم الإسلامي» في كتاب: «الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد» للشيخ القرضاوي (ص 296)، ط. دار الشروق بالقاهرة.

المرأة في الحرب وقال: «**ما كانت هذه لتقاتل**»[38]، ونهى عن قتل النساء والصبيان والشيوخ ونهى عن قطع الأشجار وهدم البناء.

الحرب لمن يقاتل:

وجاء الخلفاء الراشدون فنهوا عن قتل الرهبان في الصوامع، ونهوا عن قتل الفلاحين في المزارع.

فكيف استجاز هؤلاء أن يقتلوا هؤلاء ولا ذنب لهم؟

ما ذنب هؤلاء الستين من السياح الذين كانوا في الأقصر حتى يطلق عليهم الرصاص أو القنابل أو يقتلوا بالخناجر أو غير ذلك؟ وما ذنب عدد من المصريين أيضًا كانوا معهم؟

إن هذه العمليات لا تمثل الإسلام، ولا تمثل المسلمين، وليس هؤلاء هم الذين يمثلون جمهور الصحوة الإسلامية. هذا فصيل شارد عن الصحوة الإسلامية، وأصبح منعزلًا عن الناس.

إنما الذي يمثل جمهور الصحوة هو جمهور الوسطية الإسلامية، الذين يتعاملون مع الناس بسماحة، ويتعاملون بعدل الإسلام وسماحة الإسلام. هؤلاء هم الذين يمثلون الإسلام بحق[39].

الحوار مع جماعات العنف:

ونحن وإن كنا ننكر على هؤلاء الشباب، وندين عملهم، ونقول إنه ليس

---

(38) قطعة من حديث رباح بن الربيع، وقد تقدم تخريجه في (ص 13).

(39) انظر «معالم تيار الوسطية» في كتاب الشيخ القرضاوي: «الصحوة الإسلامية المراهقة إلى الرشد» (ص 254 - 276)، ط. دار الشرق بالقاهرة.

من الإسلام ولا يمت إلى الإسلام بصلة، ونحن برآء من أي دم يسفك بغير حق - الإسلام يرعى دم الإنسان بل الحيوان، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم يقول عن امرأة تركت هرة حتى ماتت إنها من أهل النار: «**دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت**»[40]. هرة! فما بالك بالإنسان المكرم؟! - نحن وإن كنا ندين هؤلاء وننكر عليهم أشد الإنكار، نطالب بالحوار معهم.

لا بد أن يحاور هؤلاء - مشكلة هؤلاء مشكلة فكرية ... مشكلة في عقولهم، وسيظل هؤلاء موجودين، فلنحاول أن نعالج المشكلة من جذورها - يحاورهم علماء لا يتهمون بأنهم من علماء السلطة أو من عملاء الشرطة، علماء يثق هؤلاء الشباب بدينهم وعلمهم، ويحاولون أن يردوهم إلى الصراط المستقيم، ويقيموا عليهم الحجة أمام أنفسهم وأمام الناس، وبعد ذلك يعلن الأمر واضحًا بيننا.

أعتقد أن من مصلحة الأوطان، ومصلحة الأمة، ومصلحة الإسلام نفسه، أن نفعل ذلك، حتى نكون على بينة[41] { **... لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ...**} [الأنفال: 42].

إن هؤلاء الشباب يسيئون إلى أنفسهم، ويسيئون إلى وطنهم، ويسيئون إلى

(40) رواه البخاري في بدء الخلق (3318) عن ابن عمر، ورواه مسلم في التوبة (2619) عن أبي هريرة.

(41) قد حدثت محاورات مع هؤلاء الشباب بالفعل، انتهت بأن راجعوا أنفسهم، وأصدروا عددًا من الكتب سموها «سلسلة تصحيح المفاهيم» أعلنوا فيها بشجاعة: رجوعهم عن الكثير من آرائهم القديمة، هذا ما فعلته «الجماعة الإسلامية» في مصر التي يتزعمها روحيًا الشيخ عمر عبد الرحمن، السجين في أمريكا، فك الله أسره.

أمتهم، ويسيئون إلى دينهم، يسيئون إلى الإسلام، يشوهون صورة الدين عند الناس، فيقول الناس: المسلمون وحوش مفترسة والإسلام غول مفترس.

والإسلام مظلوم، والمسلمون مظلومون، وهؤلاء لا يمثلون إلا أنفسهم.

نسأل الله تعالى أن ينير طريقهم، وأن يهديهم سبلهم، وأن يردهم عن غيهم، وأن يهيئ لهذه الأمة من أمرها رشدًا.

* * *

(4)
وقفات مع حجاج بيت الله الحرام

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

نفحات أيام مباركة:

في هذه الأيام الكريمة التي تعتبر من أحب الأيام إلى الله تتت، والعمل الصالح فيها أحب إلى الله مما سواها من الأيام[42]، وهي أيام عشر ذي الحجة، التي شرع الله فيها للإنسان أن يزداد تقربًا إليه سبحانه بالتهليل والتكبير والتسبيح والتحميد[43] والصدقة وفعل الخيرات وبالصيام، فقد شرع الله فيها الصيام، وأوكدها بلا شك هو صيام التاسع من ذي الحجة «يوم عرفة» أفضل أيام السنة على الإطلاق، كما أن ليلة القدر هي أفضل ليالي السنة على الإطلاق، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**صيام يوم عرفة**

---

(42) عن ابن عباس رضي الله عنه ب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله عز وجل من هذه الأيام**» يعني أيام العشر. قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء**». رواه البخاري في العيدين (969)، ورواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (351/1 - 352) برقم (610).

(43) روى الطبراني في «الكبير» بإسناد جيد عن ابن عباس رضي الله عنه ب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما من أيام أعظم عند الله، ولا أحب إلى الله العمل فيهن من أيام العشر، فأكثروا فيهن من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير**». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للقرضاوي (352/1) برقم (610).

إنـي أحتسب علـى الله أن يكفر السنة التـي قبلـه والسنة التـي بعده»[44] يعني الصغائر من الذنوب، فإن الكبائر لا يكفرها إلا الندم والتوبة النصوح، وقد قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم في «صحيحه»: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»**[45].

فـي هـذه الأيـام المباركـة - أيها الإخـوة المسـلمون - تهـب علينـا روائـح الحجيج، تهب علينا نسمات الحج، تأتي عاطرة من الأرض المقدسة ... من مكة المكرمة. تهب علينا هذه النفحات والنسمات لنستنشق عبيرها، ونعيش في هذه الأجواء الربانيـة، أجواء تلك الشعيرة وتلك الفريضـة العظيمـة، التـي هي الركن الخامس من أركان الإسلام: حج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا، **{وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ}** [آل عمران: 97]. من كفر أي: أعرض عن الحج. فوضع الله هذه الكلمة ... كلمة الكفر موضع الإعراض عن الحج، ليخوف بها من لم يشتق إلى الحج، من لم تهف نفسه إلى أداء هذه الفريضة المقدسة، من لم يصطحب فيه الحج إلى بيت الله الحرام.

---

(44) رواه مسلم في الصيام (1162)، وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان عن أبي قتادة رضي الله عنه ، وتتمته: «**وصيام يوم عاشوراء إنـي أحتسب علـى الله أن يكفر السنة التي قبله**».

(45) رواه مسلم في الطهارة (233)، ورواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

عبادات الإسلام المالية والبدنية:

إن الإسلام قد شرع لنا فرائض وشعائر وعبادات، بعضها يسميه العلماء: عبادات بدنية، وبعضها يسمونه عبادة مالية، وبعضها يعتبرونه جامعًا بين البدنية والمالية.

الصلاة عبادة بدنية تؤديها ببدنك، وكذلك الصوم، وإن كانت الصلاة فعلًا والصوم تركا، الصوم إمساك عن شهوتي البطن والفرج لله تتنت، ولكنه عبادة بدنية.

والزكاة عبادة مالية، المال شقيق الروح، الإنسان يبذل المال لله تتنت، ليزكي بذلك نفسه، ويطهر ماله، وينتصر على الشح الغالب على الناس: { ... **وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ...**} [النساء: 128]، { ... **وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا**} [الإسراء: 100] وصدق الله العظيم.

الحج عبادة مالية بدنية:

أما الحج فهو عبادة جامعة بين الأمرين: عبادة بدنية وعبادة مالية.

الإنسان بالحج يجتهد، ويجهد، ويكدح ببدنه، وينتقل من وطنه إلى تلك الأراضي المقدسة، ويحيا حياة بسيطة أشبه بحياة الكشافين في الخيام، وقد ينام على الأرض وعلى التراب، ويتحرك طائفًا بالبيت ساعيًا بين الصفا والمروة، كلها تحتاج إلى جهد بدني وسعي حركي.

وهي من ناحية أخرى تقتضي مالًا، لا بد للإنسان أن يحتاج إلى مال حتى يسافر إلى تلك الأراضي، لم يكلفه الله أن يذهب ماشيًا، إنما يذهب راكبًا. ولذلك اعتبر في الاستطاعة - استطاعة السبيل إلى الحج - : أن يملك الزاد

والراحلة. وإذا أدرنا ان نعبر تعبيرًا عصريًا عن الزاد والراحلة قلنا: أن يملك نفقات السفر، ونفقات الإقامة في الأرض المقدسة خلال الفترة اللازمة له، على ما يليق بحاله، من غير إسراف ولا تقتير. قد يستطيع بعض الناس أن يركب الحافلة «الباص»، والآخر يركب السيارة ويذهب، وآخر لا يستطيع إلا أن يركب الطيارة، وآخرون يركبون البواخر والسفن. لا بد أن يملك نفقات السفر على ما يليق بحاله، ويملك نفقات الإقامة أيضًا على ما يليق بحاله، ويترك لأولاده ما يكفيهم حتى يعود، لا يدعهم دون شيء.

لذلك كان الحج عبادة بدنية ومالية.

ولأنها عبادة مكلفة إلى هذا الحد، جعلها الله مرة واحدة في العمر. نجد الصلاة: في كل يوم خمس مرات، والزكاة حولية ... في الحول مرة، أو عندما يحصد الإنسان الثمر: { **...وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ ...**} [الأنعام: 141]، والصيام في كل عام شهر، أما الحج فيجب في العمر مرة واحدة.

ولهذا كان السلف رضوان الله عليهم يسمون الصلوات الخمس ميزان اليوم، إذا استقامت لك صلوات وأديتها في أوقاتها، وأديتها بشروطها وأركانها وآدابها وخشوعها، فقد استقام ميزان يومك. وكانوا يسمون الجمعة ميزان الأسبوع، وشهر رمضان ميزان السنة، والحج ميزان العمر.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحج فحجوا**». فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم**

...»[46] إنما فرض الله الحج في العمر مرة واحدة، تيسيرًا على الناس، وتخفيفًا عنهم. وهكذا التكاليف في هذا الدين، لا يمكن أن تكلف الإنسان ما ليس في وسعه وما يحرجه في دنياه أو في دينه: { **... وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ...**} [الحج: 78]، { **... يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ...**} [البقرة: 185].

بعض حكم فريضة الحج[47]:

فرض الله الحج على من استطاع إليه سبيلًا لحكم عظيمة، ليستطيع المسلم أن يحقق القيم والمبادئ والمعاني التي جاء بها هذا الدين، يحققها مطبعة في واقع الحياة.

الانقياد والخضوع لله عز وجل:

1 - جاء الإسلام بالعبودية لله تتت، أن يقول الله عز وجل: أمرت وحكمت، ويقول العبد: سمعت وأطعت.

أمرك الله أن تذهب إلى هذه الأرض فتسمع وتطيع، تطوف بالبيت سبعًا لا خمسًا ولا عشرًا، سبعًا يعني سبعًا، تبدأ من الحجر الأسود، لا يحسب لك الطواف إلا من عند الحجر الأسود.

وليس الحجر الأسود كما يزعم بعض المبشرين معبودًا عند المسلمين، لا، الحجر الأسود هو بداية الطواف. المسلمون لا يعبدون الحجر ولا يعبدون

---

(46) رواه مسلم في الحج (1337) عن أبي هريرة، وهذا لفظه، ورواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس.

(47) راجع ما ذكرنا في كتابنا: «العبادة في الإسلام» (ص 296)، طبعة مكتبة وهبة.

الكعبة، إنما هي رموز كما قال الشاعر قديمًا:

أمـر علـى الـديار ديـار ليلـى أقبـل ذا الجـدار وذا الجـدارا

ومـا حـب الـديار شـغفن قلبـي ولكـن حـب مـن سـكن الـديارا

المسلم حين يطوف بالبيت ويقبل الحجر أو يستلمه بيديه أو يشير إليه يقول: باسم الله والله أكبر، وبعض الناس يقول: اللهم إيمانًا بك - أي لا بالحجر ولا بهذه الأشياء - وتصديقًا بكتابك ووفاء بعهدك.

المؤمن يطوف بهذا البيت امتثالًا لأمر الله تتت: **{أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ}** [البقرة: 125]. يطوف بهذا البيت سبعًا داعيًا الله عز وجل خصوصًا بين الركن اليماني والحجر الأسود حيث كان النبي عليه الصلاة والسلام يدعو بهذا الدعاء القرآني، الذي ما كان أكثر ما يدعو الله تعالى به: **{رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ}** [البقرة: 201].

المسلم يطوف بالبيت، ويصلي ركعتين خلف مقام إبراهيم، والمسجد كله مقام إبراهيم، لو صلى في أي مكان في المسجد أجزأه. يصلي صلاة خفيفة حتى لا يؤذي الناس ولا يضيق عليهم، يقرأ في الركعة الأولى: **{قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ}** [الكافرون: 1] بعد الفاتحة، وفي الركعة الثانية يقرأ: **{قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ}** [الإخلاص: 1].

ثم يشرب من ماء زمزم، ويدعو الله عند شربه: اللهم إني أسألك علمًا نافعًا ورزقًا واسعًا، وشفاء من كل داء.

ثم يذهب إلى الصفا والمروة، يقف على تلك الهضبة التي وقف عليها

محمد صلى الله عليه وسلم، فقد وقف على هضبة الصفا وتلا قول الله تعالى: **{إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ}** [البقرة: 158]، ثم قال: «**أبدأ بما بدأ الله به**»[48] هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. الله بدأ بالصفا: **{إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ}** فبدأ بما بدأ الله به، وسعى الأشواط السبعة، وانتهى بالمروة.

وبين الميلين الأخضرين هناك علامة ظاهرة بارزة يركض بينهما ... يسعى ... يكون أسرع في المشي، تذكيرًا لما حدث لأم إسماعيل سسسا «هاجر» حينما كانت تسعى تطلب الماء لطفلها الرضيع ملهوفة تدعو الله، حتى فجر الله الأرض من تحت أقدامها وكانت «زمزم».

الحج هو معايشة للذكريات القديمة والحديثة: الذكريات الإبراهيمية من قديم، والذكريات المحمدية من جديد. المسلم يعيش في تلك الأيام مع إبراهيم سسس، ومع محمد عليه الصلاة والسلام، مطيعًا لله تتنت.

رمى إبراهيم الجمرات حينما أراد الشيطان أن يوسوس له وأن يغريه بعدم ذبح ابنه إسماعيل، فرماه بالجمرات. فالمسلم يطيع الله ععع ويتعبد له برمي الجمرات.

يقول بعض الناس: وما قيمة أن يرمي الإنسان حصيات؟ هو يجسد الشر ثم يرمي هذا الشر. هو رمز لإعلان المقاومة ... للإصرار على محاربة الباطل والشر والطاغوت. وهكذا يتمثل الناس هذا الأمر، حتى إن الناس

---

(48) قطعة من حديث جابر الطويل رواه مسلم في الحج (1218).

يقولون عن الجمرات: إبليس الأكبر، وإبليس الأوسط، وإبليس الصغير، أو الجد والابن والحفيد. الناس يتصورون إبليس فيرمونه بالحصيات، وبعضهم يرميه بنعله ... إلخ.

الحج مليء بهذه اللغة العربية الرمزية، والرمزية لغة عالمية، يستطيع كل إنسان أن يعيها، وأن يفهمها.

هكذا الحج، هو تجسيد لمبدأ العبودية لله، والطاعة لله، يقول الله: أمرت ويقول العبد: سمعت وأطعت يا رب.

هكذا علمنا الإسلام.

هل في الحج شوائب من الجاهلية؟

بعض الأفاكين يقولون: إن الحج الإسلامي فيه خليط مما كان عليه أهل الشرك في الجاهلية. لا، بالعكس، لقد نقى الإسلام الحج من كل الشوائب الجاهلية وأرجاسها.

كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه ما ملك. يعنون الأصنام. فأبطل الإسلام هذه التلبية وأبدلها بقوله: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

أبطل الإسلام حج المشركين وطواف المشركين، فقد كانوا يطوفون بالبيت عرايا كما ولدتهم أمهاتهم، عوراتهم مكشوفة حتى النساء! هذه الأشياء منعها الإسلام: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَ ...}** [التوبة: 28].

جاء الإسلام وأبطل ذلك في الحجة التي حج فيها أبو بكر ررر، وبعث النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب ررر، يعلن على الناس هذه المبادئ الأساسية: «**لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان**»(49).

الوحدة والتآلف:

2 - في الحج أيضًا نتعلم معنى «الوحدة».

الله عءع يجمع المسلمين من أنحاء الأرض، من المشرق والمغرب، من العجم والعرب، اختلفت ألوانهم ما بين أبيض وأسود، واختلفت أجناسهم، واختلفت طبقاتهم، واختلفت أوطانهم، ولكنهم جاؤوا جميعًا، صهرهم الإسلام في بوتقة واحدة، ربهم واحد، نبيهم واحد، كتابهم واحد، قبلتهم واحدة، شعارهم واحد، نداؤهم واحد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

جاء الإسلام ليجسد وحدة المسلمين بهذه الفريضة. الوحدة الإسلامية تتجلى في هذا الحج ... في هذا الموسم العظيم. لا فرق بين مسلم ومسلم في هذه المناسك وأمام بيت الله الحرام، كلهم سواء، عالمية الإسلام تتجسد في هذه الفريضة، الله تعالى يقول لرسوله: **{وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ}** [الأنبياء: 107]، **{تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا}** [الفرقان: 1]، **{قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا}** [الأعراف: 158]. هذه العالمية تتجسد في الحج أوضح ما تكون، وأجلى ما تكون، هذا هو الدين العالمي، دين

(49) رواه البخاري في الصلاة (369)، ومسلم في الحج (1347) عن أبي هريرة.

الأبيض والأسود، دين الشرقي والغربي، دين كل العروق والألوان واللغات والأقاليم.

هذا مؤتمر للمسلمين في أنحاء الأرض لم يدع إليه ملك ولا رئيس، ولا أمير ولا وزير، إنما دعا إليه رب العباد، دعا إليه الله تتنت من فوق عرشه، دعا الناس جميعًا إلى هذا المكان الذي تتجسد فيه عالمية الإسلام.

مليونان من الناس أو أكثر يلتقون في هذه الأرض المقدسة، ليؤدوا هذه المناسك، ويؤدوا هذه الشعيرة، ابتغاء وجه الله تتنت.

السلام:

3 - من المعاني التي يجسدها هذا الحج: السلام. الحج رحلة سلام، يسالم الإنسان فيها الناس، حتى الجدال ممنوع في الحج: { **... فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ ...**} [البقرة: 197]. لا تجادل صديقك ولا رفيقك، لا تجادل من تشتري منه أو تبيع له. كن سهلًا هينًا لينًا سمحًا حتى تمر هذه الرحلة بسلام.

سلام حتى مع الحيوانات، لا يجوز له أن يصطاد صيدًا من البر، لا يصطاد أرنبًا ولا حُبارى ولا غزالًا ولا شيئًا من هذا {**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ ...**} [المائدة: 95] إلى آخر الآية الكريمة.

يريد أن يكون المسلم سلمًا في هذه البلدة المحرمة، سلمًا للحيوانات، وسلمًا حتى للنباتات، مكة لا يقطع نباتها ولا حشائشها، إلا الإذخر الذي يحتاج الناس إليه للحطب وللإشعال وغير ذلك، فالمسلم في رحلة سلام، والحج تدريب

على السلام.

لا يجوز القتال في أشهر الحج **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ ...}** [المائدة: 2].

هكذا أراد الإسلام: أن يعود المسلمين أن يعيشوا في مناطق كلها سلام، وفي أشهر كلها سلام، وفي حالة - وهي حالة الإحرام - كلها سلام، إلا إذا اعتدى عليهم. إذا اعتدى عليهم دافعوا عن أنفسهم. ولذلك النبي عليه الصلاة والسلام حارب وقاتل في الأشهر الحرم، لأنه بدئ قبل الأشهر الحرم، فكان لا بد أن يدفع عنه نفسه، وأن يستمر القتال ولو جاء في الأشهر الحرم، إنما لا يبدأ المسلمون بقتال في الأشهر الحرم **{ ...لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ ...}** [المائدة: 2].

المساواة:

4 - من المبادئ التي تتجسد في فريضة الحج: مبدأ المساواة، قيمة المساواة.

جاء الإسلام ليزيل الفوارق، ليحطم هذه الفوارق التي ميزت بين الناس، بأجناسهم، بألوانهم، بطبقاتهم، بأقليمهم، بأمور شتى فرقت بين الناس بعضهم وبعض.

جاء الإسلام ليعلن المساواة بين الناس: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ}** [الحجرات: 13].

كل عبادات الإسلام وفرائضه وشعائره تؤكد معنى المساواة. الصلاة نفسها هي دعوة إلى المساواة، تحقيق للمساواة، فلا يوجد في المسجد لائحة

تقول: الصف الأول للوزراء والصف الثاني لوكلاء الوزارات، والصف الثالث لمديري العموم، لا يوجد هذا، من سبق إلى مكان فهو أحق به[50].

ولكن يبقى في المسجد مكان للتمييز، هذا يلبس دشداشة، وهذا يلبس قميصًا وبنطلونًا، وهذا عاري الرأس، وهذا يلبس قلنسوة، وهذا يلبس عمامة. الناس يختلفون في أزيائهم من بلد إلى بلد، ومن مهنة إلى مهنة. أشياء كثيرة تفرق بين الناس، تظل هذه في المسجد وفي الصلاة.

ولكن عندما يذهب الناس محرمين للحج: يخلعون هذه الأشياء كلها، ويلبسون ثيابًا بسيطة بيضاء، أشبه ما يكون بأكفان الموتى، كأنما تذكر الناس بالآخرة، تذكر الناس بعرصات الحساب. يخلع الناس الأشياء التي تميز بعضهم من بعض، وهناك ترى الناس وهم يلبسون هذه الثياب فلا تميز أميرًا من مأمور، ولا مرؤوسًا من رئيس، ولا غنيًّا من فقير، ولا وزيرًا من خفير، كلهم سواسية.

ومن هنا أعلن النبي صلى الله عليه وسلم للناس في عرفة: «**يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد،ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى {إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ}** [الحجرات: 13] **ألا هل بلغت؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**فليبلغ الشاهد الغائب**»[51]. «**إن ربكم واحد، وإن**

---

(50) راجع ما ذكرناه في كتابنا: «العبادة في الإسلام» تحت عنوان: المسجد ورسالته في الحياة (ص236) وما بعدها، طبعة مكتبة وهبة.

(51) رواه البيهقي وقال: في اسناده بعض من يجهل. ولكن رواه أحمد في «المسند» (23489) عن رجل من الأنصار وقال محققوا «المسند»: إسناده صحيح، وقال ابن

أباكم واحد» الجميع مشتركون في العبودية لله والبنوة لآدم.

هكذا جاء الحج يؤكد معنى المساواة التي تميز بها الإسلام.

الحضارة القائمة حضارة تمييز عُنصري ولوني، حتى الكنائس عند الغربيين هناك كنائس للبيض وكنائس للسود، لا يعرفون المساواة، حتى الشيوعيون الذين زعموا أنهم جاؤوا بالمساواة، وضحّوا بالحرية من أجل المساواة لم يحققوها. وحينما كان بعض الطلاب الأفارقة يدرسون في «موسكو» أيام استعلاء الشيوعية واستعلائها أحب شاب أفريقي فتاة روسية وأحبته، فكانت النتيجة أن غضب الطلاب البيض وقتلوا هذا الشاب الأفريقي! وهناك غضب له إخوانه وسيروا له مظاهرة تهتف بسقوط العنصرية والتمييز، فقام الطلاب البيض بمظاهرة مضادة يقولون لهم: عودوا إلى غاباتكم أيها القرود!!

هذه هي النظرة الشيوعية إلى الشعوب الأفريقية التي كانوا يزعمون الدفاع عنها.

الإسلام هو الذي حقق المساواة بين الناس بعضهم وبعض، هي مساواة حقيقية. عمر ررر يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا. يقصد أعتق بلالًا ررر. وكل المسلمين في أنحاء الأرض يعظمون بلالًا ررر، ويقولون: ررر مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم»: إسناده صحيح، وصححه الألباني في تخريج كتاب «الحلال والحرام» للقرضاوي. انظر «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للقرضاوي (773/2 - 774) برقم (1800).

هذا ما جاء به الإسلام في فريضة الحج.

الحج فريضة عظيمة يحقق الإسلام بها للمسلمين هذه المكاسب في حياتهم، خصوصًا المكسب الروحي. المسلم ترتفع روحانيته، ترتفع موجة الإيمان في قلبه حينما يذهب إلى هذه البلاد ملبيًّا ذاكرًا طائفًا ساعيًا راكعًا ساجدًا داعيًا لله تتت، يحس بشحنة إيمانية أقوى من الشحنة العادية. ولهذا يذهب كثير من الناس عصاة ويعودون تائبين من أثر هذه الشحنة، وكثير من الناس يعلق توبته على الحج، يقول: إن شاء الله ناوي أحج ثم أعود تائبًا. وتنوي بعض النساء أن تذهب إلى الحج وتعود محجبة وبعيدة عن العُرى وعن الكاسيات العاريات ... إلخ.

الحج المبرور وشروطه:

الحج يعطي المؤمن هذه الشحنة، خصوصًا الحج المبرور الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم: «**العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**»(52). فما هو الحج المبرور الذي يدعو الناس بعضهم لبعض فيقولون: جعل الله حجك مبرورًا، وسعيك مشكورًا، وذنبك مغفورًا؟ ما هو الحج المبرور؟

الحج المبرور له مقومات وشروط:

1 - المال الحلال:

أول هذه الشروط: أن يكون من ما حلال.

---

(52) رواه البخاري في العمرة (1773)، ومسلم في الحج (13419) عن أبي هريرة.

بعض الناس يذهب فيكسب أمواله حيثما اتفق، بل يخطط لكسب المال من الحرام ... من الربا ... من الرشوة التي كثيرًا ما يسمونها «العمولة» ... من هذه الأموال التي تؤكل بالباطل، لم تكد فيها يمينُه، ولم يعرق فيها جبينه، جمع هذه الثروة من هنا وهناك، وكما جاء في حديث البخاري: «**يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ: أمن الحلال أم من الحرام**»(53). هذا الذي يأكلها «والعة» متأججة يأتي بعد ذلك ويقول: أذهب إلى بيت الله الحرام لأطهر نفسي! لا يطهرك الحج ولا العمرة ولا الصيام ولا القيام، إلا أن ترد الأموال إلى أصحابها، إلا أن تتطهر من هذا المال الحرام، فإن الله لا يقبل صدقة من غلول(54). لا يقبل الله الصدقة من المال الحرام، ولا الحج من المال الحرام.

وفي بعض الأحاديث: «**أن الإنسان إذا كسب ماله من حرام وحج من حرام وقال: لبيك اللهم لبيك، قيل له: لا لبيك ولا سعديك وحجك مردود عليك ارجع مأزورًا غير مأجور**»(55).

---

(53) رواه البخاري في البيوع (2059)، والنسائي وزاد رزين فيه «**فإن ذاك لا تجاب لهم دعوة**». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للقرضاوي (504/2) برقم (961).

(54) روى مسلم في الطهارة (224) عن ابن عمر: «**لا تقبل صلاة بغير طهور، ولا صدقة من غلول**».

(55) رواه الطبراني في «الأوسط»، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه سليمان بن داود اليماني وهو ضعيف (292/10)، وقال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»: إسناده فيه ضعيف (261/1)، وذكره الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (711). ونصه: «**إذا خرج الرجل حاجًا بنفقة طيبة ووضع رجله في الغرز، فنادى: لبيك اللهم لبيك، ناداه مناد من السماء: لبيك وسعديك، زادك حلال، وراحلتك حلال، وحجك مبرور غير مأزور، وإذا خرج الرجل بالنفقة الخبيثة، فوضع**

هذا الذي يحج من المال الخبيث لا يُسجاب له، ولا يقبل منه، حجه مردود عليه، ويقول الشاعر:

إذا حججت بمال أصله دنس   فما حججت ولكن حجّت

الجمل الذي حججت عليه هو الذي حج، إنما أنت لم تحج. الآن نقول: السيارة هي التي حجت، أو الطيارة هي التي حجت، أما أنت فلم تحج.

لا يقبل الإسلام أن يأكل الإنسان مال الناس بالباطل، وبأي طريق، ثم يقول: اذهب إلى الحج أو العمرة، أو أبني مسجدًا لله، أو أكفل الأيتام. لا، اكفل من مالك لا من مال غيرك، هذا المال ليس ملكك، تطهر منه قبل كل شيء.

أول شروط الحج المبرور: أن يكون من مال حلال.

2 - إخلاص النية لله:

وثاني الشروط: أن يخلص النية لله، يجعل نيته لله عز وجل، لا رياء ولا سمعة، لا ليكون اسمه: الحاج أحمد، لا، اجعل نيتك لله، حُج لله عز وجل: **«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى ...»**(56)، **{وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ}** [البينة: 5]، **{فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ}**

رجله في الغرز، فنادى لبيك اللهم لبيك، ناداه مناد من السماء، لا لبيك ولا سعديك، زادك حرام ونفقتك حرام، وحجك غير مبرور».

(56) جزء من حديث عمر رضي الله عنه الذي رواه البخاري في بدء الوحي (1)، ومسلم في الإمارة (1907) بلفظ: «**إنما الأعمال بالنية ...**» وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وتتمته: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**». والحديث أصل من أصول الإسلام، ولهذا أفاض العلماء في شرحه.

[الزمر: 2].

فلا بد أن تجرد نيتك، وتحرر بواعثك، من كل هذه الشوائب التي تشوب الإخلاص لله عز وجل.

بعض الناس لا يخلص النية لله، تشوبها بعض الشوائب. ذهب بعضهم ليسلم على حاج جاء من هذه الرحلة، فأراد أن يعرف زائره أنه حج مرات فقال: هاتوا لنا طبق كذا، فجاؤوا بطبق، قال: هذا طبق من الحجة السابعة هاتوا طبقًا من الحجة الجديدة هذه! يريد أن يعرف أنه حج مرات ومرات، وبهذا يبطل عمله والعياذ بالله، **{كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ}** [البقرة: 264].

النية، النية أساس قبول العمل، الإخلاص لله عز وجل.

3 - تجنب الرفث والفسوق والجدال:

الأمر الثالث: أن يسلم حجه من الرفث والفسوق والجدال، كما قال الله تعالى: **{ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ ...}** [البقرة: 197].

الرفث: ما يتعلق بالأمور الجنسية، يجب أن ينزه الإنسان نفسه ولسانه من هذه الأمور خصوصًا ما دام في حالة الإحرام.

{وَلَا فُسُوقَ}: لا يرتكب المعصية، المعصية محرمة في كل وقت، ولكن في هذا الوقت تزداد حرمتها، وتتضاعف عقوبتها.

﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾: ليكون رحلة سماحة، ومسالمة.

ولذلك جاء في الحديث الصحيح: «**من حج فلم يرفث، ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه**»(57)، ميلاد جديد للإنسان، وإذا حج حجًّا مبرورًا تطهر، ولد من جديد. فليعد ليبدأ صفحة جديدة مع الله، من كان معوجًا قبل الحج فليستقم بعد الحج، من كان عاصيًا قبل الحج فليتُب بعد الحج، من كان متنجسًا بالمعاصي والقاذورات قبل الحج فليتطهر بعد الحج، لتتغير حياته.

هكذا ينبغي أن يكون المسلم الذي يحج.

لقد أثر الحج في حياة المسلمين من قديم، وكان الحج يكلف الإنسان كثيرًا، لم يكن كهذا العصر، الآن ساعتان وتكون في جدة، الناس كانوا يأتون من بلاد بعيدة.

رأى بعض العلماء أحد الناس يطوف وهو ينشد ويقول:

زُر من تحب وإن شطت بك وحال من دونه حجبٌ وأستار
لا يمنعنك بُعدٌ عن زيارته إن المحب لمن يهواه زوار

فعرف أنه جاء من مكان بعيد، فقال: من أي البلاد جئت؟ قال: من كذا وكذا ... من الصين أو نحوها. قال: ومتى خرجت؟ قال: أترى رأسي ولحيتي الآن؟ قال: نعم أراها بيضاء ليس فيها شعرة سوداء. قال: خرجت من بلدي وليس في شعرة بيضاء! لأنه كان يذهب ويعمل في الطريق، كلما نزل بلدًا عمل بها، بلد ترفعه وبلد تحطه - كما يقولون - حتى يصل.

---

(57) متفق عليه كما في «اللؤلؤ والمرجان» (56/8)، رواه البخاري في الحج (1521)، ومسلم في الحج (1350) عن أبي هريرة.

الآن يسر الله أمر الحج.

أثر الحج في الشخصية المسلمة:

الحج له أثر بالغ في حياة المسلمين، حتى إن رئيس البعثة التبشيرية في مصر في أوائل هذا القرن كتب تقريرًا عن الحالة الإسلامية في مصر، قال في ختام هذا التقرير: سيظل الإسلام في مصر صخرة عاتية تتحطم عليها محاولات التبشير المسيحي ما دام للمسلمين هذه الدعائم الأربع: القرآن، والأزهر «أي العلماء الذين يعلمون الناس»، واجتماع الجمعة الأسبوعي «الذي يجمع المسلمين على موعظة وعلى ذكر الله عز وجل»، ومؤتمر الحج السنوي «يذهب المسلم عاصيًا ويرجع مطيعًا، يرجع بشحنة قوية» فهكذا قرر هؤلاء.

الحج هو من المؤثرات التي تبقي على الشخصية المسلمة، تبقي عليها مستقيمة مع أمر الله.

يا أيها الإخوة: هذه بعض لمحات عن تلك الفريضة العظيمة التي خصنا الله بها نحن المسلمين لنشهد منافع لنا: منافع دينية ومنافع دنيوية، منافع فردية ومنافع اجتماعية، منافع اقتصادية ومنافع روحية، {**لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ ...**} [الحج: 28].

نسأل الله عز وجل أن يجمع كلمة هذه الأمة على الهدى، وقلوبها على التقى، ونفوسها على المحبة، وعزائمها على عمل الخير وخير العمل.

أقول قولي هذا وأستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

اغتيال إسرائيل لقادة «حماس»:

بالأمس ودع عشرات الآلاف من الجماهير الفلسطينية الغاضبة جثمان الشهيد «محي الدين الشريف»، ودعوه إلى مثواه الأخير.

هذا الشهيد تدل كل الدلائل على أن «الموساد» الإسرائيلي هو الذي قام باغتياله، قتله بالرصاص ثم وضعه في سيارة مفخخة تعمية، ليقال: إن السيارة انفجرت فيه. ولكن الدلائل كلها تكذبهم، وتشير إليهم، تشير إلى هؤلاء الإرهابيين الذين قتلوا من قبل سلفه المهندس يحيى عياش، وقتلوا يحيى الشقاقي، وحاولوا قتل خالد مشعل رئيس المكتب السياسي، ولا زالوا يحاولون كما قال الوزير الإرهابي المعروف «آرييل شارون» وزير البُنى التحتية في إسرائيل، قال: إذا كنا فشلنا في اغتيال خالد مشعل المرة الأولى، فهذا لن يجعلنا نيأس، سنحاول مرة ومرة ومرة، ولن يفلت منا.

ولكن الله من ورائهم محيط.

هذا كله يدلنا على ما قلناه وكررناه وأكدناه ولا زلنا نؤكده: أن الإرهابي الأكبر هو إسرائيل، هم هؤلاء الصهاينة الذين لا يرعون لأحد عهدًا ولا حُرمة، ولا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، يستبيحون الدماء، ويستبيحون الأموال، ويستبيحون الحرمات، ويقولون: { **... لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّۧنَ سَبِيلٌ ...**} [آل عمران: 75]. علمهم تلمودهم أن كل هؤلاء الأغيار مستباحو الدماء والحرمات، كل العالم أحط من البهائم وأذل من الكلاب عندهم. فلا مانع أن

يسفكوا الدماء، وأن يهتكوا الأعراض، وأن ينتهكوا الحرمات، وأن يدمروا كل شيء في سبيل تحقيق أهدافهم وأغراضهم، فالغاية عندهم تبرر الوسيلة.

هم قوم ليسوا أخلاقيين، لا يعتمدون الأخلاق، الأخلاق عندهم مهدرة.

المسلمون قوم أخلاقيون، لا يفعلون شيئًا إلا إذا أجازه لهم دينهم، ودينهم لا يجيز لهم الشيء إلا بشروط وضوابط شديدة. الإسلام يرفض مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة»، إنه يريد الغاية الشريفة والوسيلة النظيفة، لا بد لشرف الغاية من طُهر الوسيلة. ولهذا الإسلام في الحرب يقول: لا تمثلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليدًا، ولا تقطعوا شجرًا، ولا تهدموا بناء، ولا تقتلوا امرأة. حتى الرهبان في الصوامع نهى عن قتلهم.

أما هؤلاء فلا يحرمون شيئًا، يستبيحون كل شيء.

وأحب أن أقول لهؤلاء: افعلوا ما شئتم، هذا لن يفت في أعضاد المؤمنين. أبناء حركة حماس الذين فقدوا هذا الشهيد وفقدوا شهداء من قبله، لن يفت هذا في أعضادهم، فقد باعوا أنفسهم لله، ووضعوا رؤوسهم على أكفهم، وجعلوا أرواحهم في أيديهم ووهبوها لله عز وجل، وقال قائلهم:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا   على أي جنب كان في الله

لن يخذلهم، ولن يضعفهم، ولن ينال منهم: من يقدموه من الشهداء. بل يزيد المعركة وقودًا، كلما قدم شهيد كان هذا شعلة جديدة، وزيتًا جديدًا لهذه المعركة، يزيد في رصيد الإخوة المجاهدين.

العجيب أنه حتى الأمهات يستقبلن هذه الحوادث بالزغاريد، وهذا يذكرنا بالإخوة في السودان حينما يقدمون الشهداء يقيمون بعض الليالي يسمونها

«عرس الشهيد»، الشهيد ذهب إلى ربه ليتزوج من الحور العين. هذا عرس، لا يبكون، ولا يلطمون خدًا، ولا يشقو جيبًا. هذه هي الروح الإسلامية التي صنعها الإسلام، وهي التي تخيف اليهود.

عندما سعى «رابين» و«بيريز» إلى اتفاق «أوسلو» كانوا يريدون أن يخمدوا هذه الشعلة، وأن يطفئوا هذه الثورة ـ الانتفاضة الإسلامية ـ التي انطلقت من المساجد، وجعلت راياتها المصاحف، وكان نشيد أطفالها:

خيبر خيبر يا يهود جيش محمد سوف يعود

أرادوا أن يتخلصوا من هذه الانتفاضة الإسلامية، ويلهوا الفلسطينيين بهذا الاتفاق الذي لم يأخذوا من روائه شيئًا. لم يكسبوا منه قليلًا ولا كثيرًا، ولا نقيرًا ولا قطميرًا.

كانوا يريدون أن يضربوا الفلسطينيين بعضهم ببعض، ثم يتفرجوا. والحمد لله لم يحدث ذلك، بل نتوقع إن شاء الله أن تفشل هذه المسيرة من أولها إلى آخرها، الكتاب يُقرأ من عنوانه، هذه المسيرة ستصير إلى إخفاق، وستنضم السلطة إلى الشعب، وتعود انتفاضة جديدة أقوى وأعمق وأشد مما كانت.

المهم أن نثق بأنفسنا، أن نتحرر من ضعف الأنفس ... من اليأس ... من الوهن الذي حذرنا منه النبي صلى الله عليه وسلم، قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»(58).

---

(58) قطعة من حديث ثوبان الذي أخرجه أحمد في «المسند» (22397) وقال محققوه: إسناده حسن. وأبو داود (4297)، ونصه: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**». قال قائل: يا رسول الله ومن قلة يومئذ؟ قال: «**لا بل أنتم كثير،**

ينبغي أن نتحرر من حب الدنيا ومن كراهية الموت، وأن نقبل على الموت لا نبالي، كما يقبل هؤلاء الشباب من أبناء حماس، لا يُبالون ما يصيبهم في سبيل الله.

كان خالد بن الوليد يرسل رسائله إلى قادة الفرس والروم يدعوهم إلى الإسلام ثم يقول في ختام رسائله: «وإلا غزوتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة». وكما قال أبو بكر لخالد: «احرص على الموت توهب لك الحياة».

عباد الله، يقول الله تثت: {إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا} [الأحزاب: 56].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

{ ... وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

* * *

في «ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، ولتعرفن أبو داود: وليقذفن الله» في قلوبكم الوهن»، قال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت».

(5)
الاستقامة وأثرها في حياة المسلم

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

كثرة أخبار السرقة والاختلاس:

تطلع علينا الصحف ووسائل الإعلام ما بين الحين والحين بأنباء يندى لها الجبين، ويتقطع منها القلب، لما تدل على ضعف الدين، وقلة اليقين، وانحراف الأخلاق، وموت الضمائر.

تطلع علينا الصحف باختلاسات يختلسها الكبار من الناس، ليست بالمئات ولا بالآلاف، إنها بالملايين أحيانًا وبعشرات الملايين وبمئات الملايين.

هكذا نقرأ ما بين الحين والحين عن اختلاسات كبراء ووزراء ومديرين، اختلاسات من أموال الدولة، ومن أموال المؤسسات العامة التي ائتمنهم الناس عليها.

وآخر ما قرأناه من هذه الاختلاسات التي يذهب لها الإنسان وتذر الحليم حيران: ما قرأناه عن بنك دبي الإسلامي، أول بنك أقيم في هذا العالم على أساس من الإسلام، ليُحل ما أحل الله ويحرم ما حرم الله. كان لدبي هذا السبق، وكان لها هذا الفضل، والفضل للمبتدي وإن أحسن المقتدى.

ولكن كيف استطاع هؤلاء اللصوص أن يصلوا إلى هذه المؤسسات

الإسلامية، وأن يتسنموا ذروتها، ويسيطروا على أجهزتها، ويتحكموا فيها؟

ولو كان الاختلاس من موظف عادي لقلنا يمكن أن يُعقل. أما أن يكون الاختلاس والسرقة من المدير، فهذا ما ينطبق عليه المثل القائل: حاميها حراميها! وكما قال الشاعر قديمًا:

وراعي الشاة يحمي الذئب   فكيف إذا الرعاة لها ذئاب؟!

الراعي يحمي الغنم من الذئب، فكيف إذا كان الذئب هو الراعي؟! هذه هي المصيبة التي نراها في كثير من المؤسسات العامة والمؤسسات الحكومية.

آفة فساد الضمير والخلق:

علام يدل هذا؟ يدل هذا على موت الضمائر، على فساد الأخلاق، على أن الناس لم يعودوا يؤمنون بالله إيمانًا حقيقيًا، ولا بالآخرة، لم يعودوا يرجون الله ويخافونه، فغلّبوا حب الدنيا على الآخر، غلّبوا الأولى على الآخرة، غلبوا حب المال على حب الله عز وجل، فلم يبالوا ما أخذوا أمن حلال أم من حرام؟ بل خططوا لكسب الحرام.

والإنسان إذا لم يُقنعه الحلال، لا يُشبعه شيء. لا هو بالقليل يقنع ولا من الكثير يشبع، فصاحب العشر يبغي عشره مائة، وصاحب الألف يبغي الألف مليونًا، وصاحب المليون يريد المليون عشرة ملايين أو مائة مليون، وصاحب المائة يريدها مليارًا، وصاحب المليار لا يكتفي بالمليارات وإنما يريد أن يزيد ويزيد. مثل هؤلاء كمثل جهنم، يُقال لها هل امتلأت؟ وتقول هل من مزيد؟!

هذه هي المصيبة، مصيبة فساد الأخلاق، وفساد الأخلاق من ضعف

الإيمـان واليقـين، وإذا فسـدت أخـلاق أمـة فقـد أصـبحت مهـددة بالانهيـار أو بالزوال، كما قال أمير الشعراء شوقي ححح:

فإنمـا الأمـم الأخـلاق مـا بقيت   فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقال:

وإذا أصيب القوم فـي أخلاقهم   فــأقم علــيهم مأتمًــا وعــويلًا

ويقول:

ولــيس بعــامر بنيــان قــوم   إذا أخلاقهــم كانــت خرابًــا

الإنسـان إذا خربـت أخلاقـه ومـات ضـميره، يبيـع نفسـه، يبيـع عائلتـه، يبيـع شرفه، يبيع وطنه لأعدائه.

مـن أغـرب مـا قرأتـه: ذلـك الإنسـان الفلسـطيني ـ نسـيت اسـمه ذكرتـه الصحف ـ الذي يطالب إسرائيل بخمسـة وعشرين مليون دولار، لمـاذا؟ لأنـه سـاعدهم علـى قتـل المهنـدس المؤمن المجاهد «يحيـى عيـاش». أوصـلهم إليـه على أن يدفعوا لـه خمسًا وعشرين مليون دولار، وبعد أن نفّذ العمليـة ضـحكوا عليه، إلى جهنم وبئس المصير.

ماذا تقولون فـي مثـل هـذا الإنسـان، الـذي يبيـع ضـميره ويبيـع وطنـه ويبيـع دينه ويبيع أمته؟

حاجة الأمة إلى الاستقامة:

نحـن فـي حاجـة إذن إلـى اسـتقامة ... اسـتقامة أخلاقيـة، الحيـاة لا تسـتقيم ولا ترتقـي إلا بأهـل الاسـتقامة ﴿ٱلَّـذِينَ قَـالُواْ رَبُّنَـا ٱللَّهُ ثُـمَّ ٱسۡـتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: 30] لا تستقيم الحياة ولا تنهض ولا يرتقي الناس، إلا بهؤلاء المستقيمين.

جاء رجل - سفيان بن عبد الله الثقفي الطائفي - إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: يا رسول الله: قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك فقال له: «**قل آمنت بالله، ثم استقم**»(59). الرجل لا يريد إكثار الوصايا، يريد وصية جامعة موجزة يحفظها ويعيها ويعمل بها، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم، فقال له فيما رواه مسلم: «**قل آمنت بالله، ثم استقم**». وفي رواية الترمذي: أنه قال: يا رسول الله، حدثني بأمر أعتصم به؟ فقال: «**قل ربي الله، ثم استقم**»، قال: ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسان نفسه، ثم قال: «**هذا**»(60). أخاف عليك هذا اللسان.

«**قل ربي الله ثم استقم**» وهذا اقتبسه صلى الله عليه وسلم من القرآن حيث قال تعالى: {**إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ 13 أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ**} [الأحقاف: 13، 14]. وفي السورة الأخرى: {**إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ 30 نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ 31 نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ**} [فصلت: 30 - 32].

---

(59) رواه مسلم في الإيمان (38)، ورواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه، عن سفيان بن عبد الله الثقفي «فيض القدير» للمناوي (523/4) برقم (6143).

(60) رواه الترمذي في الزهد (2412) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (3792)، وابن حبان في «صحيحه» (5698)، والحاكم (313/4)، وقال صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للقرضاوي (746/2) برقم (1724). وذكره الألباني في «صحيح الترمذي» (1965).

{إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ} جاء عن أبي بكر ررر قال: {ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ} أي لم يلتفتوا إلى إله غير الله. يعني: أخلصوا التوحيد، أحكموا حقيقة التوحيد. وعن عمر ررر قال: استقاموا والله لله بطاعة الله، ولم يروغوا روغان الثعالب. يعني: استقامة حقيقية على الصراط المستقيم.

الله تعالى علّمنا أن نسأله الهداية كل يوم إلى الصراط المستقيم: {ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ 6 صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ} [الفاتحة: 6، 7] هذه هي الاستقامة، الاستقامة على هذا الصراط.

أمر الله رسوله مرتين في القرآن بالاستقامة في سورة هود وفي سورة الشورى:

قال تعالى: {فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْ ...} [هود: 112].

وقال: {فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ} [الشورى: 15].

{فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ} كما أمرك الله.

ذكر القشيري حجح أن أحد الصالحين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فسأله وقال له: يا رسول الله، لقد قلت: «**شيبتني هود وأخواتها**»(61)، فما الذي شيبك من هود؟ فقال له: قوله تعالى: {فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ

---

(61) الحديث رواه الترمذي في «التفسير» (3293) عن أبي بكر ولفظه: «**شيبتني هود والواقعة المرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت**» وذكره الألباني في «صحيح الجامع» (3721).

أُمِرۡتَ}.

الاستقامة تعني: أن تثبت على الحق، وأن تقف عند حدود الله، وأن تبتعد عما حرم الله، وأن تسير في الطريق إلى الأمام، لا ترجع إلى القهقري، رجوع القهقري ليس استقامة، ولا تتوقف، فإن المتوقف لا يُسمى مستقيمًا. ولا تنحرف يمينًا ولا يسارًا، فالاستقامة ضد الانحراف. النبي صلى الله عليه وسلم - كما روى ابن مسعود[62] - خط لأصحابه على الرمل خطًا مستقيمًا ثم قال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن شماله «أي متعرجلة مائلة» وقال: «**هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، وقرأ: {وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ}** [الأنعام: 153]».

الاستقامة: هي السير إلى الأمام في خط مستقيم؛ هو الصراط الذي رسمه الله تعالى لعباده.

استقامة القلب:

الاستقامة: هي استقامة القلب أولًا على حقيقة التوحيد، فلا ترجو إلا الله، ولا تخشى إلا الله، ولا تعتمد إلا على الله، ولا تثق إلا بالله، ولا تحب ولا تكره إلا في الله، ولا تُعطي ولا تمنع إلا لله، كل شيء عندك لله، موصول بالله «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»[63].

---

(62) رواه أحمد في «المسند» (4437) وقال محققوه: إسناده حسن.
(63) رواه أبو داود في «السنة» (4681).

هذه هي استقامة العقيدة، أن تستقيم على التوحيد، فلا تتخذ غير الله ربًا، ولا تتخذ غير الله وليًا، ولا تبتغي غير الله حكمًا.

استقامة القلب أولًا، فإن القلب هو ملك الأعضاء والأعضاء جنود، وكما جاء في الحديث الصحيح: « **... ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(64).

استقامة اللسان والجوارح:

ثم بعد ذلك استقامة اللسان، كما روى الإمام أحمد من حديث أنس ررر: «**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه**»(65)، استقامة اللسان دليل على استقامة القلب. وفي حديث آخر: «**إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان «أي تخضع له» فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا**»(66).

---

(64) جزء من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه ب، وأوله: «**الحلال بين والحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه ...**» متفق عليه كما في «اللؤلؤ والمرجان»، رواه البخاري في الإيمان (52)، ومسلم في المساقاة (1599).

(65) رواه أحمد في «المسند» (13047) عن أنس، وقال محققوا «المسند»: حديث صحيح وهذا إسناد قوي. وابن أبي الدنيا في «الصمت»، كلاهما من رواية علي بن مسعدة الباهلي، قال الهيثمي: وثّقه جماعة وضعّفه آخرون. وقال الحافظ في «التقريب»: صدوق له أوهام. وتتمته: «**ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه**». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للقرضاوي (746/2 - 747) برقم (1726).

(66) رواه الترمذي في «الزهد» (2409)، وابن خزيمة في «صحيحه»، والبيهقي في

ثم بعد ذلك استقامة الجوارح كلها على طاعة الله، تستقيم يدك، وتستقيم رجلك، ويستقيم بصرك، ويستقيم سمعك، وتستقيم كل جوارحك على طاعة الله، فلا ترتكب الحرام، ولا تتعدى حدود الله عز وجل.

هذه هي الاستقامة.

الاستقامة على طريق الحق:

ومن مكملات الاستقامة ما ذكره الله تعالى في سورة «هود» من اللاءين، قالوا: الدين بين لاءين، وهي قوله تعالى: **{فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ** [أي تاب معك من الصحابة، تابوا من الشرك وتابوا من انحرافات الجاهلية] **وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ 112 وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ}** [هود: 112، 113].

{وَلَا تَطْغَوْاْ ..... وَلَا تَرْكَنُوٓاْ}: الطغيان: أن تتجاوز الحد إما في حقوق الناس أو في حدود الله، أن تتجاوز الحلال إلى الحرام، أن تتجاوز العدل إلى الظلم، كما وصف الله تعالى فرعون حينما قال لموسى: **{ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ}** [طه: 24].

والله تعالى يعلمنا الاستقامة وعدم الطغيان فقال: **{وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ 7 أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ 8 وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ}** [الرحمن: 7 - 9] هذه هي الوسطية، لا طغيان ولا إخسار.

«شعب الإيمان»، وابن أبي الدنيا، عن أبي سعيد الخدري. وقال الترمذي: رواه غير واحد عن حماد بن يزيد ولم يرفعوه، قال: هو أصح. قال المناوي: ومع ذلك إسناد الرفع جيد لكن الموقوف أجود والله أعلم. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للقرضاوي (748/2) برقم (1730). وذكره الألباني في «صحيح الجامع».

{... وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ} [هود: 112]، يعلم كل أعمالكم ويبصرها، ويطلع عليها، جليها وخفيها، ويجازيكم عليها.

{وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ...} [هود: 113] لا تطغى ولا تظلم، ولا تركن إلى طاغية أو ظالم، لا تكن عونًا لظالم، لا تكن سوطًا في يد ظالم، لا تُسخّر نفسك خادمًا لظالم، فإنك بذلك تكون شريكه، تكون معه من حطب جهنم، أعوان الظلمة كلاب النار.

{وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ...} [هود: 113] الركون إلى الظلمة: الاستناد إليهم والاعتماد عليهم، بحيث تسير في ركابهم، وتحرق البخور بين أيديهم، وتكون معهم في الخير والشر، والعدل والظلم، والحسن والقبيح، والمعروف والمنكر، هذا ما ينكره الإسلام.

الإسلام يريد من المسلم أن يكون مع الحق والعدل، لا مع الباطل والظلم.

وقف سيدنا أبو بكر ررر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وقال: يا أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ...}** [المائدة: 105]، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»**(67). وهذا ما قاله القرآن: **{وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ**

---

(67) رواه أبو داود في «الملاحم» (4338)، والترمذي في «التفسير» (3059) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه في «الفتن» (4005)، والنسائي، وابن حبان في «صحيحه»، وقال النووي في «الأذكار والرياض»: أسانيده صحيحة، وذكره الألباني في «صحيح أبي داود» (3644). «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للقرضاوي (643/2) برقم (1375).

لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ} [الأنفال: 25].

لا تكن طاغية، لا تطغى، ولا تركن إلى ظالم، ولا تكن عونًا لظالم، هذه هي حقيقة الاستقامة.

حاجة أمتنا للاستقامة:

نحن في حاجة إلى أمة تستقيم على أمر الله، إنما نجح المسلمون في العصور الأولى، إنما انتصروا على الدول الكبرى ... على كسرى وقيصر ... على الفرس والروم، وأقاموا دولة العدل والإحسان، وأنشأوا حضارة العلم والإيمان، إنما فعلوا ذلك يوم كانوا أهل استقامة على أمر الله.

استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينشأ من عرب الجاهلية عرب الإسلام، أن يحول عمر الجاهلية إلى عمر الإسلام، وخنساء الجاهلية إلى خنساء الإسلام.

بهؤلاء انتصر الإسلام في العالم، وقامت دولة الإسلام الكبرى، وانتشر الإسلام في العالمين.

ربَّى النبي عليه الصلاة والسلام الصحابة، والصحابة ربَّوا التابعين، والتابعون ربوا أتباعهم، وهكذا انتشرت التربية النبوية المحمدية إلى العالم.

التربية على الاستقامة: أن تقول ربي الله ثم تستقيم على هذا الأمر، وتثبت عليه، وتدفع ضريبته مهما كانت.

كلمة «ربي الله» ليست كلمة هينة. إن موسى سسس قال: ربي الله - سأله فرعون وأخوه هارون معه: **{قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ 49 قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ**

كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ [طه: 49، 50] - فأراد فرعون أن يقتل موسى: **{وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ}** [غافر: 26] فساق الله لموسى رجلًا مؤمنًا من آل فرعون يكتم إيمانه، ووقف يدافع عنه بقوة المؤمن وإيمان القوى ويقول: **{ ... أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡ ...}** [غافر: 28] أمن أجل أن يقول ربي الله تقتلونه؟

قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوذي ما أوذي في نفسه وأهله وأصحابه.

قالها الصحابة فعذبوا، وأوذوا، وشروا، وهاجروا وأخرجوا من ديارهم كما قال تعالى: **{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ 39 ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ...}** [الحج: 39، 40]. ما كان لهم من ذنب اقتفوه، ولا جرم ارتكبوه، إلا أنهم قالوا ربنا الله، ولنعم ما قالوا.

«**قل ربي الله ثم استقم**»، ليستقم سلوكك ويستقم عملك، كما استقامت عقيدتك وكما استقام إيمانك، واثبت على ذلك حتى يكون لك الجنة، وحتى تتنزل عليك الملائكة عند الموت وعند البعث **{ ... تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ «مبشرة» أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ 30 نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ... }** [فصلت: 30، 31] كنا معكم أولياء ونصراء في الدنيا، ونحن في الآخرة معكم نستقبلكم.

فهكذا ينبغي أن يكون أهل الإيمان.

لا تصلح الحياة إلا بالاستقامة، لا تنهض المجتمعات إلا بالاستقامة، لا تستقيم المؤسسات إلا بالاستقامة.

وليس معنى الاستقامة: العصمة من الذنوب، لا يوجد إنسان معصوم، النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**استقيموا ولن تحصوا ...**»(68) لن تحصوا: أي لن تقدروا على الكمال، سددوا وقاربوا، والله تعالى يقول لرسوله: {**قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ...**} [فصلت: 6] معنى {**وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ**}: أنكم لا بد أن تصدر منكم هفوات وخطايا، فإن الإنسان ليس معصومًا، والإنسان خلق من طين، والطين لا يخلو من الكدر. فإذا حدث منك شيء فراجع نفسك وعد إلى الله تائبًا مستغفرًا {**فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ**}، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر: « **... وأتبع السيئة الحسنة تمحها ...**»(69) وقال الله تعالى:

---

(68) جزء من حديث رواه أحمد (22378) وقال محققوا «المسند»: حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح، وابن ماجه، والحاكم وصححه على شرطهما، والبيهقي في «السنن»، عن ثوبان. قال المنذري: إسناد ابن ماجه صحيح، وقال الحافظ العراقي: حديث حسن رواته ثقات إلا أن في سنده انقطاعًا. ورواه البيهقي في «الشعب»، والطبراني في «الكبير» عن ابن عمرو، قال مغلطاي: إسناده لا بأس به. ورواه الطبراني في «الكبير» عن سلمة بن الأكوع، قال الرافعي: إنه حديث ثابت «فيض القدير» للمناوي (497/1) برقم (994) «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (147/1) برقم (122).

(69) قطعة من حديث رواه أحمد (21354) وقال محققوا «المسند»: حسن لغيره وهذا إسناد رجاله ثقات، والترمذي وقال: حسن صحيح، والحاكم وصححه على شرطهما وأقره الذهبي، والبيهقي في «شعب الإيمان»، عن أبي ذر رضي الله عنه . ورواه أحمد، والترمذي وحسنه، والبيهقي في «الشعب»، والطبراني، عن معاذ رضي الله عنه ، قال الذهبي: إسناده حسن. ورواه ابن عساكر عن أنس بن مالك رضي الله عنه بسند

{... إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ...} [هود: 114].

ما أحوج أمتنا إلى الاستقامة، ما أحوجنا أفرادًا وجماعات إلى الاستقامة. بالاستقامة تطمئن نفوسنا، تسعد قلوبنا بالسكينة، بدل القلق الذي أتعب الناس وعذب الناس.

الاستقامة بالإيمان والاستقامة بالسلوك تجعل الإنسان يعيش مرتاح الضمير، ويعيش فينام ملء جفنيه، ليس بينه وبين أحد خصومة، لم يسرق، ولم يختلس.

هؤلاء السارقون المختلسون لن يهنأوا بما سرقوا وما اختلسوا، سيبتليهم الله بما ينغص عليهم حياتهم، لن يسعدوا بما سرقوه وما اختلسوه والله، وإن كانوا يلعبون بالملايين لعبًا. ليس المال هو كل شيء في الحياة، الحياة أكبر من المال، وأعمق من المادة، وأوسع من هذه المحسّات التي يركض الناس وراءها، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس**»(70)، وقال علي ررر:

يعز غنى النفس إن قل ماله ويغني غنى المال وهو ذليل

أسأل الله تتت أن يكفينا بحلاله عن حرامه، وبطاعته عن معصيته، وبفضله عمن سواه. ونقول كما قال الحسن ررر عندما قرأ هذه الآية: {**إِنَّ**

ضعيف، ورواه عنه أيضًا الطبراني وغيره. قال المناوي: فالإسناد الأول صحيح، والثاني حسن، والثالث ضعيف «فيض القدير» للمناوي (1/120 - 121) برقم (115) ونصه كاملًا: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**».

(70) رواه البخاري في الرقاق (6446)، ومسلم في الزكاة (1051) عن أبي هريرة.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ قال: اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة. اللهم آمين ادعوا الله يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

الكوارث المتكررة في رمي الجمرات:

سمعنا بالأمس خبرًا حزننا، كنا نظن موسم الحج هذا العام موسمًا يمر بخير، لا ندري ما الذي أصاب المسلمين؟ في كل سنة تحدث لهم في هذا الموسم العظيم مصيبة. ومنذ سنوات حدث مثل ما حدث بالأمس، مات مئات الناس تحت الأقدام في مرمى الجمرات.

ولا شك أن المملكة العربية السعودية تبذل جهودًا كبيرة لا ينكرها إلا مكابر، في سبيل فتح الأنفاق وإقامة الجسور، وتذليل الطرقات والصعوبات، وخدمة الناس بسبل شتى. ولكن تبقى هناك بعض الآفات التي لا يسلم الناس منها، ومن هذه الآفات:

تدافع الناس إلى مرمى الجمرات تدافعًا غير معقول، وخصوصًا في ساعة الزوال. وهذا يؤكد ما قلته وأقوله باستمرار: إنه لا داعي أن نلزم الناس بالرمي ساعة الزوال.

إن هناك ثلاثة من الأئمة قالوا بجواز الرمي قبل الزوال:

إمام التابعين وفقيه مكة: عطاء بن أبي رباح.

وإمام اليمن وفقيهها: طاووس بن كيسان.

وإمام أهل البيت: أبو جعفر الباقر.

وقال بذلك بعض فقهاء الشافعية: إنه يجوز الرمي منذ طلوع الشمس.

وألف في ذلك العلامة الشيخ عبد الله بن زيد المحمود ححح رئيس المحاكم الشرعية في قطر منذ حوالي أربعين رسالة سماها: «يسر الإسلام في مناسك بيت الله الحرام»، أفتى فيها بجوار الرمي قبل الزوال، ودلل بأدلة كثيرة منها: قيام الإسلام عامة والحج خاصة على التيسير، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ما سئل عن أمر قدم أو أخر في الحج إلا قال: «**افعل، ولا حرج**»، «**افعل ولا حرج**»[71]، وهذا الرمي أمر يتم بعد التحلل النهائي من الحج، لا هو من الأركان ولا من الأشياء الأساسية، وأجازوا النيابة فيه، وأجازوا الحنابلة أن يؤخر الرمي كله إلى اليوم الأخير[72].

فلماذا نشدد على الناس؟

هذه نتيجة التشديد.

---

(71) رواه البخاري في الحج (1737)، ومسلم في الحج (1306) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ب.

(72) انظر فتوى الشيخ القرضاوي حول الكوارث المتكررة في رمي الجمرات في الجزء الثالث من كتاب «فتاوى معاصرة» (ص266 - 275). وللشيخ كتاب قيم صدر مؤخرًا عنوانه «مائة سؤال عن الحج والعمرة والأضحية والعيدين» طبعته مكتبة وهبة بالقاهرة، لكنا لا نزال ننتظر منه أن ينجز كتابه الذي وعدنا به منذ سنين طويلة وهو: «فقه الحج» ضمن سلسلة «تيسير الفقه للمسلم المعاصر في ضوء القرآن والسنة» والتي صدر منها حتى الآن: «فقه الطهارة» و«فقه الصيام». فنسأل الله الكريم أن يعينه على إنجازه مع بقية الأجزاء، وأن يمده بروح من لدنه، وأن يرزقه الصواب ويجنبه الزلل، آمين.

الذين يمروون بالميكرفونات يقولون للناس: من رمى قبل الزوال فرميه باطل وحجه باطل ... إلخ! والنبي رمى عند الزوال، تحينوا الزوال وارموا كما رمى النبي صلى الله عليه وسلم فينتظر الناس الزوال ويندفعون أمواجًا هائلة، فيحدث ما يحدث.

أما آن لنا أن نتعظ ونيسر على الناس ونفتيهم بجواز الرمي قبل الزوال حتى لا يتكدسوا ساعة الزوال؟ مليونان أو أكثر من مليونين، وأعتقد أن في الأعوام القادمة سيزيد العدد كلما دخل الحج في وقت أخف حرارة وألطف هواء.

ماذا يمكن أن تفعله السعودية لمواجهة هذه الأعداد المتزايدة أكثر مما فعلته؟ ما أظن أن عندهم شيئًا يفعلونه أكثر من هذا، إلا التخفيف في الفتوى.

العدد كبير، والزمان محدود، والمكان ضيق، و لا بد أن يقف الناس بحيث تصل الحصوة إلى المرمى، ولا يمكن أن نوسع في المرمى. في المطاف ممكن أن نوسع، وإنما في المرمى لا يمكن أن نوسع فيه لأنه محدود، فماذا تفعل السعودية إلا أن تزيد في الزمان ما أمكن فتقول: الرمي من الصباح وإلى ما شاء الله من المساء؟ وبذلك نخفف على الناس، ولا يندفع الناس ساعة الزوال بهذه الأمواج البشرية التي لا يستطيع الإنسان أن يفعل فيها شيئًا.

ماذا تفعل إذا وجدت إنسانًا تحت رجليك؟ لا تملك أن تفعل شيئًا لأنك مسير لا مخير، الأمواج تدفعك، لا تملك نفسك.

فمن هنا ينبغي أن نُيسر على عباد الله في الحج حتى نتفادى هذه المصائب

التي تحدث لنا، سنة تحرق الخيام، وسنة يموت الناس في النفق، وسنة يموتون في مرمى الجمرات، ما هذا؟ هذا لا يليق بأمة الإسلام.

نسأل الله تتت أن ينير بصائرنا، وأن يفقهنا في ديننا.

أما هؤلاء الذين ماتوا فهم شهداء إن شاء الله، لأنهم ماتوا وهم يؤدون عملًا من أعمال الطاعات، وماتوا غرباء عن ديارهم، ومن مات غريبًا مات شهيدًا، هم من أقرب الناس إلى الله تتت، ماتوا بنياتهم **«وإنما لكل امرئ ما نوى»**(73).

إنما نحن نبحث عما ينبغي على الأمة أن تفعله، حتى لا تقع فيها مثل هذه الهزات في كل عام.

عباد الله، يقول الله تتت: **{إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا}** [الأحزاب: 56].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

{ ... وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

* * *

(73) جزء من حديث عمر رضي الله عنه ، وقد مر تخريجه في الخطبة الماضية.

(6)
من المسئول عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر؟[74]

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

عمل نستنكره وندينه:

كانت أمريكا في الزمن الماضي، تعتقد أنها محصنة من أي خطر يتهددها داخل بلادها، فهي تعيش بعيدًا بعيدًا عن سائر العالم، يحميها محيطان كبيران، المحيط الأطلسي من ناحية، والمحيط الهادي من ناحية أخرى. فكانت هي القادرة على أن تغزو ولا تُغزى، وأن تضرب ولا تضرب. وأن تهدد من شاءت في المشرق أو المغرب، ولا تخشى أن يهددها أحد من العالمين.

ثم فوجئت أمريكا بما لم يخطر لها على بال، واستيقظت على ضرب أكبر برجين في نيويورك بل في العالم، وتحويلهما إلى خرابة. ثم ضرب بناية وزارة الدفاع «البنتاجون» في واشنطن، فأصابه ما أصابه من دمار!

فمن هذا الجرئ الذي اجترأ على حرمات أمريكا، وضربها في أعز ما تملك؟

هذا ما جعل الأحلام هناك تطيش، وما جعل القرارات المتسرعة تبرز إلى

(74) ألقيت في جامع عمر بن الخطاب بالدوحة في 4 رجب 1422هـ الموافق 21 سبتمبر 2001م.

الناس قبل أن يتحققوا: من الفاعل؟

لقد أشارت أصابع الاتهام - قبل أن يبدأ التحقيق وقبل أن يأخذ مجراه - إلى العرب والمسلمين دون بينة ولا دليل!

لقد سارع العرب والمسلمون لاستنكار ما حدث، وكنت ممن أنكر ذلك على أساس أن الإسلام يقاتل من يقاتله، ولا يتعرض للأبرياء، لا يأخذ البرئ بذنب المسيء ولا المظلوم بجريرة الظالم، هذا مبدأ إسلامي.

وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم امرأة مقتولة في إحدى الغزوات، فأنكر ذلك على أصحابه وقال: «**ما كانت هذه لتقاتل**»[75]. معنى هذا: أن المبدأ الإسلامي ألا يقتل إلا من يقاتل. ولذلك حرم النبي صلى الله عليه وسلم قتل النساء والصبيان والشيوخ، ومنع الخلفاء الراشدون قواد عساكرهم من قتل الرهبان في صوامعهم أو قتل الحراثين ... الزراعين في الأرض لأنهم لا ينصبون لهم الحرب[76].

ولذلك استنكرنا قتل البرآء بغير حق، وقلنا: لعل هذه الحوادث توقظ الضمير الأمريكي. الأحداث الكبرى من شأنها أن تنبه الغافل، وتذكر الناسي، وتعلم الجاهل، وتجعل الإنسان يراجع نفسه، ويحاسب نفسه، ويعرف أخطاءه من صوابه، عسى أن يرجع عن الخطأ ويتحرى الصواب.

الله تعالى حدثنا عن أولئك المؤمنين الذين قتل منهم من قتل في معاركهم

---

(75) سبق تخريجه في (ص13).

(76) انظر: «الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد» للشيخ القرضاوي (289 - 291)، ط. دار الشروق.

مع أعدائهم فقال: {**وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ**} [آل عمران: 147]. قبل أن يسألوا الله تعالى النصر والتثبيت سألوه أن يغفر لهم ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم، أي ما قصروا فيه من قبل.

كان على الأمريكان أن يراجعوا حساباتهم ... أن يكون هذا الحادث الأليم موقظًا لضمير الإدارة الأمريكية لتراجع سياستها الخارجية في العالم، وما ارتكبته من مظالم حتى تستطيع أن تصحح المسيرة وتعالج الأدواء من جذورها، ولكنها للأسف لم تفعل ذلك، ركبهم الغرور، {**... وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ...**} [فصلت: 15].

اتهام متسرع للمسلمين:

لقد أشارت أصابع الاتهام من أول الأمر إلى المسلمين وإلى العرب كما هي العادة، وكما حدث من قبل في حادث «أوكلاهوما» حينما تهموا العرب والمسلمين، ثم أثبتت التحقيقات السريعة أن الفاعل أمريكي! هذا ما يحدث الآن. من أول الأمر قالوا: المسلمون ... العرب ... «بن لادن»! وما الدليل؟ لم يقدموا دليلًا.

الأشياء التي قدموها تضحك: أسماء بعضهم مات من سنين، بعضها موجود في السعودية، بعضها أطفال، بعضها رجل مع زوجته! أبمثل هذا يؤخذ الناس؟!

الإسلام علمنا: «**لو يعطى الناس بدعواهم لادعى رجال أموال قوم**

ودماءهم، ولكن البينة على المدعى واليمين على من أنكر»(77).

الــــدعاوى إذا لــــم تقيمــــوا عليهــا بينــات أبناؤهــا أدعيــاء

لا بد من البينـة: «**على مثل الشمس فاشـهد**»(78). البينـة: كل مـا أبـان الحق وأظهره. فهل عندكم بينات؟ لا والله ليس عندهم بينات.

قـالوا: إن «بـن لادن» هـو المشـتبه فيـه الأول! أبالاشـتباه تعـاقبون النـاس؟! مشتبه فيه! حتى لم يصل إلى درجة متهم! لا يجوز أن تنزل عقوبة بشخص من أجل أنك تشتبه فيه. المتهم الأصل فيه أنـه بـرئ حتى تثبت دينونتـه. وقد قالوا: الشك يُفسر لمصلحة المتهم. أما أن تلقى التهمة جُزافًا على النـاس فهذا ليس من العدل في شيء. الاشتباه لا يوجب العقوبة أبدًا.

النبـي صلـى الله عليـه وسلم علمنـا هذه القاعدة فقـال: «**لا يقضـي القاضـي وهو غضبان**»(79). لأن الغضب يؤثر على سلامة الإدراك وسلامة الحكم. وكذلك كل انفعال، ولذلك قال الفقهاء: إذا كـان القاضـي جائعًا شـديد الجـوع أو عطشـان أو حزينًـا أو فرحًـا شـديد الفـرح - أي عاطفـة تسيطر - لا ينبغـي أن

---

(77) رواه البخاري في التفسير (4552)، ومسلم في الأقضية (1711) عن ابن عباس.

(78) رواه الحاكم والبيهقي عن ابن عباس مرفوعا بلفظ: «**إذا علمت مثل الشمس فاشهد وإلا فدع**»، ورواه الديلمي عنه بلفظ: «**يا ابن عباس لا تشهد إلا على أمر يضيء لك كضياء الشمس**»، ورواه الطبراني والديلمي أيضًا عن ابن عمر. وأورده الرافعي بلفظ: أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الشهادة فقال للسائل:«**ترى الشمس**»؟ قال: نعم، قال: «**مثلها فاشهد أو فدع**»، قال ابن الملقن: وهو غريب بهذا اللفظ «كشف الخفاء» للعجلوني (71/2، 72) برقم (1781).

(79) رواه البخاري في الأحكام (7158)، ومسلم في الأقضية (1717) عن أبي بكرة ولفظه عند البخاري: «**لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان**».

يحكم ولا أن يصدر منه حكم وهو في هذه الحالة.

أمريكا غاضبة، والرأي العام غاضب، وتريد أن ترضي الرأي العام بأي طريقة، فهي تتسرع في هذا الحكم، وهو حكم كبير، إنه ليس على «بن لادن» وحده، ولكن على «بن لادن» وأفغانستان وبلاد أخرى ومنظمات كثيرة في العالم. الله أعلم من تريد أمريكا بهذه المنظمات؟ حزب الله من هذه المنظمات؟ المنظمات الجهادية من هذه المنظمات؟

ما الإرهاب الذي سيحارب؟

ما هو الإرهاب الذي تقول أمريكا أنها ستعلن عليه الحرب؟ إن الإرهابي الأعظم والإرهابي الأول في العالم هو دولة الصهاينة ... الدولة القائمة على الاغتصاب والعدوان، والتي انحازت لها أمريكا بالحق وبالباطل، ووقفت بجانبها عسكريًا واقتصاديًا وسياسيًا، هذا هو الإرهاب الحقيقي فلماذا لم تحاربه أمريكا؟

التركيز على «بن لادن»! هل «بن لادن» هو الفاعل الحقيقي؟ إن حركة طالبان - أو الإمارة الإسلامية في أفغانستان - حظرت على «بن لادن» أن يتحرك بالعمل ضد أي دولة أخرى، وهو قد بايعهم على السمع والطاعة لأمير المؤمنين، ولا يجوز له أن يخالف هذا شرعًا ولا دينًا، فأعتقد أنه ملتزم بهذا الأمر. ومن رأى منكم حديثه بالأمس في قناة الجزيرة وهو حديث معاد من ثلاث سنوات قال: إنني لا أستطيع أن أتحرك للعمل ضد أي شيء، كل ما أفعله: الدعوة والتحريض. يعني هو يقول: قاتلوا أمريكا ... حاربوا أمريكا ... أخرجوا أمريكا من دياركم، هذا هو الذي يملكه، وليس عنده من وسائل

الاتصال ما يستطيع أن يحرك به الآخرين خارج أفغانستان.

أعتقد أن الأمريكان أنفسهم يعرفون أنه ليس له يد في هذه القضية، ولا يستطيع أن يحرك فيها ساكنًا.

والله أعلم بمن فعل هذه الأفاعيل: هل هم مسلمون؟ هل هم عرب؟ هل هم عجم؟ هل هم أمريكان؟ هل هم يابانيون؟ أي فئة من الناس؟ إن أعداء الأمريكان كثيرون.

أمريكا لتجبرها وتفردها بالنفوذ وسيطرتها على العالم، أصبح لها أعداء كثيرون في أنحاء العالم، وأعداء تاريخيون، منذ أن ضربت «هيروشيما» و«ناجازاكي» وقتلت مئات الآلاف من البرآء من الناس الذين لا ذنب لهم ... الناس الذين لا يزالون يدفعون ثمن القنابل النووية إلى اليوم من حياتهم ومن صحتهم. وهناك حرب فيتنام، والحروب الأخرى في الشرق الأقصى، وحروبها مع العرب والمسلمين ... مع الإيرانيين، ومع العراقيين، ومع السودان، ومع ليبيا، ومع غيرها، كلها أمور معروفة.

أعداء أمريكا كثيرون حتى داخل أمريكا. داخل أمريكا من يعاديها، وقد دلّت حادثة «أوكلاهوما سيتي» على أن هناك من الأمريكان البيض من يضمرون الشر والحقد للحكومة الفيدرالية، وقد رأينا هذا الرجل الذي حوكم وأعدم من قريب. ما يدرينا لعل هناك أناسًا أرادوا أن يثأروا له.

لا تزر وازرة وزر أخرى:

على كل حال، الاشتباه لا يمكن أن يكون سببًا في إنزال العقاب بأي أحد من الناس حتى تستبين الحقائق واضحة جلية كالشمس. الأصل في الناس

البراءة، هذا ما تقرره الشرائع السماوية والقوانين الوضعية والقيم الأخلاقية والأعراف الدولية، كلها تقول: لا يجوز أن يُعاقب بريء حتى تثبت دينونته ثبوتًا حقيقيًا. فأين هذا الثبوت في هذه القضية؟ لا نجد ما يثبت شيئًا هنا أبدًا.

ثم إن من القواعد المقررة: أن المسئولية فردية. أي كل إنسان مسئول عن نفسه: **{كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ}** [المدثر: 38]، ولا يجوز أن يُعاقب الإنسان بذنب غيره. هَبْ أن أحد الأبناء ارتكب خطأ هل يعاقب أبوه بسببه؟ أو يعاقب أخوه؟ أو يعاقب قريبه؟ لا.

في زمن الحجاج الثقفي - وكان رجلًا جبارًا طاغية - اعتقل أحد الناس، لماذا؟ لأن قريبًا له ارتكب ذنبًا فبحثوا عنه فلم يجدوه، فأخذوه بسببه. فلما مَثُلَ أمام الحجاج وسأله عن ذنبه، فقال له: جنى جان من عُرض العشيرة فأُخذت به. فقال: أما علمت قول الشاعر:

ولربما مأخوذ بذنب عشيرة ونجا المقارف صاحب الذنب

قال: أيها الأمير إذا كان الشاعر قد قال ذلك فقد سمعت الله تعالى قال غير ذلك. قال: ويحك وماذا قال الله؟ قال: قال على لسان يوسف وقد قالوا **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ** (أي لأخيه) **أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ 78 قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ}** [يوسف: 78، 79]. فذهل الحجاج وارتعد من هذه الآية وقال: صدق الله وكذب الشاعر، خلّوا سبيل الرجل.

تربص أمريكا بأفغانستان:

لا يؤخذ أحد بذنب أحد، فكيف يُراد أن يؤخذ الشعب الأفغاني كله بأسامة

بن لادن؟! ومن قال: إن الدولة الأفغانية أو الإمارة الإسلامية في أفغانستان أيدت هذا الأمر؟ وأي دليل على ذلك؟ أم هي تصفية حسابات؟ أو أن أمريكا خططت لأمر ثم اتخذت هذا الحادث تُكأة لتنفيذ ما خططته من قبل؟

أمريكا تريد أن تنفذ إلى هذا المكان من العالم، وأن يكون لها فيه وجود عسكري واستراتيجي، وتريد أي سبب من الأسباب حتى تتمكن من الذهاب إلى هذه الأرض والبقاء فيها. يبدو أن هذا هو الأمر الصحيح، وإلا فلا ذنب لأفغانستان.

ما ذنب هذا الشعب المسكين الذي قدم من أبنائه ما قدم، مليونين أو أكثر من الشهداء وأمثالهم من الجرحى والمعوقين، والذي يقاتل ويكافح من أجل كسب عيشه. ما الذي جناه هذا الشعب الفقير حتى يُقاتل ويُضرب بالصواريخ الجوية؟ من تقاتلون؟ إن الصاروخ يتكلف مليون دولار ولا يوجد في أفغانستان شيء يساوي مليون دولار! تضربون الشعب المسكين البريء؟ من أجل ماذا؟

حرمة التعاون مع أمريكا لضرب أفغانستان:

والعجيب أن نجد من المسلمين والعرب من يُسهّل لهم الطريق ... من يساعدهم على هذا العدوان. لا، لا يجوز لمسلم أن يساعد على قتل أخيه «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه**»[80] لا يسلمه: أي لا يخذله ولا يتخلى عنه، بل يكون ردءًا له، يشد أزره، ويقوي عضده، كلما نزلت به المصائب وادلهمت به الحوادث، وكما جاء في الحديث: «**المسلمون تكافأ**

---

(80) سبق تخريجه في (ص 40).

دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم»(81). هم كالبيان المرصوص: **{إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ}** [الصف: 4]، **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»**(82)، وكالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله(83). هذا هو تصوير الأمة الإسلامية.

الأمة الإسلامية أمة واحدة جمعتها العقيدة، وجمعتها الشريعة، ووحدتها القبلة، فلا يجوز أن يخذل بعضها بعضًا، ولا يجوز أن يعين بعضها أعداءها عليها، هذا ما يُستغرب جدًا. الله تعالى يقول: **{وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ}** [الأنفال: 73]. فقهاؤنا قالوا: الكفر كله ملة واحدة: يوالي بعضهم بعضًا، ويساند بعضهم بعضًا، ولذلك نراهم يختلفون فيما بينهم ويتفقون علينا، إذا كان العدو هو الإسلام فإن كلمتهم تكون واحدة: **{وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ** [يعني - أيها المسلمون - إلا يوال بعضكم بعضًا، ويساند بعضكم بعضًا، ويقف بعضكم

---

(81) حديث حسن أخرجه أحمد (6797) وقال محققوا «المسند»: صحيح، وهذا إسناد حسن، وأبو داود وابن ماجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده «شرح السنة» للبغوي بتحقيق شعيب الأرناؤوط (90/11). وعن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم ...**» أخرجه أبو داود والنسائي، قال في «التنقيح»: سنده صحيح، وحسنه الحافظ في «الفتح». «شرح السنة» بتحقيق الأرناؤوط (172/10) برقم (2513).

(82) رواه البخاري في المظالم (2446)، ومسلم في البر والصلة (2585)، والترمذي والنسائي، كلهم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(83) كما جاء في حديث النعمان بن بشير الذي رواه مسلم في البر والصلة (2585) ونصه: **«مَثَل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»**.

بجانب بعض ويتكتل بعضكم مع بعض] **تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ}** [الأنفال: 73]. وأي فتنة وأي فساد إذا كان الكفر يتجمع والإسلام يتفرق؟! إذا كان هناك عمل في جانب الكفر وسلبية وفراغ في جانب الإسلام؟! هنا الخطر: **{تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ}**.

ولهذا لا يجوز لأي دولة إسلامية أن تتيح لأمريكا أن تضرب من أرضها إخوانهم في الإسلام، هم لم يقترفوا إثمًا، ما فعلوا جريرة حتى تضرب أراضيهم بالصواريخ، وتهدم منشآتهم بأسلحة الترسانة الأمريكية.

إني أنادي البلاد الإسلامية في كل مكان ألا يقدموا العون لأمريكا في عدوانها على أفغانستان أو على غيرها، لأنا لا ندري من هي البلاد التي ستضربها أمريكا، وما هي المنظمات التي ستضربها؟ قالوا: سيضربون حزب الله في لبنان! لماذا؟ حزب الله قاوم الإسرائيليين المحتلين المعتدين، فلماذا يُضرب حزب الله؟ يضربون حماس والجهاد الإسلامي، لماذا؟ لأهم يدافعون عن أرضهم وحرماتهم ومقدساتهم؟ من يضربون؟

كيفية علاج الإرهاب:

وهل هذا علاج للإرهاب حقًا؟ إن علاج الإرهاب لا يكون بمثل هذا الحروب؟ علاج الإرهاب يكون بإقامة العدل في الأرض، أن تقيم الحق وتقاوم الباطل، أن تكون مع الضعيف ضد القوي ومع المظلوم ضد الظالم. هذا العدل هو الذي يجتث أسباب الإرهاب من الأرض، أما إذا بقيت هذه الأسباب وبقيت المظالم وبقى اعتداء القوي على الضعيف، وبقى منطق: تحكم الذئب فاخضع أيها الحمل، إذا بقى هذا المنطق فسيظل الإرهاب، ولو

قتلوا «بن لادن» سيوجد ألف أسامة بن لادن وأسامة آخرون.

إن هذا لا يزيد الداء إلا علة، ولا يزيد الطين إلا بلة، ولا يزيد النار إلا تأججًا. إنهم بهذا يصبون الزيت على النار.

لا بد لأمريكا أن تصحو، وأن تستيقظ يومًا ما، مرة واحدة في دهرها تُحاسب نفسها وتراجع نفسها.

أمريكا ليست إلهًا، إنها بشر من البشر، وقد جرّبت هذا، وأنها ليست مستعصية على أن تُضرب ولا على أن تُغزى، رغم ترسانتها العسكرية وأسلحتها النووية وما تملكه من قُوى اقتصادية وما ... وما ... رغم هذا ضُربت أمريكا.

وسيظل العالم يفرخ أناسًا مثل «بن لادن» إذا ظلّت أمريكا على حالها، وظلّت القوة الباطشة الطاغية هي التي تتحكم وليس الحق والمنطق.

حرب ضد الإسلام لا الإرهاب:

إننا نحذر من خطورة هذه الحرب التي سماها «جورج بوش» الرئيس الأمريكي: حربًا صليبية! قال: إننا نخوض حربًا أو حملة صليبية! اعتذر بعضهم عنه وقال: إنها زلّة لسان ولا يقصدها! ونقول: إن زلات اللسان كثيرًا ما تكون تعبيرًا عما تكنّه الصدور وتخفيه، وقد قال سيدنا علي ررر: غش القلوب يظهر على صفحات الوجوه وفلتات الألسن. هذه الفلتات هي التي تُعبر عن الغش المكتوم، والقرآن الكريم يتحدث عن المنافقين فيقول للنبي صلى الله عليه وسلم: **{وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ...}** [محمد: 30]، عرفنا «جورج بوش» من لحن قوله، ومن فلتات

لسانه، وهذا ليس بالأمر الجديد.

كتب كاتبوهم وفلاسفتهم: أن الإسلام هو العدو المرتقب! بعد سقوط الاتحاد السوفيتي - دولة الشر كما كان يسميها «ريجان» - أرادوا أن يكون لهم عدو جديد، يعبئون المشاعر ويعبئون القوى ضد هذا العدو، فمن يكون هذا العدو؟ لقد رشحوا الإسلام ليكون هو العدو القادم! ولم يفعل لهم الإسلام شيئًا ولكنهم فعلوا هذا! إنها بقايا من الأحقاد القديمة والعقد التي تحكم الغربيين، رغم أن الأمريكان لم يشاركوا في الحروب الصليبية ولكن كثير منهم أوربيو الأصل فتحكمهم هذه العقد.

رشحوا الإسلام ليكون هو العدو وقالوا: إن الخطر الأحمر - الشيوعي والروسي - قد زال بسقوط الاتحاد السوفيتي، والخطر الأصفر الصيني أصبحنا نتقارب معه، ولكن بقى خطر واحد هو: الخطر الأخضر! الخطر الإسلامي.

وهناك من كتابهم وأساتذة جامعاتهم ومفكريهم من قاوم هذه الفكرة وقال: إنها أسطورة وليست حقيقة، الإسلام ليس خطرًا.

وإذا كانوا يعتبرون الإسلام في حالة ضعفه ووهن أهله وتفرق حكامه، إذا كان الإسلام خطرًا في هذه الحالة، فما بالكم لو قويت شوكة الإسلام وأصبح للإسلام قوة في هذه الأرض؟!

الإسلام ليس خطرًا على أحد:

الواقع أن الإسلام ليس خطرًا، الإسلام رحمة الله للعالمين، الإسلام هو العدالة الإلهية، الإسلام هو الذي جاء بالعدل والميزان ليقوم الناس بالقسط.

ولكن الإسلام خطر على الإلحاد ... خطر على الاستعباد ... خطر على الفساد ... على الإباحية ... خطر على هذه الأشياء.

كتب كاتبهم المعروف «هانتنغتون»[(84)] كتابه المسمى «صراع الحضارات» أو «صدام الحضارات»، وضكر أن هناك ثمانية حضارات في العالم، وهذه الحضارات يمكن التفاهم معها ما عدا حضارتين خطيرتين: حضارة الصين ويسميها الحضارة «الكونفشيوسية» والحضارة الإسلامية. وذكر أن الحضارة «الكونفشيوسية» ممكن التقارب معها، الخطر يكمن في الحضارة الإسلامية! الكلام كله يتجه إلى الحضارة الإسلامية، كل هذه تغطية لما في الأنفس.

الإسلام إذن هو المقصود ... هو الخطر الذي يجب أن تُعبأ له القوى ... هو الذي يجب أن توجه له الحر بالصليبية.

ونقول لهؤلاء: إن الحرب الصليبية القديمة انتصرت في أول أمرها، ثم دُحرت نهائيًا وأخرجت من المنطقة مهزومة مدحورة لم تحقق لها هدفًا، والحرب الصليبية الجديدة لن تكون أحسن حظًا من الحرب الصليبية القديمة.

إننا ننصح الأمريكان بدل أن يحاربوا العالم الإسلامي. ويتخذوا من الإسلام عدوًّا، ننصحهم أن يقيموا الصلات الحسنة من المسلمين، بأن يتخلوا عن ظلمهم وعدوانهم وعن تحيزهم لهذه الدولة المعتدية الصهيونية، وأن

---

(84) هو «صمويل هانتنغتون» أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفارد الشهيرة وأحد أساتذة الدراسات الاستراتيجية القريبين من صناع القرار، بالإضافة إلى أنه يهودي. انظر: «المسلمون والعولمة» للدكتور القرضاوي ط. دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة (ص110).

يقفوا موقف الحق والعدل.

إن أمريكا بلد غني، آتاه الله من الخيرات والثروات ما لم يؤت غيره. كان «ماوتس تونغ» الزعيم الصيني الشهير يقول: إنه يجب إعادة توزيع السكان في العالم، فليس من العدل أن تكون أمريكا وكندا تستمتعان بقارة كاملة تكفي لأضعافها من الملايين، وأن يعيش الصينيون - ألف مليون أو أكثر - في هذه البقعة المحدودة من العالم! أمريكا تتمتع بهذه الخيرات ... كل شيء واسع كل شيء كبير، ما أغناها عن أن تتدخل في شئون العالم، وأن تتمتع بهذا الجبروت: **{أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ 128 وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ 129 وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ}** [الشعراء: 128 - 130]، **{أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ 6 إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ 7 ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ 8 وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ 9 وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ 10 ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ 11 فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ 12 فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ 12 إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ}** [الفجر: 6 - 14].

الأمم التي طغت وأفسدت لم تسلم من عقاب القدر، لم تسلم من عقوبة السماء، كان ربك لها بالمرصاد. مهما بلغت من العُتُو ومهما بلغت من الكبرياء فإن الله أكبر منها وأقوى: **{أَوَ لَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ}** [فصلت: 15].

من الخير لأمريكا أن تصادق العالم الإسلامي وتصادق العالم كله، بدل أن تجعل نفسها سيدة العالم وقائدة العالم. وإذا رضيت أن تكون قائدة العالم، فقيادة العالم لها شروط ولها أوصاف: أن تقود العالم بالعدل والإحسان لا بالظلم والعدوان. القيادة العالمية الحقة لا بد أن تؤدي أمانتها وإلا تعرضت لعقاب الله تتت.

يا أيها الإخوة المسلمون: إننا ننكر ما حدث في «نيو يورك» وما حدث في «واشنطن»، لأنه نال أناسًا برآء لا ذنب لهم، ومن هؤلاء البرآء: مسلمون وعرب وأناس آخرون. قال لي بعض الإخوة في أمريكا: إن في مركز التجارة العالمي أكثر من ألفي مسلم، وكان لهم مكان اتخذوه مسجدًا يصلون فيه الجمعة، يحضر فيه أكثر من ألف وخمسمائة مصل. فهناك مسلمون في هذه الديار، ولذلك نحن ننكر هذا.

ولكن ننكر أشد الإنكار أن تحاول أمريكا أن تتخذ من هذا الأمر تكأة لتضرب المسلمين، وتضرب المنظمات الدعوية والجهادية في العالم، باسم محاربة «الإرهاب»!

من هو الإرهابي؟ وما هو الإرهاب؟

إن هناك كثيرًا من الأنواع التي يسمونها إرهابًا ليست إرهابًا. كيف يُعتبر حزب الله إرهابيًا، وهو يدافع عن أرضه ويقاتل عن حرماته ومقدساته؟! كيف يُعتبر الذين يدافعون عن ديارهم، ويدافعون عن استقلالها وسيادتها وحرماتها، كيف يعتبر هؤلاء إرهابيين؟!

إننا لا نستطيع أن نترك لأمريكا أن تحدد «الإرهابي» على هواها. بل نحن نطالبها إذا كانت تريد العدل حقًا أن تُشرك في التحقيقات التي تجرى غير الأمريكيين، أن تُشرك نفرًا دوليين ومسلمين ومن كل الفئات، لأننا لا نطمئن إلى عدالة تحقيقها، إنها تسمي الحرب التي تشنها: حرب العدالة المطلقة ... العدالة الأبدية!! وهل تملكون أنتم العدالة المطلقة؟ من ملككم هذا بحيث تعتبرون حروبكم عدالة مطلقة؟ إنها خالية من العدالة إنها عدالة

فرعونية: {إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا} [القصص: 4].

ولذلك نطالبهم - إذا كانوا يريدون العدل حقًا - أن يُشركوا أناسًا في التحقيق لنطمئن على سير التحقيق، وإذا ثبت إدانة «بن لادن» وغيره فيجب أن يمثل أمام محكمة دولية وفيها قضاة مسلمون، فنحن لا نمانع ذلك. ولكن أين الدليل؟ أين البينة؟ إننا لا نجد أي دليل ولا أي بينة، إلا دعاوي عريضة، تبلغ عنان السماء، وتشق الأجواء، وليس وراءها شيء.

إننا نريد العدل، ونريد الحق، ولا نريد لأحد أن يظلم، ومن الذين يظلمون الآن في أمريكا وأوروبا إخوتنا المسلمون والعرب هناك، فقد أصابهم ما أصابهم وقُتل منهم من قُتل، وضُرب منهم من ضُرب، واعتُدي على مساجدهم وعلى مراكزهم الإسلامية وعلى مدارسهم، وأصبح الكثيرون منهم يتخوفون أن يخرجوا من بيوتهم، حتى النساء المسلمات أصبحن يتحرجن ويتخوفن أن يخرجن إلى الطريق، أصبحت المسلمة تخاف أن تخرج وهي لابسة حجابها فتتعرض أقل ما تتعرض له: الإهانة والبصق عليها والشتيمة وغير ذلك، وقد يعتدي عليها بعض الجهلة والسفهاء.

على أمريكا أن تحذر من الظلم:

ما ذنب هؤلاء المسلمين؟ إنهم جزء من المجتمع الأمريكي، إنهم يعملون فيه بجد وإخلاص، باعتبارهم مواطنين. وبعضهم وُلدوا في أمريكا، وبعضهم أمريكيون أصليون. هناك سبعة ملايين - أو أكثر من سبعة ملايين - من هؤلاء في أمريكا، وهناك عشرات الملايين في أوروبا. فكيف يُنظر إلى هؤلاء أنهم معتدون؟ كيف يُعاقب الإنسان بذنب غيره وبلا تحر ولا تدقيق؟

إننا نحذ من هذه المعاملة، ونحذر أمريكا أن تستجيب لعواطف الشارع الهائج في هذه الفترة لتضرب ضربتها لإرضاء هذا الشارع، وليس هذا شأن القيادة المسئولة، ليس هذا شأن من يريد أن يقود العالم وأن يكون القطب الأوحد في العالم: أن يتخذ القوة وحدها ذريعة. القوة لا يمكن وحدها أن تنصر حقًا. إنما ينتصر الحق بتأييد الشعوب وتأييد الجماهير التي تنشد العدل، وتتحرى العدل، وتحب الحق، وتجري وراءه، وترقب من أجله.

هذا هو الذي ينصر القضايا العادلة.

تحذيرنا لأمريكا أن تجري وراء أهوائها وشهوات الاستعلاء عندها لتضرب شعوبًا بريئة فيتجمع العالم الإسلامي كله ضدها. قد يخنع كثير من الحكام لبطش أمريكا وتهديدها، ولكن الشعوب ... ولكن الجماهير ... ولكن الشارع لن يخضع، لن تخيفه أمريكا، لن ترهبه الترسانة العسكرية، لن تخيفه الأسلحة النووية، لن تهدده القوة الاقتصادية، لأنه رضي بالله ربًا وكان مع الله فكان الله معه: **{إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ}** [آل عمران: 160].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجيب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

لقد قرر علماء المسلمين من جميع مذاهبهم أنه إذا اعتدى على بلد مسلم بغير حق فيجب على أهلها أن يقاوموا عن بكرة أبيهم، فرض عين عليهم أن

يقاوموا، وواجب على المسلمين في أنحاء العالم أن يساعدوهم ويساندوهم بكل ما يحتاجون إليه من المال والسلاح والرجال، لأن المسلمين أمة واحدة يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم، ولا يجوز لمسلم أن يُفرّط في أخيه أو يسلمه ويخذله ويتركه لعدوه يفترسه وهو يتفرج عليه.

نسأل الله تت أن يفقهنا في ديننا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا.

اللهم أكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا.

اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام، اللهم رُد عنا كيدهم، وفُل حدهم، وأدل دولتهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلًا على أحد من عبادك المؤمنين. اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم، اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم. اللهم أنزل بهم بأسك الذي لا يرد عن القوم المجرمين. اللهم زلزل أقدامهم، ونكس أعلامهم، وأذهب ريحهم، ولا تدع لهم سلطانًا على أحد من عبادك المسلمين.

{... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147].

{... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ} [الحشر: 10].

اللهم اجعل هذا البلد آمنًا مطمئنًا، سخاء رخاء، وسائر بلاد المسلمين.

اللهم آمين، وصل اللهم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصبحه

أجمعين.

{ ... وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

* * *

(7)
القمة الإسلامية المسيحية الأولى في روما حول الإرهاب وأسبابه[85]

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

المراد من الحوار الإسلامي المسيحي:

في الأسبوع الماضي (أكتوبر 2001م) دُعيت إلى المشاركة في مؤتمر للحوار الإسلامي المسيحي، عُقد في مدينة «روما» عاصمة إيطاليا. وترددت في أول الأمر أن أستجيب لهذه الدعوة، ولكن بعد أن استخرت الله تعالى واستشرت العقلاء من حولي، قبلت الدعوة، ولأول مرة أشارك في هذا النوع من الحوار.

وكان المقصود من هذا الحوار أن لا يكون هناك مواجهة بين الإسلام والنصرانية، وأن ما يجري الآن ليس صراعًا بين الإسلام من جانب والنصرانية من جانب آخر. وقلنا لهم: نحن نرحب بالحوار ... الحوار بين الإسلام وبين النصرانية، لأننا نحن المسلمين مأمورون بالحوار[86].

---

(85) ألقيت في جامع عمر بن الخطاب بالدوحة في 25 رجب 1422هـ الموافق 12 أكتوبر 2001م.

(86) الحوار الذي ندعو إليه ونؤمن به له أسس وضوابط، راجع هذه الأسس والضوابط في كتابنا: «ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق» (ص 52) طبعة دار الشروق 2000م.

الحوار يسميه القرآن: الجدال، أو الجدال بالتي هي أحسن، فهو منهج من مناهج الدعوة في القرآن: {ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ} [النحل: 125]. الحكمة والموعظة الحسنة مع الموافقين، والجدال بالتي هي أحسن مع المخالفين وخصوصًا مع أهل الكتاب. الله تعالى يقول: {وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ} [العنكبوت: 46] أي اذكروا القواسم المشتركة بينكم وبينهم. هناك نقاط تمايز واختلاف ونقاط لقاء واشتراك، في أثناء هذا الحوار والجدال بالتي هي أحسن: اذكروا نقاط الالتقاء والاشتراك، حتى يسهل التقريب بين الفريقين.

هذا منطق قرآني في التقريب بين الناس، حتى إن القرآن حينما جادل المشركين يقول: {قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ 24 قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ} [سبأ: 24، 25]، وكان مقتضى المقابلة أن يقول: ولا نسأل عما تجرمون، ولكن للتلطف بهم وإيناسهم والرفق بهم لم يشأ أن ينسب الإجرام إليهم صراحة وقال: {وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ}.

مجالات مشتركة للقاء:

فعلى هذا المنطق التقينا بالقوم، في مؤتمر مشترك، أطلقوا عليه «القمة الإسلامية المسيحية الأولى» وقلنا: إن هناك مجالات يمكن أن يشترك فيها الدينان وأهل الدينين معًا:

هناك الوقوف ضد الإلحاد ودعاة الإلحاد والجحود بالله تثبت، الذين لا

يؤمنون بالله، ولا يؤمنون بالآخرة، ولا يؤمنون بالنبوات، ولا يؤمنون بالقيم الأخلاقية، ولا يؤمنون بالتعبد لله تعالى، هؤلاء يجب أن نقف جميعًا جبهة متراصة في وجوههم.

وهناك دعاة الإباحية الذين يريدون الحرية الجنسية المطلقة، ويبيحون الشذوذ الجنسي، ويقيمون أندية للعراة، ويبيحون زواج الرجال بالرجال والنساء بالنساء، إلى آخر هؤلاء، فيجب أن نقف معًا ضد هؤلاء.

كما يجب أن نقف جميعًا ضد المظالم التي تقع في الأرض، مثل المظالم التي تقع على الشعب الفلسطيني، الذي يعاني ما يعاني منذ سنين طويلة من تجبر الكيان الصهيوني على هذا الشعب الأعزل المستضعف في الأرض، والذي بذل من دمائه وبذل من نفسه ومن معاناته الكثير والكثير.

هناك مجالات يمكن أن نشترك فيها.

ولقد أسمعنا القوم كلمتنا واضحة صريحة في هذا الموقف المهم من تاريخ البشرية.

ننكر الإرهاب:

قلنا لهم: نحن ضد الإرهاب، ونحن أنكرنا من أول يوم حوادث التفجيرات التي وقعت في «نيو يورك» و«واشنطن». ولكن من المهم جدًا أن نحدد: ما هو الإرهاب؟ ولا نترك الأمور يختلط بعضها ببعض، وهذا أمر في غاية الأهمية.

إن أمريكا تريد أن تترك مسألة الإرهاب عائمة غائمة، مائعة رجراجة تفسر الإرهاب كما تشاء لتدرج ضمن الإرهابيين من لا يمكن أن يكونوا من

الإرهابيين. وقد رأيناها أدخلت في المنظمات والشخصيات السبعة والعشرين التي ذكرتها: «حركة المجاهدين الكشميريين»، وهي حركة مقاومة مشروعة، حركة من أبناء كشمير تدافع عن أرضها، وعن مقدساتها، وعن حرياتها، وعن حقها في تقرير مصيرها، اعتبرتهم أمريكا من الإرهابيين!

هناك جمعية «الوفاء» وهي جمعية خيرية إغاثية إنسانية تشتغل بحفر الآبار وبناء المساجد والمدارس وهذه الأشياء، ولا علاقة لها بالسياسة، أيضًا صنفتها ضمن المنظمات الإرهابية!

وفي التقارير السنوية لأمريكا تجعل جماعة «حماس» وجماعة «الجهاد الإسلامي» و«حزب الله» من المصنفين في مربع الإرهاب! والجماعات الموجودة في سوريا من الفصائل الفلسطينية تجعلها من الإرهاب، وهكذا، فهذا أمر مرفوض.

معنى الإرهاب:

لا بد أن نحدد: ما هو الإرهاب؟

الإرهابي هو الذي يقتل الناس البرآء بغير حق، ولا يميز بين بريء ومسيء، ويستخدم المدنيين في تحقيق أغراضه.

الإرهاب الذي ننكره:

أنا منذ سنين طويلة، منذ خطفت الطائرة الكويتية وقتل أحد ركابها، ورمي من فوق كما ترمى الأحجار، كأنه لا بشر ولا إنسان له كرامة، وهُشّم وجهه ورأسه! منذ ذلك الحين أصدرت فتوى بتحريم خطف الطائرات واعتبار ذلك

عملًا إرهابيًا وعملًا مُجرمًا ومُحرمًا، ولا يجوز[87]، لأنه: ما ذنب الركاب؟ قد تكون أنت، وقد أكون أنا، وقد يكون ابني أو ابنك، أو أخي أو أخوك، قد يكون هؤلاء أحد هؤلاء الركاب. ما ذنبنا حتى تخوف بنا حاكمًا، أو تخوف بنا حكومة، أو تهدد بنا آخرين، أو تطلب بنا أشياء وتعرضنا للخطر؟

وحينما خطف «أبو ساف» في جنوب الفلبين بعض الرهائن من الغربيين ومن الفلبينيين، وهدد بهم الحكومة الفلبينية: إما أن تدفعوا كذا وإما أن أقتل هؤلاء الرهائن، حرمت هذا، وأنكرت هذا، وذكرت على هذا المنبر هذا الأمر.

لا يجوز أن يستخدم المدنيون أدوات للتأثير على الآخرين أو لتهديدهم.

ولذلك لا نجيز أن تستخدم الطائرات المدنية لتكون أدوات لتهديد الآخرين. ما ذنبي أنا إذا كنت راكبًا هذه الطيارة وأنت تريد أن تحقق هدفًا ما؟ تقتلني وأنا لم أفعل شيئًا حتى تقتلني؟

الذين كانوا يركبون هذه الطائرات الأربع قطعًا أناس لا ذنب لهم، لا ناقة لهم ولا جمل، ولا عنزة ولا حَمَل، فيما يجري في أمريكا. ما ذنبهم حتى تضرب بهم مركز التجارة العالمي؟ هذا لا يجوز.

والذين في مركز التجارة العالمي هم أناس أيضًا مدنيون برآء وبعضهم مسلمون. في مركز التجارة العالمي حوالي ألفين وخمسمائة مسلم، وكان يجتمع منهم في كل جمعة - كما قال لي بعض الإخوة - حوالي ألف

---

(87) انظر هذه الفتوى في الجزء الثاني من «فتاوى معاصرة» للشيخ القرضاوي (ص497 - 502).

وخمسمائة يصلون الجمعة في هذا المكان، ما ذنب هؤلاء؟

أنا أريد أيها الإخوة أن تحرروا مشاعركم، وتضبطوها بأحكام الشرع. لا ينبغي أن نتجاوب مع كرهنا لأمريكا، فنجيز مثل هذه الأعمال.

هذه أعمال ندينها ونجرمها، لأن الإسلام يحرم تحريمًا قاطعًا ضرب المدنيين أو قتل المدنيين البرآء أو قتل من لا يقاتل، هذا ما أوضحناه من أول يوم، أصدرت بيانًا أنكرت فيه هذه الأعمال، والنبي صلى الله عليه وسلم حينما وجد امرأة في إحدى الغزوات مقتولة غضب وأنكر على أصحابه وقال لهم: «**ما كانت هذه لتقاتل**»[88]، يعني: لماذا تقتل؟

إذن لا يقتل إلا من يقاتل ... من يحمل السلاح، ومن يعاون حاملي السلاح على قتالهم:

الإرهاب الذي نؤيده:

فهذا هو الإرهاب. أما أن ندع الباب مفتوحًا بحيث المقاتلون الفلسطينيون الذين يدافعون عن وطنهم، وعن مقدساتهم، وعن أقصاهم، وعن حرماتهم، يدخلون في الإرهاب - وهذا ما تريده أمريكا - فنحن نرفض هذا.

لا بد أن نحدد: ما المراد بالإرهاب؟

من حق الفلسطينيين أن يدافعوا عن أنفسهم، من حقهم أن «يقنبل» الواحد منهم نفسه ... أن يجعل من نفسه قنبلة بشرية، ويفجر نفسه في أعدائه، ويقتل من يقتل، لأن هذا المجتمع مجتمع عسكري، وهم غزاة محتلون، والشرائع

---

(88) سبق تخريجه في (ص 13).

السماوية والقوانين الوضعية والأعراف الدولية والقيم الأخلاقية: تقر هذا، حتى القيم الفطرية البيولوجية ... في البيولوجيا أي جسم غريب يدخل إلى الجسم يقاومه الجسم ويرفضه. فهذا حق فطري مشروع للناس.

من حق الفلسطينيين أن يقاتلوا ولو بهذه العمليات الاستشهادية. العمليات الاستشهادية مشروعة وقد أصدرت فتوى بذلك[89]، ما دامت في أرض فلسطين، وما دامت للدفاع عن النفس وعن المقدسات وعن الحرمات.

فلا ينبغي أن يخلط الأمور بعضها ببعض.

إنهم يريدون أن نحرم هذا العمل، يريدونا أن نقول: لا يجوز للإنسان أن يجعل من نفسه قنبلة بشرية. هذا ما يملكه المستضعفون. الصهاينة يملكون ترسانة عسكرية هائلة ... ترسانة نووية، ونحن نملك هذه القنبلة البشرية، لا يستطيعون هم أن يفعلوا مثلما نفعل ... أن يضحوا بأنفسهم، ولكن نحن نستطيع أن نضحي بأنفسنا، فنحن نملك ما لا يملكون.

من المهم جدًّا أن نبين: ما هو الإرهاب؟ وأن ندين الإرهاب الحقيقي، أما الجهاد المشروع فهذا نعض عليه بالنواجذ، وننادي به، وندعوا إليه، ونؤمن بأنه أصبح فريضة، وضرورة للدفاع عن أنفسنا.

الظلم أول أسباب الإرهاب:

ثم لماذا لا يتحدثون عن أسباب الإرهاب؟ ما الذي أدى إلى الإرهاب في العالم؟ إنه الظلم، الظلم الذي يقع على البشر يدفع أناسًا إلى أن يفعلوا هذه

---

(89) نشرت في «فتاوى معاصرة» (3/503 - 510) تحت عنوان «شرعية العمليات الاستشهادية في فلسطين المحتلة».

الأعمال التي ندينها. ولكن لا بد أن ننظر في أسبابها، إذا كانوا يريدون معالجة الإرهاب حقيقة فلا بد من معالجة أسبابه.

زارني القائم بأعمال السفارة الأمريكية في مكتبي منذ حوالي أسبوعين، وقلت له: إذا كنتم تريدون مكافحة الإرهاب أزيلوا الظلم. أنتم الآن رصدتم «أربعين مليار دولار» لمكافحة الإرهاب! وتبذلون الجهود وتريدون أن تجمعوا العالم وتقيموا تحالفًا دوليًّا من أجل مكافحة الإرهاب. قلت له: لو أنكم بذلتم عشر معشار هذا من الأموال والجهود لحل القضايا المعلقة والوقوف مع الحق والعدل، لو وقفتم مع الشعب الفلسطيني الذي يعاني الصّاب[90] والعلقم طوال هذه السنين، ولم تقفوا مع الكيان الصهيوني المستكبر في الأرض بغير الحق، الذي يسفك الدماء، ويخرب الديار، ويقتل الناس الكبار والصغار والنساء والشيوخ والأطفال، لو لم تقفوا معه بالمال وبالسلاح والفيتو، ما حدث ما حدث.

الذي حدث نتيجة هذا الظلم واستمرار هذا الظلم في الأرض.

قلت له: وأنا أخشى أن تصرفوا الأربعين مليار دولار وأكثر منها، ثم لا تقضون على الإرهاب، سيظل الإرهاب قائمًا، ستكون النتيجة صفرًا، وربما كانت بالناقص. ربما قضيتم على «أسامة بن لادن»، ولكن سيظهر ألف أسامة بن لادن بعده. أسامة بن لادن ليس شخصًا، إنه ظاهرة، ظاهرة مقاومة المستضعفين في الأرض للأقوياء بأساليب لا تخطر على بالهم. المستضعفون يفكرون في وسائل لا تخطر على بال الأقوياء، وهم مستعدون أن يضحوا

---

(90) الصاب: عصارة شجر مر.

بأنفسهم.

وقلت لهذا القائم بالأعمال: إن الإرهابي شخص غير عادي، إنه ليس صاحب مصلحة، بل هو صاحب قضية، يجب أن ندرس نفسيته ونتعرف على دوافعه. هو شخص مغلق على نفسه، شديد التعصب لفكرته، هو صاحب قضية مستعد أن يضحي بنفسه من أجل قضيته، فلا يجدي أن نقاوم عنفه بعنف مضاد، لأن العنف المضاد سيزيده إصرارًا وتصبًا وتعصبًا لموقفه.

إنما تحارب الفكرة بالفكرة، نحاربه بتصحيح فكرته الخاطئة وتصحيح مفاهيم المغلوطة، وهذا عمل أهل العلم والفكر والدعوة، عليهم أن يصححوا ويقوموا ويرشدوا ويسددوا، هذا هو عملهم.

قال: إذن هي حرب أفكار، قلت: نعم هي حرب أفكار.

ثم إنكم تحاربون الإرهاب بإرهاب مثله، يستخدم نفس منطق الإرهاب! الإرهابي الذي تحاربونه يقول: أنا لا أستطع أن أحارب «بوش» ولا أن أحارب (**CIA**)، لكني أستطيع أن أحاربهم بتدمير منشآتهم. وفيها أناس مظلومون ولا ذنب لهم. أنتم تستخدمون نفس هذا الأمر، لأنكم حين تضربون أفغانستان، تضربون شعبًا أعزل ليس هو الذي صنع الإرهاب. فأنتم تستخدمون نفس المنطق، تحاربون الإرهاب بإرهاب آخر يستخدم نفس منطق الإرهاب.

والحرب الشاملة هذه لا تقضي على الإرهاب، الإرهابيون إنما يقضي عليهم كأي مجرم، أي مجرم تريد أن تقضي عليه تقدمه لمحاكمة عادلة، يأخذ

جزاءه وفق الشرائع والقوانين المرضية عند الناس، هذا ما ننادي به.

نحن نادينا بتدويل التحقيق وتدويل المحاكمة. ما معنى تدويل التحقيق؟ أمريكا تريد أن تدول الحملة التي تريدها، وهي ليست بحاجة إلى تدويلها، هي عندها من القوة ما يكفيها، ولكن تريد أن تأخذ شرعية بموافقة البلاد العربية والإسلامية على هذه الجملة. وقد ورطت البلاد العربية والإسلامية للأسف في هذا الأمر. قلت له: بدل هذا التدويل، دولوا التحقيق، بمعنى: أن يشترك في التحقيق رجال من أنحاء العالم والمشهود لهم بالعدل والكفاية والإخلاص، يطمئن الناس إليهم. ما دامت القضية تهم العالم فأشركوا العالم معكم. ثم لتكن المحاكمة دولية أيضًا وليست أمريكية فقط.

عبنا على الأمريكان أنهم منذ أول يوم بل منذ الساعات الأولى اتجهت أنظارهم إلى العرب والمسلمين، ووجهوا التهمة إليهم قبل أن تبدوا أية مؤشرات! وقد فعلوا ذلك في حادثة «أو كلاهوما سيتي» الشهيرة، ثم تبين أن العرب والمسلمين مظلومون وأن الفاعل أمريكي، وقد حوكم وأخذ حقه بالإعدام.

ما الذي يمنع أن يكون هناك أناس ربما كانوا من الأمريكيين، ربما كانوا من اليابانيين، ربما كانوا من الصرب، ربما كانوا من تجار المخدرات، ربما ... ربما ...؟ الله أعلم.

وزير الخارجية القطري قال: إنهم أطلعونا على الأدلة التي عندهم فلم نجدها حاسمة ولا جوهرية ... إشارات لا تدل على شيء.

وهم قالوا عن «بن لادن»: إنه المشتبه فيه الرئيسي! هذا الاشتباه لا يكون

جريمة، ولا يوجب عقوبة، ولا يوجب شن حرب شاملة.

وقال رئيس لجان التحقيق: إن أمامنا الآن نحو أربعين ألف خيط في دلائل وقرائن هذه القضية تحتاج إلى فرز وتصفية! أي تحتاج إلى شهور وشهور، وربما سنين حتى يمكن القول «من المتهم الحقيقي».

أربعون ألف خيط وربما تتزايد، فكيف يمكن أن نقول: إن فاعل هذا فلان وفلان، أو المجموعة الفلانية؟!

نحن نريد أن يتحقق العدل.

ثم لماذا لا تدين أمريكا الإرهاب الإسرائيلي وهو أعنف إرهاب في الوجود؟ إرهاب هذه الدولة الظالمة المستكبرة المتجبرة في الأرض لماذا لا تدينه؟ لماذا لا تقف ضده كما وقفت حينما كان الإرهاب ضدها وعندما وقع أثره عليها؟

ننشد العدل عند معالجة الإرهاب:

نحن أيها الإخوة نحب العدل، ونقف مع العدل حيثما كان، والله تعالى يقول: {**... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ...**} [المائدة: 8].

إننا لا نريد أن يكون المنطق الشائع في الأرض هو منطق القوة ... القوة التي لا تبالي بالناس. ما دام الإنسان يستطيع أن يفعل ما يشاء ولا يقول له أحد: قف مكانك أو قف عند حدك. إنه المنطق الفرعوني الذي يتجبر في الأرض ويقول للناس: {**... أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ**} [النازعات: 24]، ويقول لهم: {**... مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ**} [غافر: 29]، رؤيته هي الرؤية،

ورأيه هو الرأي، وسبيله هو الرشاد! هذا هو المنطق الفرعوني المرفوض.

ما ذنب الشعب الأفغاني المسكين الأعزل الجائع البائس المكدود المهدود، الذي حطمته الحروب أكثر من عشرين عامًا، وخرج من حرب إلى حرب؟ ما ذنب هذا الشعب لتدمر منشآته، وتحطم بُناه التحتية ليعود إلى العصر الحجري؟ كل البُنى التحتية تدمر الآن، واليوم قالوا: وقعت قنبلة على أحد المساجد وقتلت مائتين من الذين كانوا في هذا المسجد. حتى المساجد!

لماذا إذن تدينون الإرهاب الذي يقتل المدنيين وأنتم تقتلون المدنيين؟!

الشعب الأفغاني المسلم ليس له ذنب حتى يضرب بالقنابل، وليس عنده شيء. تأتي الطائرات الضخمة وترجع أحيانًا بحمولتها لأنها لا تجد ما تضربه.

ثم لماذا تُفرض حكومة على هذا الشعب؟ من الذي نصب أمريكا شرطيًّا على العالم؟ من الذي نصبها حاكمًا على العالم تعطي من تشاء وتمنع من تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء، وتؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء كأنها إله في هذه الأرض، لا يسأل عما يفعل، ولا يحاسب على ما يقول؟ لماذا هذا التأله؟ إنها تريد أن تزيل حكومة «طالبان» وتقيم مكانها حكومة أخرى، وهذا ما يرفضه العالم.

العالم يرفض أن تكون هناك قوة هي المتحكمة، تكون هي الإمبراطور الذي يتحكم في مصير البشر.

هذا أمر لا يجوز.

الشعب الأفغاني شعب حر، هو الذي يقرر مصيره بنفسه، ويختار من

يحكمه. وإذا كان هناك عشرة في المائة (10 %) من أراضي أفغانستان لا تسيطر عليها طالبان فإنها تسيطر على تسعين في المائة (90 %).

نحن نرفض التدخل في أمر هذا الشعب الأفغاني وفي تقرير مصيره، ولا يجوز إلا أن يترك لنفسه، لا يجوز أن يفرض عليه حاكم، لا يجوز أن يؤتي بملك - أكل الدهر عليه وشرب عمره ستة وثمانون عامًا لا يعي ما يقول - ليفرض على هذا الشعب من جديد، وقد انتهى من هذه الملكية ومن آثارها وقد جنت عليه ما جنت، ولولا فساد الملكية وانحرافها ما أدت إلى حكم الشيوعيين، وما أدت إلى الحروب التي صارت إلى آخر ما صار.

كنا نتمنى من المؤتمر الوزاري الإسلامي الذي عقد في الدوحة أن يقول كلمته بصراحة، وأن يرفض العدوان على أفغانستان، فهذا ما يقتضيه منطق الإسلام.

الفقه الإسلامي بجميع مذاهبه وجميع مدارسه وإجماع علمائه لا يجيز للمسلم أن يكون أداة لحرب أخيه المسلم: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ...**»[91]، «**لا ترجعوا بعد كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[92]، «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»[93]، «**إذا التقى المسلمان بسيفهما فقتل أحدهما صاحبه، فالقاتل والمقتول في النار**»[94].

فكيف نجيز أن يضرب هذا الشعب الأعزل بغير ذنب جناه؟ وقد قالوا -

---

(91) سبق تخريجه في (ص 40).
(92) رواه البخاري في العلم (121)، ومسلم في الإيمان (65) عن جرير بن عبد الله.
(93) رواه البخاري في الإيمان (48)، ومسلم في الإيمان (64) عن عبد الله بن مسعود.
(94) رواه البخاري في الديات (6875)، ومسلم في الفتن (2888) عن الأحنف بن قيس.

أي طالبان - : إنه إذا ثبت أن «بن لادن» فعل ما فعل وقدمت إلينا أدلة مقنعة مستعدون أن نقدمه للمحاكمة.

ولكن لم يثبت، وهيهات أن يثبت الآن، إلا بعد مدة قد تطول، خصوصًا أن الذين فعلوا هذه الجريمة قد ذهبوا إلى الدار الآخرة، قتلوا وذهبت الأسرار الأساسية معهم: من الذي حرضهم؟ ومن الذي دفعهم؟

وهل من حرضهم يتحمل المسئولية مثلهم؟ هل هم جنود في جيش مأمورون أن يطيعوا؟ هم يستطيعون أن يقولوا: لا. هم يتحملون نتيجة ما حدث، هم المسئولون الأساسيون. فما مسئولية غيرهم؟ هذه قضية تحتاج إلى قضاء عادل يبحثها وفق القوانين والمبادئ الشرعية والقانونية الدولية.

هذا أمر خطير.

نحن كنا نود من المؤتمر الوزاري الإسلامي أن يقول: لا. ولكن للأسف إن معظم حكوماتنا تخشى من بطش أمريكا، وتجامل أمريكا، ولا تستطيع أن تقول لها: لا. يتعاملون معها تعامل الحمل مع الذئب، أو الفأر مع القط، ويربتون على أكتافها. إنهم ينافقونها في الظاهر ويلعنونها في الباطن، هذا ما رأيناه، كل حكامنا يلعنون أمريكا في داخلهم وبين أنفسهم وبين بعضهم وبعض، ولكن إذا اجتمعوا في الملأ لم يستطيعوا أن يقولوا: لا.

أحب أن أقول أيها الإخوة:

أمريكا ليست شيئًا واحدًا، من الظلم أن نقول إن كل أمريكا شيء واحد. هناك أناس يرفضون هذه الحرب، وهناك أناس ضللهم الإعلام.

وأقول للعقلاء في أمريكا:

إنكم وإن كسبتم بعض حكام البلاد الإسلامية، خسرتم الشعب الإسلامي، خسرتم الشارع الإسلامي، خسرتم ألف مليون وثلاثمائة مليون من المسلمين في أنحاء العالم، خسرتم معظم هؤلاء. فمعظمهم هؤلاء أصبحوا يكرهونكم الآن، خصوصًا بعد ضرب أفغانستان، وقد جعلتم من «بن لادن» بطلًا، أصبح الناس يحملون صوره لا حبًّا فيه ولكن كراهية لأمريكا، فأنتم الذين جنيتم على أنفسكم. أنتم أيها الأمريكان تخسرون هذه الشعوب والجماهير الإسلامية في المشارق والمغارب.

لا، ليس هذا هو منطق العقلاء.

العقلاء ينبغي أن يكسبوا الشعوب، هذا رصيد مهم جدًا، الحكام زائلون والشعوب هي الباقية.

أمريكا تخشى الإعلام المنصف:

أمريكا على جلالة قدرها، وعلى عظمتها، على ما تملك من أسلحة نووية وغير نووية، وما تملك من قوة اقتصادية ومن جبروت إعلامي، أمريكا هذه اهتزت وتزلزلت من أجل قناة الجزيرة! قناة الجزيرة هذه القناة الصغيرة الكبيرة، التي صارت أكبر من قطر، ولم تعد قناة قطر، إنها أصبحت قناة العالم العربي والعالم الإسلامي، أمريكا تهتز وتتزلزل من أجل كلمة تقولها قناة الجزيرة! وقد ضاقت بها ذرعًا، وضاقت بها صدرًا، وشكوا إلى أمير قطر حينما زارهم، وقال لهم ظظظ: إنها قناة مستقلة وليس لنا سلطان عليها، ونحن نريد أن نقيم دولة المؤسسات ودولة ديمقراطية، ونعطيها الحق لتنظر في هذا الأمر وفق فلسفتها: «الرأي والرأي الآخر».

أمريكا تضيق بالرأي الآخر! مجرد ظهور «بن لادن» وإلقائه البيان جن جنون أمريكا! لماذا تخافون؟ إنها كلمة! «بن لادن»: سنحرم أمريكا من الأمن ... لن تحلم بالأمن ... ما دام أهل فلسطين لا يتمتعون بالأمن فستحرم أمريكا ... كأن هذه الكلمة زلزال زلزل القوم.

وأصبح الناس يتحدثون: هل تضرب أمريكا قناة الجزيرة؟ هل توجه لها ضربة عسكرية؟ يا سبحان الله! أيؤدي الجبروت في الأرض إلى هذا الحد؟! أيمنع الناس من قول كلمة؟! لا تستطيع أمريكا أن تفعل ذلك، ستثير الشارع العربي والشارع الإسلامي، والمسلمين في أنحاء العالم - من الفلبين ومن جاكرتا إلى الدار البيضاء إلى كل مكان في العالم - لو أصاب قناة الجزيرة شيء. إنها تتكلم باسم المسلمين، وباسم العرب، وباسم الأحرار والشرفاء في أنحاء العالم.

لا يجوز أبدًا أن توجه إلى هذه القناة الحرة مثل هذه الاتهامات.

إننا ننصح أمريكا أن تراجع سياستها. لو أنها تستفيد من الحوادث فالواجب أن تنبهها هذه الكوارث ... أن تعلمها هذه الحوادث. الإنسان الخير إذا أصابته مصيبة فإنها تكون درسًا له، يتأمل في حياته، ويراجع رصيده، ويراجع حساباته، ويعرف: ماذا قدم؟ وماذا أخر؟ وماذا فعل؟ وماذا ترك؟ حتى يمكنه أن يقوم مسيرته، ويرشد مصيره، هذا هو شأن الإنسان العاقل.

فإذا كانت أمريكا تستفيد من الحوادث فعليها أن تراجع سياستها الخارجية، وتنظر ما الذي جعل الكثيرين من أنحاء العالم يضمرون لها هذه الطاقة من البغض والكراهية؟ لماذا هذا؟ ينبغي أن تستفيد من هذا وتجعل ذلك مؤشرًا

لمستقبلها: كيف تخطط للتعامل مع الناس؟ أتعامل الناس بمنطق السيد الذي يريد أن يجعل الناس عبيدًا يؤمرون فيطيعون؟ أم تريد أن تعايش الناس بمنطق المساواة والبشرية؟ فنحن جميعًا أبناء لأب واحد وعبيد لرب واحد كما قال محمد صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: «**يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم**»(95).

هذا هو المنطق الذي يجب أن يسود في العلاقة بين الناس، وليس منطق التحكم ... تحكم القوي في الضعيف، ليس منطق الكراهية، منطق الكراهية هذا منطق لا وراءه إلا الدمار وإلا الخراب.

الإنسانية ينبغي أن يتعاون بعضها مع بعض، ولا ينبغي أن يتعادى بعضها مع بعض.

إن هناك كثيرًا من الأمريكان يؤمنون بفلسفة الصراع والصدام بين الحضارات، كما قال ذلك أحد كتابهم المشاهير، وخصوصًا بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية.

ونحن قلنا لهم ولا زلنا نقول: إننا نؤمن بحوار الحضارات وليس بصدام الحضارات، يمكن للحضارات أن تلتقي، وأن تتفاهم، وأن يأخذ بعضها من بعض، وأن يأخذ كل من الآخر ما تفوق فيه.

على أن هذا لا يمنعنا أن ننقد ما في الحضارات من عور، وما فيها من

---

(95) تقدم تخريجه في خطبة «وقفات مع حجاج بيت الله الحرام».

تهافت. ننقد الحضارة الغربية وما فيها من نزعة مادية أو نزعة إباحية أو نزعة استعلائية، هذا هو الذي ينبغي.

أما أن يتخذ الإسلام عدوًّا وأن يتخذ الإسلام خطرًا وأن يسمى العالم الإسلامي: «الخطر الأخضر القادم»، فهذا لا يجلب إلا الشر، ولا يجلب إلا الفساد.

نحن نمد أيدينا لنقف على كلمة سواء وندعو الآخرين جميعًا بما دعا به القرآن أهل الكتاب منذ أربعة عشر قرنًا { **...يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ...**} [آل عمران: 64].

قلوبنا مع الشعب الأفغاني، وألسنتنا تدعو للشعب الأفغاني، وايدينا مبسوطة لمساعدة الشعب الأفغاني، وجزى الله أمير قطر الذي دعا إلى إنشاء صندوق لمعاونة الشعب الأفغاني، فالشعب الأفغاني في حاجة إلى المعونة من كل جهة، لا يجد المدرسة التي يعلم فيها أبناءه، ولا يجد القوت الذي يستطيع أن يعيش عليه، ولا يجد ... ولا يجد، فمن حق هذا الشعب أن يعان.

علينا أن نعينه بأنفسنا، وأن نعينه بأموالنا، وأن نقف معه ما استطعنا، «**فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**»(96) و«**مثل المؤمن في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»(97).

---

(96) سبق تخريجه في (ص 88).

(97) سبق تخريجه في (ص 88).

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، وادعوا الله يستجب لكم.

* * *

(8)
محنة العالم الإسلامي(98)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله الواحد القهار، العزيز المتكبر الجبار، مقلب الليل والنهار، {... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ} [آل عمران: 13].

الحمد لله، منزل الكتاب، ومجرى السحاب، وسريع الحساب، وهازم الأحزاب.

الحمد لله، أمره بين الكاف والنون: {إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ 82 فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [يس: 82، 83].

يا ربنا لك الحمد، كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك. سبحانك سبحانك، ما أعظم شأنك، وما أسطع برهانك، وما أغزر إحسانك، وما أعز سلطانك. سبحانك سبحانك، تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير. سبحانك سبحانك، يا قاضي الحاجات، يا مجيب الدعوات، يا كاشف الكربات، يا رب الأرض والسموات. سبحانك سبحانك، نشكو إليك دماء سفكت، وحرمات انتهكت، ومنازل دمرت، ومساجد خربت، ومنشآت حرقت، بأي ذنب قتلت، وبأي جريرة دمرت. سبحانك، نشكو إليك ضعف قوتنا، وقلة حيلتنا، وهواننا

---

(98) ألقيت في جامع عمر بن الخطاب بالدوحة في 23 شعبان 1422هـ الموافق 9 سبتمبر 2001م.

على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربنا، إلى من تكلنا، إلى عدو ملكته أمرنا، أم إلى قريب يتجهمنا. سبحانك لا إله إلا أنت، أنت الذي تعز من تشاء وتذل من تشاء.

وأشهد أن لا إله إلا الله، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده. وأشهد أن سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا محمدًا عبد الله ورسوله. أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فمن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالًا مبينًا.

اللهم صل وسلم وبارك على هذا الرسول الكريم، وعلى آله وصحابته، وأحينا اللهم على سنته، وأمتنا على ملته، واحشرنا في زمرته، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

أمريكا تتهيأ لحرب أفغانستان:

أما بعد فيا أيها الإخوة في الإسلام ... أيها الإخوة في قطر ... أيها الإخوة في الخليج ... أيها الإخوة في مشرق العالم العربي ومغربه ... أيها الإخوة في العالم الإسلامي ... أيها الإخوة في كل مكان في هذه الأرض ... في أوروبا وأمريكا وفي الشرق الأقصى وفي آسيا وافريقيا ... أيها الإخوة المسلمون في كل مكان:

تمر اليوم الأمة الإسلامية خاصة والعالم عامة بمحنة قاسية، عرفنا أولها،

ولا ندري آخرها.

يمر العالم الآن في محنة ... في حرب كونية ... حرب شاملة تأكل اليابس والأخضر، لا تفرق بين بريء ومسيء، تأخذ الظالم والمظلوم معًا، إنها الحرب العالمية الثالثة، إنه التحالف العالمي ... التحالف العالمي الذي نشهده ليحارب فردًا واحدًا.

أرأيتم أقوى دولة في العالم وأعظم قوة عسكرية في التاريخ، تجند جنودها وجيوشها وعددها وعتادها، كل هذا من أجل فرد واحد إرهابي - كما يسمونه - ومعه مجموعة من الناس؟! أمن أجل هذا الشخص وهذه المجموعة تشعل هذه الحرب العالمية الضخمة؟! إن المجرمين عادة تتعقبهم الشرطة، تهيئ لهم الأسباب وتنصب لهم الشباك حتى تقبض عليهم. أما أن تشن حرب عالمية كونية شاملة، فما سمعنا بهذا في التاريخ!

إنه لعجب من العجب، إنها أيام من أيام الله في هذا الكون، وقد أمر الله سيدنا موسى أن يذكر قومه بأيام الله: { **... وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ...**} [إبراهيم:5]. نحن الآن في هذه الأيام العجيبة العصيبة التي نرى فيها هذه الحرب التي تدمر وتهلك الحرث والنسل، والزرع والضرع، والإنسان والحيوان، في هذا الشعب ... الشعب المسكين ... شعب أفغانستان الذي عانى ما عانى وقاسى ما قاسى أكثر من عشرين عامًا، أهلكته الحروب والصراعات، وقدم الملايين من الشهداء ومن الجرحى ومن المعوقين ومن الأطفال الميتمين والأرامل والثكالى.

ألم يكف هذا الشعب ما قدمه؟ ما ذنب هذا الشعب المسكين حتى يدمر؟

وهو مدمر بالفعل، والمدمر لا يدمر!

لقد رأيت في «قندهار» بيوتًا لا يصلح أن يسكن فيها آدميون من بقايا العصور القديمة، وآخرين يسكنون في الخيام، وآخرين لا يجدون حتى الخيام.

هذا الشعب هل يستحق كل هذه الحرب؟

إنها حرب مجنونة ... حرب مجنونة لا عقل لها، لأنها تبحث عن عدو «زئبقي» لا يمكن الإمساك به، تبحث عن إنسان في مغارة في بلد فيه أحد عشر ألف مغارة! كيف يمكن الإمساك بشخص في هذه المغارات وقد عرفها وخبرها وعايشها سنين طويلة؟!

إن الذي يلقى الثمرة المرة ويتجرعها هو الشعب الأفغاني.

إنها حرب لا عقل لها، لأنها حرب عرف أولها ولا يعرف آخرها. وهي حرب ظالمة لأنها تقتل البرآء، وتقتل المدنيين من الناس، خطأ أو عمدًا، هذا هو الواقع. وهي تدمر كل المنشآت الحيوية التي يملكها هذا الشعب وكل البني التحتية. لم هذا كله؟ لم هذا الحشد من هذه المعدات الضخمة: ب ـ 52، والقاذفات العملاقة، والتنين السحري، والقنابل العنقودية والانشطارية، إلى آخر هذه الأشياء؟ لم هذا كله؟ إنها حرب ظالمة حرب غير عاقلة.

وليت الشعب الأمريكي والإدارة الأمريكية يستفيدون من الدرس. لقد وقفنا معهم حينما ضربت منشآتهم بغير حق، أدنا هذا العمل، وقلنا: لا يجوز بحال من الأحوال استخدام الناس المدنيين في الطائرات لنضرب بها أهدافًا أخرى، هؤلاء المدنيون الذين يركبون الطائرات لم يوكلوا أحد في أن يقتلهم وأن ينتحر بهم، كذلك الذين ضربوا في مركز التجارة العالمي، هؤلاء لا ذنب

لهم، أدنا هذا العمل.

ولكنا ندين كذلك العمل المضاد لهذا العمل.

أمريكا تعالج الإرهاب بإرهاب أكبر:

إن أمريكا تستخدم نفس المنطق الذي يستخدمه الإرهابيون! الإرهابيون يقولون: أمريكا ظلمتنا ووقف ضدنا وفعلت كذا وكذا، ونحن لا نستطيع أن نصل إلى الإدارة الأمريكية فنحن نضربها في الأشياء التي توجعها. هذا ما تقوله الإدارة الإمريكية! لا تستطيع أن تمسك بـ «بن لادن» فلتضرب الشعب الأفغاني كله!

بل أمريكا أعطت نفسها الحق الآن في أن تغتال من تشاء! كل من تراه خطرًا عليها وعلى أمنها القانون قد أعطاها الحق في أن تغتاله! لا تحاكمه، لا تقدمه إلى محكمة، لا، هي تقرر، وهي التي تنفذ، هي الخصم الحكم، هي التي تملك سلطة الإدعاء، وسلطة القضاء، وسلطة التنفيذ! هكذا يفعل الإرهابيون. الإرهابيون أحدهم يجعل من نفسه مفتيًا، وقاضيًا، وشرطيًّا منفّذًا! هم يفعلون ذلك.

إذا كان الإرهابيون أفرادًا يمكن أن يقع منهم الخطأ ويقع الالتباس، خصوصًا أنهم يعملون في السراديب وفي الظلام وبعيدًا عن أعين الرقباء. فكيف تفعل ذلك الدول الكبرى؟! كيف تتخذ نفس المنطق؟! هذا ما لا يقبل بحال من الأحوال.

والعجيب أن هذه الحرب حرب غير معروفة الزمان: متى تنتهي؟ ولا معروفة المكان: ماذا بعد أفغانستان؟ ولا معروفة الأعداء: من هم الذين

سيضربون بعد ذلك؟ كل هذا مغطى ولا يعرف شيء عنه.

لا يعرف: متى تنتهي هذه الحرب؟ يقولون: إنها ستمتد مددًا طويلة غير معلومة، هكذا يريدونها.

على من يكون الدور بعد أفغانستان؟

ثم ماذا بعد أفغانستان؟ من العدو القادم؟ من الذي ستكال له الضربة؟ الله أعلم بذلك. قد تكون العراق، قد تكون سوريا ولبنان، قد تكون إيران، وقد تكون باكستان التي هي حليفة اليوم، قد لا تصبح حليفة غدًا، قد تكون أندونيسيا، قد تكون أي بلد من هذه البلدان، لا يعرف. قد تكون الصومال، يقولون: الصومال، وماذا في الصومال حتى يضرب ويدمر؟! المثل يقول: الضرب في الميت حرام، فماذا يضرب في الصومال؟ إنه لا يوجد في الصومال إلا هذه الهياكل العظيمة وبقايا الآدميين التي نراها على شاشات التلفاز ... بقايا من البشر لا يجدون القوت لا يجدون ما يمسك الرمق أو يطفئ الحرق، فكيف يقاتل هؤلاء؟ وما الذي بينهم وبين الأمريكان؟ إذا كانت أفغانستان عندها «بن لادن» فمن عند الصومال؟!

ثم العراق، ألم يكفهم هذا الحصار لمدة أحد عشر عامًا وهذا الضرب المتواصل طوال هذه السنين؟ إن الذي يهمنا العراق بلدًا، والعراق شعبًا. هم يزعمون أنهم يضربون «صدام حسين» ومن معه، والحقيقة أن الذي يضرب هو الشعب العراقي ... هو الوطن العراقي ... هو القوة العراقية ... هم الأطفال الذين يموتون من الجوع كل يوم، مليون طفل في العراق ماتوا من الحصار، ماتوا من قلة الغذاء، ومن قلة الدواء، ومن قلة الرعاية. ما ذنب

هؤلاء الأطفال؟

إلى من تتجه الحرب بعد ذلك؟ ربما تتجه إلى بعض البلاد بحكم أنهم يؤوون الإرهاب. وما الإرهاب؟ قلنا لهم: لا بد أن تحددوا مفهوم الإرهاب ومضمون الإرهاب، وهم قد رفضوا ذلك. أرادوا أن يظل هذا المفهوم عائمًا غائمًا هلاميًّا رجراجًا يفسره من يشاء بما يشاء وكيف يشاء. «مصر» طلبت من مدة طويلة أن يعقد مؤتمر دولي للإرهاب يحدد ما هو الإرهاب؟ إلى آخره، ولكنهم لم يستجيبوا لذلك، لأنهم لا يريدون أن يحددوا مفهوم الإرهاب.

الإرهاب كما تراه أمريكا:

وقد رأينا الآن قائمة الإرهابيين: المنظمات الإرهابية، والشخصيات الإرهابية، أمريكا تجرعها لنا جرعة بعد جرعة بالتدريج. ذكروا في أول الأمر حركة المجاهدين الكشميرين اعتبروها من المنظمات الإرهابية! وسكتت باكستان وسكت العالم العربي على هذا الباطل الصراح، فحركة المجاهدين الكشميريين حركة وطنية، تدافع عن حقها في الاستقلال والسيادة وفي تقرير المصير، تقاوم المحتلين لبلدها. اعتبروها إرهابية.

واليوم حصحص الحق، ووضح الصبح لذي عينين، وانكشف القناع، فإذا هم يعلنون علينا أن جماعة «حماس»، وجماعة «الجهاد الإسلامي»، وجماعة «حزب الله» في لبنان، و«الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» كل هؤلاء إرهابيون! بل قال بعض كبارهم: إن الانتفاضة ليست إلا إرهابًا! هكذا، كتائب عز الدين القسام إرهابيون، سرايا القدس إرهابيون، كتائب تحرير الأقصى إرهابيون، جنود حزب الله إرهابيون، كتائب الثأر لأبي علي

مصطفى إرهابيون! وطبعًا الدول التي تؤوى هؤلاء تعتبر إرهابية! لا مانع أن يحاربوا سوريا لأن فيها فصائل فلسطينية من فضائل المقاومة! لا مانع أن يحاربوا لبنان لأنه يؤوي حزب الله!

كل إنسان معرض لأن يكون إرهابيًّا، قد أكون أنا مصنفًا في الإرهابيين لأني أؤيد العمليات الاستشهادية داخل فلسطين، وقد تكونون أنتم إرهابين لأنكم تسمعونني، وكل من يؤيد الجهاد في فلسطين والمقاومة المشروعة يعتبر في نظرهم إرهابيًّا!

أما «شارون» وجماعة شارون الذين يسفكون الدماء كل يوم، ويقتلون الأبرياء كل يوم، ويهدمون المنازل كل يوم، ويستعملون الدبابات والصواريخ والروحيات وسائر الأسلحة، ويحتلون المدن والقرى، ويفتكون بهذا الشعب البريء الباسل، هؤلاء ليسوا إرهابيين!!

شارون وجماعته ليسوا إرهابيين! إنهم ضحايا مظلومون أما هؤلاء الصبيان الذين يقذفون بالطوب والحصى والحجارة! شارون وجماعته ضحايا هذا الظلم! ضحايا هذا العدوان الصبياني! ماذا يفعلون أمام هذا التوحش الفلسطيني؟! إنهم يقابلون الحصاة بالقنبلة والنبلة بالمروحية! هذا ما يقوله المنطق الأمريكي: هؤلاء ليسوا إرهابيين، وصبيان فلسطين أطفال الحجارة والحصى إرهابيون! أي منطق هذا يا قوم؟

ثم إنك ترى أن كل من يقدم خيرًا للإسلام والمسلمين يوضع في موضع الشبهة، إلى أن يعلن عنه أنه إرهابي. بعض الجمعيات الإسلامية الخيرية التي تقدم الخير للمسلمين، تطعم الجائعين وتداوي المرضى وتكفل اليتامى

وتؤوي المشردين وتكسو العراة، هذه الجمعيات الإسلامية الخيرية التي تقوم بعمل الخير في البلاد الإسلامية اعتبرت من الإرهابيين. جمعية «موفق» ومؤسسها الشاب الصالح رجل الخير السعودي «ياسين قاضي» قالوا عنها: إرهابية! أي إرهاب هذا؟!

وبالأمس أضافوا «بنك التقوى»، و«شركة البركات» التي تعمل أكثر ما تعمل في الصومال المسكين الذي لا يجد قوت يومه. «بنك التقوى» - وأنا رئيس هيئة الرقابة الشرعية لهذا البنك - كان أنظف البنوك الإسلامية من ناحية معاملاته، كان أحرص على الالتزام بالأحكام الشرعية ولم يدخل في أي معاملة فيها شبهة، حتى المرابحات التي يساء تطبيقها كثيرًا في البنوك الإسلامية تنزه عنها، حتى سوق السلع والمعادن لم يدخل فيها. هذا البنك شنت عليه حرب منذ عدة سنوات - شنها الإعلام الغربي والأوروبي في سويسرا وفي إيطاليا وفي غيرها، في الصحف والإذاعات والتلفازات - لا لشيء إلا لأن القائمين عليه ملتزمون بالإسلام. وخسر البنك، وكان يمكن أن يقف على قدميه، ولكن الحملات المتتالية استغلت هذا الأمر حتى سقط البنك صريعًا وحول إلى التصفية. والآن يضعونه على قائمة الإرهاب! ماذا بقى في البنك حتى تضعونه على قائمة الإرهاب؟! إنه يصفى الآن، ولا يكاد يصل إلى أهله شيء يذكر من رؤوس أموالهم. «وشركة البركات» التي تعمل في الصومال هذا البلد المسكين، ماذا عند الصوماليين؟ ليسوا من المليارديرات وليسوا من المليونيرات، إنه شعب مكافح معظمهم مغترب هنا وهناك، ويحول إلى أهله عن طريق هذه الشركة. فإذا هم يضعون هذه الشركة في قائمة الإرهاب!.

أي احتمال، مجرد شبهة، مجرد شك، الشك يفسر لمصلحتهم وليس لمصلحة المتهم، كل قوانين العالم تقول: الشك يفسر لمصلحة المتهم. ولكن هذا كان قديمًا قبل الحادي عشر من سبتمبر، أما بعد الحادي عشر من سبتمبر فقد تغيرت الدنيا، وتغيرت القوانين، وتغيرت الفلسفة.

حرب ضد الإسلام الشامل المعتدل:

إننا نريد أن نصدق الرئيس «بوش» بأن هذه الحرب ليست مواجهة مع الإسلام، ونريد أن نصدقه في أن قوله: إنها حملة صليبية كانت زلة لسان، ولكن الواقع الذي نقرأه غير ذلك، إنها تتتبع العمل الإسلامي، والعمل الخيري، والمؤسسات الإسلامية، والشخصيات الإسلامية، وحركات الجهاد الإسلامي، تتتبعها لتجعلها من الإرهاب! إذا كان هذا هو الإرهاب فإذن هذه مواجهة مع الإسلام.

ليست مواجهة مع الإسلام الخرافي ... إسلام الموالد وإسلام الطقوس والإسلام الذي يسير في ركاب الظالمين، ولكنها مواجهة مع الإسلام الحي ... الإسلام المتحرك ... الإسلام الذي يرفض الخنوع والاستسلام للصهيونية الغادرة، وللصليبية الماكرة، وللوثنية الكافرة، هذا الإسلام هو الذي يراد. وقد قال ذلك بصراحة أحد عبيد الفكر الغربي «سلمان رشدي» المرتد المعروف، قال: لماذا تقولون إنها حرب مع الإرهاب، إنها بصراحة حرب مع الإسلام السياسي.

ويقصدون بالإسلام السياسي: المسلمين الذي يطالبون بالإسلام منهجًا للحياة، ويطالبون بتحكيم شرع الله في أرض الله على عباد الله، يطالبون أن

يحكم المسلمون وفق عقيدتهم وشريعتهم.

أهذا ظلم؟ أهذا خروج على القانون؟

كل إنسان من حقه أن يكيف حياته وفق عقيدته حتى يرضي ربه، وينال مغفرته، ويدخل جنته، وينجو من ناره وعقابه. أليس هذا من حق كل إنسان؟ فلماذا لا يترك هذا للمسلمين ليحكموا أنفسهم؟

هذا اسمه «الإسلام السياسي». والإسلام السياسي هو مصدر الإرهاب في نظر «سلمان رشدي»، الذي يسانده الغرب، ويقويه ويشد أزره، ويفتح له الأبواب المغلقة.

التحريض على الإسلام:

بل إن أحد الذين حصلوا على جائزة «نوبل» هذا العام هو كاتب أديب حصل على هذه الجائزة في كتاب قال فيه: إن أخطر شيء على البشرية هو: دين الإسلام. ما دام هذا الدين قائمًا فسيظل يفرخ هذه الأنواع من العنف ومن الإرهاب ... إلخ. ولا نجاة للبشرية إلا بأن يختفي هذا الدين. حتى إن الأجناس التي دخلت في الدين من غير العرب لن تعود إلى سماحتها وإلى طيبتها إلا إذا خلعت رداء هذا الدين وعادت إلى أصلها وإلى وثنياتها القديمة!!

هذا الكاتب كوفئ بهذا الكلام فأعطى جائزة «نوبل».

وهناك القس «روبرتسون» الذي رشح مرة لرئاسة الجمهورية سنة (1988م). وهناك الأصولية المسيحية في أمريكا التي يسميها بعضهم الصهيونية المسيحية، التي تؤيد إسرائيل وتطلعات إسرائيل وأطماع إسرائيل، وترى في انتصار إسرائيل بشيرًا بالعودة الثانية للمسيح!

هذا كله يجري أيها الإخوة.

إننا نريد أن نصدق أن هذه الحرب ليست مواجهة مع الإسلام. فنحن لا نريد مواجهات بين الأديان بعضها وبعض، ولا بين الحضارات بعضها وبعض، ولقد شاركنا في الحوار الإسلامي المسيحي في روما وفي القاهرة، وقلنا: إنه لا مانع أن تتعدد الحضارات وتتعدد الأديان، نريد أن نشيع ثقافة الحوار بدل ثقافة الصراع. ولكن الفلاسفة السياسيين في أمريكا يقولون: إن الصراع حتمي بين الحضارات وخصوصًا الحضارة الإسلامية(99)! وكلمة الحضارة تخفي وراءها هذا القناع: «الدين الإسلامي». إنهم لا يريدون أن يقولوا «الدين الإسلامي» بصراحة، فهم يعبرون عنه بالحضارة الإسلامية.

وهناك كاتب آخر له كتاب يسمى: «نهاية التاريخ»(100) التاريخ انتهى إلى انتصار الرأسمالية الليبرالية الغربية على كل ثقافات العالم، وعلى كل فلسفات العالم، وعلى كل حضارات العالم.

إنها «العولمة» التي يريدون أن تشيع في العالم وتحكم العالم. والعولمة - أيها الإخوة - هو اسم جديد للاستعمار القديم. الاستعمار القديم أراد أن يلبس لبوسًا جديدًا، ويتزيا بزي جديد، ولكنه هو هو. تتغير الأسماء والعناوين وتبقى المسميات والمضامين. الاستعمار يريد أن يغزو العالم الآن تحت اسم

---

(99) وممن قال بذلك: «صمويل هانتنغتون» وذلك في كتاب «صدام الحضارات» أو «صراع الحضارات» الذي ظهر في سنة 1955م، انظر ترجمته في الخطبة السادسة: من المسئول عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر وانظر: «المسلمون والعولمة» للعلامة القرضاوي (ص110 - 115).

(100) لمؤلفه «فرنسيس فوكوياما» المفكر الأمريكي الياباني الأصل، وقد ظهر هذا الكتاب في سنة (1993م)، انظر: «المسلمون والعولمة» للقرضاوي (ص107 - 110).

العولمة.

والعولمة في حقيقتها ليست إلا «الأمركة». إنهم يريدون أمركة العالم: أن يدخل العالم تحت جناح هذا العملاق الكبير الذي أصبح متفردًا في حكم العالم.

كان الناس قديمًا يجدون في اختلاف القطبين الكبيرين رحمة، وكان السلف الصالح يقولون: اللهم اشغل الظالمين بالظالمين وأخرجنا من بينهم سالمين.

الآن انتهى الاتحاد السوفيتي، انتهى دوره ولم يعد له دور يذكر. وأصبحت أمريكا هي القطب الأوحد الذي يسيطر على العالم، يعلن الحرب متى شاء، ويعلن السلم إن شاء، ويعلن أعداءه كما يريد، يقولون: إما أن تكونوا معنا أو مع الإرهاب! يا سبحان الله، ألا يوجد أناس يقولون: لسنا معكم ولا مع الإرهاب؟ قديمًا كانوا يقولون: إما أن تكونوا معنا أو مع السوفيتي. فقامت كتلة بشرية ضخمة من آسيا وأفريقيا تسمى نفسها: كتلة عدم الانحياز، وتقول: لسنا معكم ولا مع السوفيت. لماذا لا يقوم الآن من يقول: لسنا معكم ولا مع الإرهاب؟

ولكن من يجرؤ أن يعلق الجرس في عنق القط؟ من يملك أن يقول لأسد الغابة: لا؟ من يملك أن يتصرف بحرية وسيادة؟ إنه لا يستطيع ذلك، ستسلط عليه أجهزة الإعلام تهاجمه صباح مساء، كما تهاجم الآن المملكة العربية السعودية، كما تهاجم مصر، وهؤلاء من حلفاء أمريكا، ومع هذا أمريكا تريد لهم أن يكونوا معها شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، في الحق وفي الباطل، خطوة خطوة، وكلمة كلمة. لا تريد أن يكون لهم أي موقف.

وتريد من السعودية أن تغير نظام تعليمها ونظام فلسفتها التعليمية، حتى

يكون تعليمها وفق الفلسفة الأمريكية، وفق الفلسفة الليبرالية. أما أن يكون وفق العقيدة الإسلامية ووفق الشريعة الإسلامية، فهذا التعليم لا يخرج إلا إرهابيين! هو الذي خرج «بن لادن» وأنصار «بن لادن»!.

هذا ما يريده هؤلاء.

إننا نعجب من هذا الموقف.

على أمريكا أن تعيد حساباتها:

كنا نريد من أمريكا أن تأخذ درسًا وعظة من هذه الأحداث. الإسلام يعلم الناس إذا نزلت بهم مصيبة أن يسألوا: لماذا حدثت؟ **{أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ** «من أين هذا؟» **قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ ...}** [آل عمران: 165]، **{وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ}** [الشورى: 30]. هذا هو شأن الإنسان المؤمن. إذا حدثت له أحداث أن يقول: ما الذي حدث؟ لماذا؟ لعلي أخطأت ... لعلي أذنبت، يراجع نفسه ... يراجع رصيده، ويقول: **{ ... رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ}** [الأعراف: 23]، **{ ... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ}** [آل عمران: 147]، هذا هو شأن المؤمنين.

كنا نريد من أمريكا وقد وقعت بها هذه الأحداث الهائلة أن تتخذ منها درسًا وعبرة، وأن تقف وقفة المحاسبة وتقول: لماذا يكرهني الناس في كل مكان؟ لماذا وأنا أقدم معونات هنا ومعونات هناك؟ لا بد أن هناك خللًا، لا بد أن هناك خطأ. لماذا المظاهرات ضد العولمة، وضد منظمة التجارة العالمية حيثما عقدت في أي بلد؟ لم هذا؟ كله ضد أمريكا. ست وعشرون ألف منظمة

تعارض العولمة، وتعارض مؤسسات العولمة. لماذا هذا كله؟ ألا يحق لأمريكا أن تنظر في هذا؟

أهذه الشعوب كلها على خطأ وعلى باطل؟ أيكفيها أن بعض الحكام يجاملونها ويسيرون في ركابها؟ هؤلاء لا يكفون. التعامل مع الشعوب ... مع نبض الجماهير ... مع إحساس الضعفاء ... مع الفقراء ... مع المساكين ... مع الجائعين، هو الأولى.

إن أمريكا عليها أن تتحسس آلام المستضعفين في الأرض، بدل أن تحاربهم وتحاول أن تقضي عليهم.

إن أمريكا في حاجة إلى أن تراجع نفسها.

صحيح أن أمريكا عندها من الأسلحة النووية والكيماوية والجرثومية ما تستطيع أن تؤدب به من تشاء، ولكن الضعفاء عندهم أسلحة أخرى، عندهم أسلحة لا يملكها الأمريكان. الضعفاء والمظلمون عندهم أسلحة أخرى، عندهم أسلحة لا يملكها الأمريكان. الضعفاء والمظلمون عندهم سلاح «الدعاء» يتضرعون به إلى الله، يرفعون أكفهم إلى السماء، ويقولون: يا رب يا رب، « ... **ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»**[101]. كان بعض السلف يقول: «إياك ودمعة اليتيم ودعوة المظلوم فإنهما تسريان بالليل والناس نيام».

---

(101) رواه أحمد (8043) وقال محققو «المسند»: حديث صحيح بطرقه وشواهده، والترمذي وقال: حسن، وابن ماجه، عن أبي هريرة، وأوله: **«ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حين يفطر»**. «فيض القدير» للمناوي (324/3) برقم (3520).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ ابن جبل: «**اتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»(102).

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

إننا نحذر «بوش» وإدارته من سهام القدر، ودعاء السحر، وكل أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره. نحذره من هذه السهام ... سهام الدعوات التي تصدر من ألف مليون مسلم في العالم، يوجهونها إلى الله، بأكف ضارعة، وقلوب خاشعة، وأعين من خشية الله دامعة. نحذره من هذه السهام:

سهام الليل صائبة المرامى إذا وترت بأوتار الخشوع
يصونها إلى المرمى رجال يطيلون السجود مع الركوع
إذا أوترن ثم رمين قلبًا فما يغني التحصن بالدروع

أسأل الله تتت أن يجعل يوم هذه الأمة بل يوم هذه البشرية خيرًا من أمسها، ويجعل غدها خيرًا من يومها، وأن يحسن عاقبتنا في الأمور كلها، ويجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

ادعوا الله يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد:

---

(102) متفق عليه كما في «اللؤلؤ والمرجان» (12)، رواه البخاري في الزكاة (1496)، ومسلم في الإيمان (19) عن ابن عباس.

حول منعي من دخول الإمارات:

فقد سألني كثير من الأخوة عما حدث معي في مطار أبو ظبي الدولي. بعض هؤلاء يسألون مخلصين، وبعضهم يريد أن يصطاد في الماء العكر، أو أن يعكر الماء ليصطاد، يريد أن يجعل من الحبة قبة ومن الشرارة نارًا محرقة.

وأود أن أقول لهؤلاء الإخوة مخلصين كانوا أو غير مخلصين: إن ما بيني وبين دولة الإمارات وشعب الإمارات: أعمق وأعظم وأكبر من أن يؤثر فيه حادث عارض. سواء كان سببه تصرف فردي خاطئ، أو انفعال سطحي عارض، فلا يجوز لعقلاء الناس أن يتخذوا مواقفهم بناء على تصرفات فردية خاطئة أو انفعالات سطحية طارئة.

لقد ظللت ثلاث سنوات أذهب إلى فضائية أبو ظبي في برنامج مفتوح على الهواء: أسأل وأجيب ولا حرج علي، ولم يعترض علي أحد، لم يكتشف أحد أني إرهابي، لا بعد أسبوع أو أسبوعين، ولا بعد شهر ولا شهرين، ولا بعد سنة ولا سنتين. وكان هذا بطلب وإصرار من وزير الثقافة والإعلام الشيخ عبد الله بن زايد ظظظ.

وكانت جريدة «الاتحاد» الظبيانية اليومية تنشر لي في كل يوم مقالة ... في كل يوم خلال السنوات الماضية.

وحينما عاد سمو الشيخ زايد بن سلطان رئيس الدولة، هرعت لأسلم عليه وأهنئه بالشفاء وبسلامة العودة. وقلت في حوار لي مع أحد الصحفيين: إن الشيخ زايد رجل أحب شعبه فأحبه الشعب. ونشر ذلك في الصفحة الأولى

وفي أول خبر في الصحيفة. وأنا قلت هذا مخلصًا، والرجل حينما لقيته احتفى بي احتفاء بالغًا وبود وحب غير متكلف.

وقد كرمتني - أيها الإخوة - دولة الإمارات في رمضان الماضي في إمارة دبي، في شخص الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم الفارس الشاعر الذي كرمني بكلامه أكثر مما كرمني بجائزته. وتبنى مشروعات إسلامية كبرى هو وأخوه الشيخ حمدان بن راشد: المؤسسة الإسلامية العالمية لرعاية الموهوبين، وموقع «**islam - online**» على شبكة الإنترنت.

أنا أقول هذا لا نفاقًا لأحد، فوالله ما تعودت في حياتي أن أنافق حاكمًا، فكيف أنافق وأنا في الخامسة والسبعين؟ أنا أقول هذا مخلصًا. أنا - والحمد لله - أغناني الله، ولست في حاجة إلى أحد، ولم أخف، ولم أطمع؟ مم أخاف، وفيم أطمع؟ أنا لا أخاف إلا الله، ولا أطمع إلا في مغفرته ومثوبته، وبيني وبين القبر خطوات. أنا أقول هذا بإخلاص، وأقول هنا ما قاله أبو العتاهية في أرجوزته:

حسبك مما تبتغيه القوت ... ما أكثر القوت لمن يموت!

وأنا عندي أكثر من القوت.

الإمام الشافعي ررر يقول:

أمطري لؤلؤا جبال سرنديـ ... ـب وفيضي آبار تبريز تبرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتا ... وإذا مت لست أعدم قبرا
همتي همة الملوك ونفسي ... نفس حر ترى المذلة كفرا
وإذا ما قنعت بالقوت عمري ... فلماذا أهاب زيدا وعمرا

أنا لا أهاب زيدًا، ولا عمرًا، ولا أطمع في زيد ولا عمرو. إنما أحب أن تكون صلتي بالناس صلة مودة ورحمة ومحبة. وهكذا كانت صلتي بدولة الإمارات، وبحكام دولة الإمارات: الشيخ الدكتور سلطان القاسمي الذي كرمني في أكثر من مناسبة، الشيخ حميد بن راشد النعيمي الذي كرمني في أكثر من مناسبة. وشعب الإمارات نفسه أعتبرهم أهلي وأسرتي، وإخوتي وأحبتي.

بل أنا - أيها الإخوة - لا أعادي مسلمًا قط، وإن ظلمني. هناك من هاجموني وشتموني، ولكني متصدق بعرضي عليهم، وأعرف أنهم لم يعرفوني، والله لو عرفوني ما قالوا ما قالوا، ولكني أنا مسامح في حقي، حقي الشخصي مسامح فيه. الذي لا أسامح فيه هو حق الإسلام وحق الأمة المسلمة، الذين يعتدون على هذا الدين أو على أمته، لا أملك أن أسامحهم.

أما من أساء إلي فأنا أسامح وأعفو، وأسأل الله تعالى أن يغفر للجميع، وقد قال تعالى: **{وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ}** [النور: 22]. نزل هذا في شأن أبي بكر حينما وقف من بعض أقاربه الذين أساءوا إلى ابنته عائشة ررا، فقال: بلى أحب أن يغفر الله لي.

بل أنا لا أعادي غير المسلمين إذا كانوا مسالمين لهذه الأمة. أنا لا أعادي إلا من يعادي هذه الأمة، ولا أحارب إلا من يحاربها. أما المسالمون من غير المسلمين فأنا أبرهم وأقسط إليهم كما علمنا القرآن: **{لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ}** [الممتحنة: 8]. فالذين يسالمون المسلمين أبرهم، وأقسط إليهم،

وأحب الخير لهم، وأتمنى الهداية لهم، وأتعامل معهم باعتبارهم إخوتي في البشرية. فالإسلام علمنا أن البشرية كلها أسرة تشترك في العبودية لله والبنوة لآدم، كما جاء في الحديث: «**يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم**»(103).

* * *

(103) تقدم تخريجه في خطبة «وقفات مع حجاج بيت الله الحرام».

(9)
الحرب الثقافية على المسلمين(104)

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

الحوار مع الآخر:

نحن المسلمين نؤمن بالحوار مع الآخرين، وبالتسامح مع المخالفين، هذا ما يفرضه علينا ديننا، وما يأمرنا به كتاب ربنا. فالحوار مع المخالف من منهج الدعوة الذي أمر الله به المسلمين حينما قال: **{ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ}** [النحل: 125] اكتفى في الموعظة بأن تكون حسنة لأنها مع الموافقين، ولم يرض في الجدال إلا بأن يكون بالتي هي أحسن ... بالطريقة التي هي أجود وأمثل لأنه مع المخالفين. وقال تعالى: **{وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ}** [العنكبوت: 46].

ومن أجل هذا شاركت في أكثر من مؤتمر للحوار مع النصارى، ذهبت إلى روما للحوار مع كرادلة المسيحيين في روما، وذهبت إلى القاهرة للحوار

(104) ألقيت في جامع عمر بن الخطاب بالدوحة في 27 شوال 1422هـ الموافق 11 يناير 2002م.

مع مسيحي الشرق والغرب(105). هذا ما يأمرنا به الدين، وهذا ما نؤمن به.

ولكن المشكلة أن هناك من لا يريد أن يحاورنا إلا بسنان السيف، من لا يريد أن يكلمنا إلا بلغة الحرب والقتال ... بالمدافع تدك بلادنا ... بالصواريخ ... بالسفن البحرية ... وبالطائرات الجوية. ما حيلتنا في هذه الحالة؟ ونحن هنا نقرأ قول الله تعالى: **{كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}** [البقرة: 216].

{كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ}، والقتال المكتوب علينا اليوم ليس هو أن نقاتل والقتال كره لنا، ولكن كتب علينا أن نُقاتَل نحن ولا نُقاتِل، وأن نحارَب ولا نحارِب، وأن نُضرب في عقر دارنا ولا نستطيع أن نَضرب. هذه هي الحرب المفروضة علينا اليوم.

---

(105) من المعلوم لدى الجميع أن الشيخ القرضاوي ظظظ من أبرز العلماء والمفكرين المعاصرين الداعيين إلى الحوار مع الآخرين، وفي طليعة من يرحب به، بل هو يأخذ على الحركة الإسلامية انغلاقها على نفسها، ويدعوها إلى توسع أفقها لتخاطب غيرها ويقول في كتابه «أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة» (ص 164): لقد آن للحركة الإسلامية أن تدع الانغلاق على الذات وتخرج من القوقعة، وتعتبر كل المفكرين المسلمين منها ولها، وتخوض بهم ومعهم لجة الحوار مع كل الأطراف المخالفة، بل حتى المعادية والحاقدة، فلعل الحوار العلمي الهادئ الهادف يجعل المتردد يقتنع، والخائف يطمئن، والمتوتر يهدأ، حتى الحاقد والمعادي قد يخفف من حقده وعداوته، والله تعالى يقول: **{عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةًۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** [الممتحنة: 7].

ومن أجل ذلك دعا الشيخ إلى الحوار مع العقلاء من العلمانيين، والحوار مع عقلاء الحكام، والحوار مع العقلاء في الغرب، ومع السياسيين منهم، ومع المستشرقين. انظر كتابه المشار إليه آنفا (ص 164 - 183).

إن حرب اليوم في أفغانستان، وقد تكون غدًا في الصومال، أو في العراق[106]، أو في اليمن، أو في أندونسيا، كما قالوا. هم الذين أنفسهم يقولون: هناك بلاد مرشحة لأن تضرب وتُغزى بعد أفغانستان.

حرب ثقافية على المسلمين:

والأكثر من ذلك الحرب الثقافية المفروضة علينا نحن المسلمين. هناك حرب فكرية ثقافية إعلامية مفروضة علينا نحن المسلمين.

منذ زمن، منذ سقوط الاتحاد السوفيتي والإسلام مرشح لأن يكون عدوًا للغرب! لا بد للغرب عامة ولأمريكا خاصة من أن يكون لهم عدو يعبئون القوى والمشاعر - مشاعر الكراهية - ضده.

كان الاتحاد السوفيتي - كما قال «ريجن» - يمثل دولة الشر، وقد سقطت دولة الشر. فمن هو العدو الجديد؟ هنالك كتب الكاتبون وفكر المفكرون وخطط المخططون ليجعلوا من الإسلام العدو الجديد. وأصبحوا يتحدثون عن الخطر الإسلامي ... الخطر الكامن في الإسلام، وسموه: الخطر الأخضر. قالوا: إن هذا الخطر هو الخطر الأشد، بعد أن سقط الخطر الأحمر بسقوط الاتحاد السوفيتي، وبعد أن تقاربنا مع الخطر الأصفر ... الخطر الصيني، لم يبق إلا الخطر الأخضر ... الخطر الإسلامي.

إن هذا المارد أو العملاق النائم يخافون أن يستيقظ، ربما يدافع عن أرضه، ربما يذود عن حرماته، ربما يقف في وجه الصهيونية المغتصبة، ربما يقف في وجه الصليبية المؤيدة للصهيونية.

---

(106) وقع الغزو الأمريكي الغاشم للعراق في أبريل 2003م

إسلامنا ليس خطرًا على أحد:

ووقف بعض عقلائهم وبعض منصفيهم ضد هذه الدعوة، وكتب منهم من كتب يقول: هل الخطر الإسلامي حقيقة أو أسطورة؟ وبينوا فيما كتبوه أن هذه أسطورة. لا يوجد خطر إسلامي. أين يوجد الخطر الإسلامي؟

الإسلام في الحقيقة ليس خطرًا، الإسلام رحمة الله للعباد: **{وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ}** [الأنبياء: 107] وقال صلى الله عليه وسلم: « **إنما أنا رحمة مهداة** »(107). لم يكن الإسلام خطرًا، هو خطر على الاستعمار والاستعباد، وهو خطر على المظالم والاستبداد، وهو خطر على الإباحية والفساد، ولكنه ليس خطرًا على العالم، وليس خطرًا على البشرية السوية.

ولكن هكذا أرادوا.

وكتب الكاتبون يبررون للسياسات الأميركية المرتقبة، التي يريدون أن يسيطروا بها على العالم، وقد أصبحت القطب الأوحد، والقوة المتفردة بالنفوذ والسيطرة في العالم، يريدون أن يفلسفوا لأمريكا سياساتها، كما يفعل بعض المفتين للسلاطين حينما يفرخون لهم فتاوى تبرر لهم جرائمهم، وتحلل لهم استبدادهم، ومظالمهم، بأساليب فقهية. نجد من الكتاب والمفكرين الغربيين من يفعلون ذلك مع الساسة، يبررون لهم جرائمهم، ويسوغون لهم مظالمهم، باسم الفلسفة السياسية، وباسم العلم، وباسم النظريات المختلفة.

---

(107) رواه ابن سعد في «الطبقات» (192/1) عن أبي صالح مرسلًا، والحاكم عن أبي هريرة يرفعه، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي (91/1)، وذكره الألباني في «الصحيحة» (490)

رأينا مثل ذلك فيما كتبه «فرانسيس فوكوياما» الأمريكي - الياباني الأصل - عن نهاية التاريخ. كتاب كتابًا اسمه «نهاية التاريخ»، ذكر فيه أن التاريخ قد انتهى. وتوقفت حركته بانتصار النظام الغربي على أنظمة العالم! النظام الغربي بوجهه السياسي الديمقراطي، وبوجهه الاقتصادي الرأسمالي وبوجهه الاجتماعي اللبرالي، هذا النظام الغربي قد انتصر على كل أنظمة العالم وعلى كل فلسفات العالم!

وقام كاتب آخر بعده بسنتين فكتب مقالة وسعها وعمقها تحت عنوان: «صراع الحضارات» أو «صدامات الحضارات»، وقال: أن هناك حضارات سبعًا أو ثمانيًا في العالم - عددها - ولكن قال: من هذه الحضارات حضارتان هما المخوفتان: الحضارة الكنفوشيوسية «أي حضارة الصين»، والحضارة الإسلامية، وإذا تعاونت هاتان الحضارتان كانتا خطرًا علينا.

وذكر: أن الحضارة الكنفوشيوسية يمكن التفاهم والتقارب معها، ولكن الحضارة الخطرة هي الحضارة الإسلامية.

هذا ما قاله هذا الرجل «هانتنغتون» في كتابه هذا.

والآن هؤلاء الكتاب - فوكوياما وهانتنغتون وغيرهما - يكتبون من جديد ليشعلوا المعركة بين الغرب والإسلام وبين أمريكا والإسلام، فكتب «هانتنغتون» هذا يقول: الآن نحن في عصر حروب الإسلام ... وأن حروب الإسلام بدأت! مع أن الحروب الآن ضد الإسلام، الإسلام لا يحارب، ولا يقاتل، ولكنه يقاتل ويغزي في عقر دياره.

وكتب «فوكوياما» هذا مقالة طويلة يقول: إن هناك مشكلة مع الإسلام،

مشكلة مع الأصولية الإسلامية، وسماها «الفاشية الإسلامية»، كما كانت هناك مشكلة من قبل مع الفاشية الإيطالية، والنازية الألمانية، والشيوعية الروسية والسوفيتية، يقول: مشكلة اليوم مع الفاشية الإسلامية! وتتجسد هذه المشكلة في رأيه في أنها ضد الحداثة. أي أن الإسلام إذا نُظر إليه في أصوله يجد أن التعاليم الإسلامية والقيم الإسلامية والأحكام الإسلامية ضد الحداثة.

ما الحداثة؟ الحداثة هي الأفكار الحديثة والنظريات الحديثة الجديدة التي تحكم العالم، وتقود العالم فكريًا، ثم تقوده بعد ذلك اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا.

هل الإسلام ضد الحداثة؟

إن كانت الحداثة التجديد في أساليب الحياة، فإن الإسلام يرحب بكل جديد نافع، كما ينتفع بكل قديم صالح، من أجل هذا ننتفع بنتائج العلم والتكنولوجيا العالمية وبثورات العلم المختلفة: الثورة التكنولوجية، والثورة الالكترونية والثورة البيولوجية، والثورة المعلوماتية، والثورة الاتصالاتية، ننتفع بهذا كله ولا نجد في ذلك حرجًا، بل ديننا يحتم علينا أن نأخذ بالتي هي أحسن: **{ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُ ...}** [الزمر: 18]، المؤمن يرنو إلى التي هي أحسن في كل شيء، وهذه الأشياء «بضاعتنا ردت إلينا». نحن الذين ابتكرنا المنهج العلمي التجريبي الاستقرائي، وأخذته منا الحضارة الغربية التي كانت تعتمد الفلسفة الصورية الأرسطية القديمة، باعتراف مؤرخي العلم أنفسهم: «جوستاف لوبون» و«جورج سارتون» و«درايبر» و«برفولت» وغيرهم، قالوا: إن المنهج العلمي التجريبي إنما أُخذ واقتبس من حضارة العرب والمسلمين. فهذه بضاعتنا ردت إلينا.

لذلك نرحب بكل وسائل التكنولوجيا وبكل نتائج ثورات العلم. ولكنا نستخدمها بمنطق الإسلام، وتحت مظلة الإسلام، وتحت سلطان قيم الإسلام، فنحن بها نُحيي ولا نُميت، ونبني ولا نهدم، ونعمر ولا نخرب، هذا ما أمرنا به ديننا.

فإذا كانت الحداثة هذا، فنحن نستفيد من الحداثة، ومن أجل هذا بعثنا طلابنا إلى الغرب يستفيدون من علومهم، وركبنا طائراتهم، واشترينا أسلحتهم، وإن كنا للأسف نحن المسلمين لا نزال عالة على غيرنا، والمفروض فينا بحكم ديننا أن يكون لنا قدرات ذاتية واكتفاء ذاتي بحيث لا نحتاج في أمورنا إلى غيرنا. للأسف كم قلت: إن أمة سورة «الحديد» لم تتعلم إلى اليوم صناعة الحديد، لم تتقن صناعة الحديد، ولا زلنا عالة على من سوانا. وحتى في الزراعة، بلادنا بلاد زراعية، ومع هذا نستورد نصف أقواتنا أو أكثر من غيرنا، هذا ما لا يجوز لهذه الأمة.

على كل حال، الحداثة إذا كان المقصود منها أن نأخذ بالأساليب العلمية، فنحن نأخذ بالأساليب العلمية، ونأخذ أفضل ما عند الغرب، أو هكذا يفترض فينا. إذا كان عنده نظام جيد للنواحي الصحية أو لتوزيع البريد أو رعاية الأطفال أو نحو ذلك، فنحن نأخذ بهذا ولا نرى في ذلك حرجًا.

الحداثة التي يرفضها الإسلام:

ولكن عندنا قيم تحكمنا، عندنا شريعة تضبط سلوكنا، عندنا عقيدة نستمسك بها. فهل يراد بالحداثة أن ننسلخ من عقيدتنا وأن نتحرر من شريعتنا وأن نتحلل من قيمنا؟ هل يراد بالحداثة هذا؟ كأن هذا هو ما يريده «فوكوياما»:

أننا لكي نكون حدثاء ... لكي نكون مع الحداثة لا بد أن نحلل الربا، و لا بد أن نجعل المرأة والرجل سواء في كل شيء، وأن يستمتع الرجل بالمرأة وتستمتع المرأة بالرجل! لم هذه التحريمات الكثيرة: الخلوة بالمرأة ممنوعة ... تبرج المرأة ممنوع ... الزنا حرام ... مقدمات الزنا حرام! حتى النظر بشهوة لا يجوز؟! هذه ضد الحداثة، لا يجوز أن نفرض على المرأة الحجاب: **{ ... وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ...}** [النور: 31] هذا ضد الحداثة!! ضد الحداثة أن نحرم الشذوذ الجنسي! الشذوذ الجنسي حلال عند القوم ومباح، زواج الرجال بالرجال، وزواج النساء بالنساء أمر جائز! نوادي الشواذ وجمعيات الشواذ يجب أن يسمح بها! عابوا على مصر أنها حاكمت بعض الشواذ واعتبرت الذوذ جريمة، وهذا مخالف للعصر وخالف للحداثة!

هذه هي الحداثة التي يريدونها. يريدون أن نُحل ما حرم الله، ونحرم ما أحل الله، وأن نسقط الفرائض، وأن نتخلى عن الشريعة، هذه مخلفات العصور القديمة! كيف تحكمنا شريعة نزلت منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا؟! نحن في القرن الخامس عشر، أبعد أربعة عشر قرنًا تحكمنا شريعة نزلت من ذلك الوقت؟[108] هذا ضد الحداثة!

---

(108) أجاب الشيخ عن هذه الشبهة بإفاضة وتفصيل في العديد من كتبه، مثل: «شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان»، «عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية»، «الاجتهاد في الشريعة الإسلامية»، «الخصائص العامة للإسلام» - فصل الجمع بين التطور والثبات، «بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين» - فصل إسلام متطور أم تطور مسلم؟! «الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه» - فصل صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان.

معنى هذا أن «فوكوياما» يريد أن نتخلى عن إسلامنا ... أن نتخلى عن عقائد هذا الدين، وعن قيم هذا الدين، وعن شرائع هذا الدين، لنسير في ركاب الغرب، ونسير خلف أمريكا، ونسير خلف هذه النظريات الحديثة التي أرادوا أن يفرضوها علينا في مؤتمر السكان في القاهرة في صيف (1994م)، وأن يفرضوها على العالم في مؤتمر المرأة في بكين (1995م)، ولا زالوا إلى اليوم يحاولون أن يفرضوا مواثيق، ويفرضوا وثائق معينة حول المرأة وحول الطفل ويسمون هذا «أشكال التمييز»! الإسلام يقول هناك رجل وامرأة: **{وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ}** [النجم: 45] وجعل لكل منهما خصائص جسمية وعصبية، فهذا خلق الله. هم يريدون أن يلغوا جميع أشكال التمييز، ويعتبرون أي تمييز بين الرجل والمرأة منافيًا للحداثة، ومنافيًا لتوجه الحضارة الحديثة.

هل هذا ما يريده منا السيد «فوكوياما»؟ هل يريد أن نتخلى عن ثوابتنا؟

لو كان يريد منا أشياء هامشية مما تختلف فيها الاجتهادات، وتتطور بتطور الزمان وتتغير بتغير المكان والإنسان، لقبلنا هذا. بل نحن من الدعاة إلى الاجتهاد وإلى التجديد، ولكنه يريد أن نتخلى عن الثوابت، وأي أمة تتخلى عن الثوابت فقد فنيت وذهب ريحها، لأنها لم تعد أمة. إنها أمة بثوابتها، فإذا تغيرت ثوابتها لم تعد هذه الأمة أمة.

ماذا يريد منا هؤلاء القوم؟ لا يريدون أن يبقوا على شيء فينا يريدون أن ينشئونا خلقًا آخر!

العلمانية ليست دواء ناجحًا لنا:

إنهم يشخصون داءنا في أننا ضد الحداثة، وأن دواءنا في أن نقبل العلمانية، وأن العلمانية هي التي تقبل التسامح والتعايش مع الآخرين.

ومعنى العلمانية: فصل الدين عن المجتمع وعن الحياة وعن الدولة، وأن يكون الدين شيئًا في ضمير الفرد، فإذا خرج من ضميره فليكن بين جدران المسجد. أما أن يكون الدين موجهًا للحياة ... للفرد ... للأسرة ... للمجتمع ... للحاكم والمحكوم ... للتعليم، للتربية، للثقافة، للاقتصاد، للسياسة ... فهذا ما تفرضه العلمانية.

ونحن عندنا دين يوجه الإنسان من المهد إلى اللحد، منذ يولد وإلى أن يموت. هناك أحكام تتعلق بالمولود عند ولادته وبالميت عند احتضاره وبعد موته. إنه يصحب الإنسان في رحلة حياته، ويصحب الإنسان في كل جوانب حياته ... في المسجد إذا عبد ... في الطريق إذا مشى ... في البيت إذا جلس ... في مكتبه إذا ذهب إلى المكتب ... في مدرسته ... في جامعته ... في مصنعه. إنه يعلمه ويتدخل في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه وحياته كلها، يقول له: لا تأكل كذا ولا تشرب كذا، ولا تلبس، كذا ولا تفعل كذا **{ ... وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ}** النحل: 89].

إنهم يريدون أن نتخلى عن شمول هذا الدين، وأن نجعل الدين عقيدة في الضمير فقط، لا تحكم الحياة، ولا تنظم مسيرة الفرد أو الأسرة أو المجتمع.

إن هذا أمر غير الإسلام. إنهم يريدون أن يبدلون ديننا بدين آخر.

إذا كانت المسيحية تقول: أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله، فإن ديننا

يقول: قيصر وما لقيصر لله الواحد القهار. كل شيء في هذه الدنيا لله.

{لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ...} [البقرة: 284] و **{ ... لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ...}** [يونس: 66] و **{لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...}** [المائدة: 120، الشورى: 49]. له كل ما في هذا الكون ملكًا وملكًا، فهو الملك وهو المالك، فكيف يراد منا أن نتخلى عن ثوابت ديننا، والله تعالى يقول: **{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ 162 لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ}** [الأنعام: 162، 163]. **{صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي}** لا يتصرف فيها غير الله، الله هو الآمر الناهي، هو المحلل المحرم، ولا أحد غير الله يملك ذلك: **{أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ...}** [النعام: 144]؟

نحن المسلمين متمسكون بديننا، لا نرى لنا حياة بغير هذا الدين، ولا عزة بغير هذا الدين، ولا قوة بغير هذا الدين، ولا سعادة بغير هذا الدين. فالدين هو مرجعنا، والدين هو أساس وجودنا، والدين هو مبرر بقائنا، ولن نتنازل عن ديننا بملك المشرق والمغرب، لو وضوعوا الشمس في أيماننا والقمر في شمائلنا: لن نتنازل عن ديننا ما دام فينا عرق ينبض، حتى يظهره الله أو نهلك دونه.

ونحن موعودون أن هذا الدين منصور وظاهر على الأديان كلها كما قال عز وجل: **{يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ 32 هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ}** [التوبة: 32، 33]

{يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ} كأنما حسبوا أن هذا النور الإلهي - أو الشرع الإلهي - شمعة يمكن أن تنفخ فيها فتنطفئ جذوتها، وهيهات. إنه كالشمس، ولو نفخت الآلاف والملايين في الشمس لتطفئها هل تنطفئ الشمس؟ هكذا هو نور الله. **{وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ}** وهذا الإباء الإلهي هو الذي يطمئننا على مستقبل هذا الدين.

أمريكا وتغيير مناهج التعليم في بلادنا:

إن أمريكا طلبت من عدد من البلاد الإسلامية أن تراجع مناهجها التعليمية في الثقافة الإسلامية، والدراسات الدينية، وأن تحذف منها ما لا يتفق مع العصر. وأحب أن أقول إننا قبل أن تطالبنا أمريكا، طالبنا المسلمين بهذا من عشرات السنين، كتبنا في هذا(109) وحاضرنا في هذا وخطبنا في هذا، نحن نوجه المسلمين دائمًا أن يتجددوا ويجددوا. ولكن لا يمكن أن نقبل لدولة من الدول مهما كانت عظمى أو كبرى أن تفرض علينا رؤيتها، لا يمكن أن نحول الإسلام إلى إسلام أمريكاني كما يريد الأمريكان لهذا الدين، وأن نغير في طبيعة الإسلام حتى يرضى عنا الأمريكان! أهذا معقول؟ أمة إسلامية تبلغ مليارًا وثلث مليار من البشر يراد من فئة من الناس أن تسيرها كما تريد وأن تصبغها بالصبغة التي تريدها، وهي مصبوغة بالصبغة الربانية: **{صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗ ...}** [البقرة: 138].

---

(109) انظر على سبيل المثال ما كتبه الشيخ القرضاوي ظظظ حول هذا الموضوع في كتابه «رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد» الذي نشرته مكتبة وهبة عام (1404هـ - 1984م) تحت عنوان «مراجعة المناهج» (ص 103 - 121). وانظر كذلك ما ذكره الشيخ في مذكراته «ابن القرية والكتاب» الجزء الأول، وفيه كتب الشيخ وقفات مع مراحل التعلم المختلفة التي مر بها.

نرحب بتطوير التعليم وفق تعاليمنا وقيمنا:

نحن ندعو إلى تطوير التعليم، ومناهج التعليم، ومناهج الإعلام، ومناهج الثقافة، وأن ننظر فيها بأنفسنا ... بأعيننا لا بأعين غيرنا، نفكر برؤوسنا لا برؤوس غيرنا، لسنا غنمًا تساق، لسنا قطيعًا من قطعان المواشي يسيروننا كما يريدون.

نحن أمة لها رسالتها، ولها مقوماتها، ولها خصائصها. فنحن الذين نصلح من أنفسنا، ونغير ما بأنفسنا ليغير الله ما بنا، وفق القاعدة القرآنية الصلبة: **{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ}** [الرعد: 11].

نحن مطلوب منا أن نجدد مناهجنا التعليمية، وأن نجدد أنظمتنا السياسية، وأن نجدد حياتنا الاجتماعية. ومعظم ما يطلب تجديده منا أن نرد هذه الحياة الثقافية والفكرية والدينية والسياسية والاجتماعية إلى أصول الإسلام الصحيحة، لأنه قد أفسدنا تقليد الغرب، معظم ما نشكو منه في الواقع هو تقليدنا الأعمى للغرب. التطرف العلماني الذي يريد أن يسلخنا من جلدنا، ويجعل منا أذنابًا لغيرنا، نتبعهم في الخير والشر، والحلو والمر، ما يحب وما يكره، وما يحمد وما يعاب، هذا هو التقليد الأعمى الذي نقصده.

نحن ضد التقليد، نرفض التقليد الأعمى، سواء كان تقليدًا للأقدمين من علمائنا وأئمتنا، أو كان تقليدًا للآخرين من وراء البحار. التقليد لغيرنا مرفوض، سواء كان هذا غيرٌ في المكان أو غيرٌ في الزمان. نحن نريد أن نكون أتباع أنفسنا، نفكر بعقولنا وفق أصولنا المرعية وضوابطنا الشرعية، فنحن لسنا أمة سائبة، نحن أمة منضبطة، رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا،

وبمحمد نبيًا ورسولا، وبالقرآن منهاجًا وإمامًا. فلا بد أن تفكر في هذا الإطار، فهي ليست أمة منقطعة عن مواريثها، إنها أمة ذات رسالة ... أمة ذات أصول.

أما أن يراد لهذه الأمة أن تتخلى عن ربانيتها، وعن أخلاقيتها، وعن شريعتها، وعن منهجها، وعن تراثها، وتتبع سنن الآخرين شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلته وراءهم، فهذا ما ننكره، وهذا ما نرفضه.

ومما يؤسف له أن نجد من بعض أبناء المسلمين - من أبناء جلدتنا الذين هم منا ويتكلمون بالأسنتنا - من يحطب في حبل «فوكوياما» وأمثاله، ويسير في ركابهم، ويتبنى نداءاتهم، ويريد من الأمة أن تغير كل شيء وفق ما يريدون.

هذا من العجيب العاجب، وهذا من الهوس ... هوس العصرنة، وهوس الرؤية، والتباس المفاهيم: أن نجد من أنبناء المسلمين من يدعو إلى اتباع الآخرين واقتفاء سننهم، هذا ما لا نحب أن يكون.

ما نريده من المسلمين:

وما نريده من أبناء المسلمين: أن يراجعوا أنفسهم، وأن يفكروا بعقولهم، متحررين من التأثر بهذا الغزو الماكر.

نحن أمة خالدة، أمة لها دينها، ولها ميراثها، ولها تقاليدها.

نحن ندعو إلى استلهام الماضي، ومعايشة الحاضر، واستشراف المستقبل. لا نريد أن ننقطع عن ماضينا، ولا نريد أن ننقطع عن حاضرنا، ولا عن

رؤية مستقبلنا. فلا بد أن نراعي سنن الله عز وجل. هذا ا نريده من هذه الأمة.

إننا واثقون بأن هذه الأمة لن تموت إن شاء الله. هذه الأمة قد تنام أو تنوم، ولكنها لن تموت.

نحن ـ أيها الإخوة ـ ضد الغلو، وضد التطرف، وقد كتبت كتبًا عدة ضد الغلو والتطرف. من أوائل هذا القرن نشر كتابي «الصحوة الإسلامية بين الجهود والتطرف»(110)، حللت فيه ظاهرة التطرف الديني وبينت أسبابها، وشخصت الداء ووضعت الدواء والعلاج. وفي كتب أخرى كثيرة(111) أنا ضد الغلو وضد التطرف وأدعو إلى المنهج الوسطي ... منهج الاعتدال، ولكن بعض الناس ربما يفهم منهج الاعتدال بأنه منهج التساهل والتفريط في الأصول والثوابت. لا، الأصول والثوابت نعض عليها بالنواجذ، ونستقتل دونها، ونموت في سبيلها، ولا نفرط في شيء منها صغر أو كبر.

الأمة بثوابتها، الأمة بأصولها. نحن نيسر في الفروع ونشدد في الأصول، لأن الأصول هي التي تمسك الأمة أن تفنى أو أن تذوب.

يا أيها الأخوة، إننا في حرب ثقافية علينا، ليست الحرب حربًا عسكرية فقط، ولكنها حرب ثقافية، يشنها علينا الغرب بأدوات شتى، وهو يملك من

---

(110) وهو الكتاب الثاني من سلسلة كتاب الأمة، ثم نشرته بعد ذلك مؤسسة الرسالة.

(111) ككتاب «الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد» الذي حاول فيه ترشيد الصحوة وتسديدها من خلال خطوط عشرة، أفرد كل خط منها في فصل خاص مثل: «من التعصب والانغلاق إلى التسامح والانطلاق» و «من الغلو والانحلال إلى الوسطية والاعتدال» و «من العنف والنقمة إلى الرفق والرحمة».

الأدوات ما لا نملك، حتى إن الرجل الذي أخذ جائزة «نوبل» هذا العام في الأدب إنما أخذها لأنه كتب ضد الإسلام - هو بريطاني من أصل آسيوي - وقال: الإسلام هو الذي يغير فطرة الناس، حتى إنه غير فطرة الشعوب الآسيوية وأفسدها، ولن تعود هذه الشعوب الآسيوية إلى فطرتها إلا إذا تخلت عن الإسلام، وعلينا أن نساعدها على أن تتخلص من هذا الدين المتوحش! من أجل هذا أعطوه جائزة نوبل في الأدب.

الغرب يريد منا ما لا يمكن أن نقبله.

نحن نريد أن نتفاهم مع الغرب، وأن نتحاور مع الغرب، وأن نتفاعل مع الغرب، وأن نتعايش مع الغرب، لأن الإسلام لا يفرق بين غرب وشرق، والله تعالى يقول: **{وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ...}** [البقرة: 115]. نحن لا نقول كما قال ذلك الأديب قديمًا: الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا. لا، بل نقول: يمكن أن يلتقيا. وهناك مسلمون الآن في الغرب - في أوربا وفي أمريكا - بالملايين، وهم يقومون بأنشطتهم. بعض البلاد أقرب من بعض في التسامح، هناك بلاد متسامحة مع المسلمين، وهناك بلاد متشددة مع المسلمين.

ونحن ننصح المسلمين حيثما كانوا أن يثبتوا في مواقفهم، وأن يصروا على دينهم، وأن لا يتزعزعوا بالتهديدات أو بمجرد الإشاعات. لا بد أن يثبتوا ويظلوا في أماكنهم، مستمسكين بالعروة الوثقى لا انفصام لها، داعين إلى هذا الدين القويم بالحكمة والموعظة والحوار بالتي هي أحسن، حتى يظهر الله دينه ولو كره المشركون: **{هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ}** [التوبة: 33، الصف: 9].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة:

حول الأحداث في أرض فلسطين:

ما يجري في أرض النبوات ... أرض المقدسات ... أرض الإسراء والمعراج ... أرض المسجد الأقصى، ما يجري فيها من أحداث تقشعر منها الأبدان، وتشيب لهولها الولدان، ما يجري من سفك للدماء، ما يجري من تخريب للمنازل، حتى إنهم بالأمس دمروا أكثر من سبعين منزلًا لعوائل فقيرة لا تملك شيئًا، حتى أصبح معظم الشعب الفلسطيني يعيش في الخيام.

هذا الشعب المسكين الذي قدر عليه منذ أكثر من خمسين سنة أن يعيش في المخيمات، أصبحت المخيمات والخيام تزيد يومًا عن يوم.

ماذا يجري في فلسطين؟ ماذا يجري بين السلطة والشعب؟ ماذا يجري بين السلطة وفصائل الجهاد؟

إن الذي يجري أمر خطير، والذي أريد أن أنبه عليه اليوم ـ ولا بد أن أعود إليه في الخطبة القادمة ـ هو أن شارون لا يمكن أن يرضيه شيء. مهما حاولت السلطة، ومهما حوال الرئيس عرفات وأعوانه مهما حاولوا أن يرضوا شارون فشارون لن يرضى. لن يرضى شارون إلا أن يقضي على الشعب الفلسطيني، أن يفرغ فلسطين من أهلها، أن يجبر هؤلاء الناس على أن يغادروا، أن تصبح فلسطين كلها «إسرائيل»، وهي الآن إسرائيل. ماذا

يملك الفلسطينيون؟ لا يملكون أرضًا ولا سماء، حتى إن عرفات نفسه لم يستطع أن ينتقل من مكان إلى مكان إلا إذا أذنوا له!! أي سلطة هذه؟!

وهل من أجل هذا أن نُضحي بإخواننا ونلاحقهم ونعتقلهم ونقدمهم إلى أعدائنا وأعدائهم؟ هذا أمر في غاية الخطورة. ولا بد لنا من العودة إلى الحديث عنه.

لا يمكن أن ينقذ فلسطين إلا الجهاد ... إلا المقاومة، ما أُخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، وقد أذن الله للذين ظلموا أن يقاتلوا: **{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ}** [الحج: 39]، هذه سنة من سنن الله لا يمكن أن تهمل.

* * *

(10)
ماذا قدم العرب لفلسطين خلال عام هجري مضى؟!

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

ذكريات مع العام الهجري:

حينما كنا طلابًا، كنا ننتظر مطلع العام الهجري، لنرى ماذا يقول الأدباء والشعراء حول هذا العام الهجري. وكانت بعض المجلات الأدبية والثقافية تتحفي بهذه المناسبة، وتصدر عددًا خاصًا حافلًا، يتحدث فيه عدد من الكتاب في مقالاتهم، وعدد من الشعراء في قصائدهم عن العام الهجري، وعن آلام الأمة وآمالها، على خلاف ما يركز عليه كثير من الخطباء والوعاظ حينما يستقبلون عامًا ويودعون عامًا، كل ما يهمهم: ماذا يفعل الفرد؟ وماذا عليه أن يحاسب نفسه على عام مضى؟ وهذا شيء لا بأس به، ولكن إهمال أمر الأمة هو الأمر الخطير.

كنا معنيين بأمر الأمة، وماذا قدمت وأنجزت، وماذا خسرت وضيعت. وكان الشعراء الإسلاميون هم الذين يغذون مشاعرنا في تلك الفترة. وأذكر من هؤلاء الشعراء شاعرًا كانت قصائده تنال منا كل الرضى، كان شاعرًا إسلاميًا فحلًا هو الشاعر «محمود غنيم».

في سنة من سنوات الهجرة، وفي ذكرى من ذكرياتها، وفي مطلع العام، أنشأ قصيدة ينعى فيها حال المسلمين في وقته سماها: وقفة على طلل ... على

أطلال الحضارة الإسلامية. وقف الرجل على الطلل يبكي ويرثي وينعى ويقول:

ما لي وللنجم يرعاني وأرعاه أمسى كلانا يعاف الغمض
لي فيك يا ليل آهات أرددها أواه، لو أجدت المحزون أواه
ويح العروبة كان الكون فأصبحت تتوارى في زواياه
كم صرفتنا يد كنا نصرفها وبات يملكنا شعب ملكناه
أني اتجهت إلى الإسلام في بلد تجده كالطير مقصوصًا جناحاه

هكذا وقف الرجل على الطلل، وبكى حال الأمة في تلك الأيام.

ولم تكن حال الأمة كحالنا هذه، فحالنا اليوم حال يرثى لها، حال تبكي العيون وتدمي القلوب.

الرجل بكى حال الأمة في ذلك الوقت، ولم تكن الأمة وصلت إلى ما وصلت إليه الآن، وكان كثير الحزن والأسى في شعره، حتى إنه في مرة من المرات قال:

قالوا: عجبنا ما لشعرك باكيًا في العيد ما هذا بشعر معيد!
ما حيلة العصفور قصوا ريشة ورموه في قفص وقالوا: غرد!

كيف يغرد العصفور المهيض الجناح، المقصوص الريش، المحبوس في قفص؟ هل يغرد أم ينوح؟

هذه هي حالنا أيها الإخوة.

مآسى أصابت الأمة في عامها المنصرم:

لقد ودعنا عامًا هجريًا، واستقبلنا عامًا جديدًا.

ماذا أنجزنا في ذلك العام الماضي؟ ماذا قدمت هذه الأمة من مكاسب في العام الماضي؟

أما «شارون» وعصابته فيستطيعون أن يقولوا: قد قدمنا الكثير، وأنجزنا الكثير. استطاع شارون أن يقتحم بدباباته المدن والقرى والشوارع والحارات، وأن يقتحم على الناس بيوتهم، ويدخل غرف نومهم، ويستبيح كل محرم.

شارون وعصابته استطاعوا أن يفعلوا الأفاعيل ... أن يسفكوا الدماء ... أن ينتهكوا المحرمات ... أن يخربوا المنازل ... أن يحرقوا المزارع ... أن يدمروا المساجد ... أن يدمروا المدارس ... أن لا يبقوا شيئًا، لم يكتفوا بحصار هذا الشعب ليجوع، أرادوا أن يقتلوه قتلا.

فعل شارون الكثير: استخدم الدبابات ... استخدم المدرعات والمصفحات ... استخدم الأباتشي ... استخدام الـ ف - 16 ... استخدم المروحيات ... استخدم كل شيء، ولم يبال بشيء، لم يستح من شيء، ولم يخجل من شيء، ولم يخف من أحد، فمعه السلاح الأمريكي، والمال الأمريكي، والفيتو الأمريكي. ومعه تخاذل العرب، واستخذاء العرب الذين سكتوا عما يجري.

الشيء الوحيد الذي أنجزته الأمة في العام الماضي هو: مقاومة الشعب الفلسطيني ... بسالة الشعب الفلسطيني ... بطولة الشعب الفلسطيني ... تضحيات الشعب الفلسطيني.

حيّوا هذا الشعب، حيّوا شعب فلسطين، حيّوا أبناء فلسطين، حيّوا بنات فلسطين، حيّوا أمهات فلسطين، حيّوا شيوخ فلسطين، حيّوا شباب فلسطين،

حيّوا هذا الشعب الباسل البطل، الذي جعل من الضعف قوة، وجعل من لا شيء كل شيء، لأنه ضحى بنفسه في سبيل الله، لم يبال بالموت في سبيل الله(112).

ولست أبالي حين أُقتل مسلمًا   على أي جنب كان في الله
وذلك في ذات الإله وإن يشأ   يبارك على أوصال شلو

هذا الشعب وضع رؤوسه على أكفّه، وقدّم النماذج الرائعة ... الشباب الذي يفجّرون أنفسهم ... الشباب الذين يقفون في سبيل الدبابات، وفي وجه الدبابات، وينسفون بعض الدبابات ... الشباب الذين يهاجمون المستوطنات، حتى العمليات الاستشهادية(114) تغيرت نوعيتها، أصبح هناك هجوم وأصبح هناك مقاومة، ما عاد هؤلاء الشباب يخاف هذه الدبابات ولا هذه المروحيات ولا هذه الطائرات، لقد ضحّى وصمم على أن يضحي.

هذه البطولة ... هذه المقاومة، هي وحدها الشيء الرائع الذي أُنجز في ساحة أمتنا كلها.

مواقف مخزية للعرب تجاه فلسطين:

أما ما هو موقفنا نحن العرب؟ ماذا قدمنا نحن العرب لهؤلاء الأبطال؟ ماذا قدمنا لهؤلاء الآباء الذين يرفضون أن يقبلوا التعازي في أبنائهم إذا استشهدوا؟ ماذا قدمنا للأمهات اللاتي يستقبلن استشهاد أبنائهن بالزغاريد؟

---

(112) تفاعل جمهور المسلين مع الشيخ كعادته، وتعالى أصواتهم بالتكبير.
(113) هذان البيتان للصحابي الجليل خبيب بن عدي، قالها قبل أن تصلبه قريش، لمعرفة المزيد راجع: «زاد المعاد» لابن القيم، في أحداث يوم الرجيع (219/3) طبعة الرسالة.
(114) راجع فتوانا حول مشروعية العمليات الاستشهادية «فتاوى معاصرة» (جـ 503/3).

ماذا قدمنا للأم التي تنصح ابنها وهو ذاهب ليفجر نفسه - كما نصحت الخنساء أبناءها الأربعة وهم يقاتلون في القادسية - أن يثبت في سبيل الله وأن يعلم أنه إن مات فهو حي يرزق: **{وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ}** [البقرة: 154].

ماذا قدمت أمة العرب؟ ماذا قدم قادة العرب؟ ماذا فعلوا لمساندة إخوانهم في العروبة والإسلام؟ هل قدموا شيئًا يُذكر؟ ما قيمة هذه الجامعة العربية؟ ما قيمة هذه القمم التي تُعقد؟ ما قيمة هذه الأسلحة التي تُشترى بالمليارات وتُترك حتى تصدأ؟ أين الدفاع العربي المشترك؟ أين العروبة؟ الأين الأخوة؟ أين الغيرة؟ أين الحماسة؟

إني والله لا أجد لهذا أي تبرير في تاريخ العرب، لا في جاهليتهم ولا في إسلامهم. العرب كانوا يثورون ويحمون لإنسان يستجير بهم، لو استجار بهم مستجير فإنهم مستعدون أن يدفعوا عنه بأنفسهم وأموالهم، ويرون ذلك من الشهامة العربية، والأخلاق العربية التي تأبى أن تدع من يستجير بهم دون حماية.

فكيف وإخوانكم وهم منكم وأنتم منهم ولا تقدمون لهم شيئًا؟!

الخوة عند عرب الجاهلية:

العرب في الجاهلية رأينا منهم مثل: المهلهل بن ربيعة الذي اشتهر عند الناس باسم «الزير سالم»، كان رجل شهوات في حياته ... رجل كاس وطاس وزير نساء. ولكن حينما قتل أخوه كُليب أبى إلا أن يطلّق هذه الأمور كلها، وأن يعيش لشيء واحد: أن يثأر لأخيه المقتول، وقال في ذلك قولته:

ولست بخالع درعي وسيفي إلى أن يخلع الليل النهار

ولم يخلع درعه ولا سيفه حتى أخذ بثأر أخيه، وانتقم من بني بكر.

وفي يوم من الأيام قُتل أحد كبرائهم، فقال له بعضهم: يكفيك هذا بكليب. قال: هذا يبوء بشسع نعل كليب.

هذه حميّة العرب في الجاهلية.

عمرو بن كلثوم كان عند ملك الحير «عمرو بن المنذر» أو «عمرو بن هند»، وكانت معه أمه، فأرادت أم الملك أن تستخدمها في بعض الأشياء، أمرتها أن تأتي لها ببعض الأشياء، فكبر ذلك على المرأة أم الفارس عمرو بن كلثوم، وأخبرت بذلك ابنها فثار، وقال قصيدته الشهيرة التي قالوا فيها: إنها كانت حوالي ألف بيت، وما بقى منها وما حفظه الرواة منها:

وقد علم القبائل من مَعَدّ إذا قُببٌ بأبطحها بُنينا

بأنّا المانعون إذا غضبنا وأنّا المانحون إذا رضينا

وأنا نوردُ الرايات بيضًا ونُصدرهن حمرًا قد روينا

إلى آخر ما قال:

إذا بلغ الفطام لنا صبيٌّ تخر له الجبابر ساجدينا(115)

وقامت معركة بعد ذلك بينه وبين عمرو بن هند، وقُتل عمرو بن هند ملك الحيرة، وانتهب بنو تغلب قصره وأشياءه، انتقامًا لكلمة قالتها أم الملك، اعتبروها إهانة لأم عمرو. كلمة تقوم من أجلها معركة وتحدث مقتلة.

---

(115) انظر: «شرح المعلقات» للحسين الزوزني (ص 196 وما بعدها).

هؤلاء هم العرب، لا يقبلون الذلّ.

ويقول عنترة في شعره:

لا تسقني ماء الحياة بذلّة بل فاسقني بالعز كأن الحنظل!
ماء الحياة بذلّة كجهنم وجهنّم بالعز أطيب منزل![116]

هكذا كان القوم.

نخوة عرب قريش:

وفي أول الإسلام حينما هُزمت قريش في معركة بدر الكبرى، قُتل منهم سبعون من الصناديد، وأُسر منهم سبعون، وكان أبو سفيان بن حرب لا زال مشركًا، وكان يُعتبر زعيم القوم في ذلك الوقت، خصوصًا بعد أن مات من مات من الصناديد والكبار في بدر، فآلى على نفسه أن لا يمس بدنه ماءٌ من غسل جنابة[117]، يعني أن لا يعاشر امرأته. وحرمت قريش على نفسها أن يبكي أحد بكاء نوح، يعني بكاء بأصوات وكلام، وألزمهم أن يكتموا ذلك في أنفسهم حتى لا ينفسوا عن أنفسهم، ليظل هذا الغضب مكبوتًا إلى أن يأخذوا بثأرهم.

وفي يوم من الأيام سمع بعض الناس امرأة تبكي وتصرخ ببعض الشعر، فظنوا أنهم أبيح لهم أن يبكوا وأن يشعروا وأن يعبروا عن أنفسهم، فلما خرجوا وسألوا قالوا: هذه امرأة ضل بعيرها فهي تبكي بعيرها الذي ضاع،

---

(116) انظر: «ديوان عنترة» لفاروق الطباع (ص 25 وما بعدها).

(117) ووفى أبو سفيان بنذره وخرج في مائتي راكب، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم لملاقاته، وهي غزوة السويق، للمزيد راجع «زاد المعاد» لابن القيم (169/3، 170).

فقال أحدهم في ذلك:

أتبكي أن يضل لها بعير ويمنعها عن النوم السهود
فلا تبكي على بكر ولكن على بدر تقاصرت الجدود[118]

إلى آخر ما قال.

العرب حرموا على أنفسهم النوح حتى يثأروا، وثأروا فعلًا في غزوة أُحُد، فما بالنا نحن؟

النخوة في العهد الإسلامي:

في العهد الإسلامي رأينا عمر بن عبد العزيز حينما سمع أن رجلًا مسلمًا في بلاد الروم قد أُهين، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى ملك الروم يقول له: لقد بلغني أن مسلمًا استذل عندكم وأُسر، فإذا وصلك كتابي هذا فخل سبيله، وإلا غزوتكم بجنود أولها عندك وآخرها عندي[119].

من أجل فرد استذل وأهين تجيّش الجيوش ويحمي الخلفاء.

وكلنا يعرف ا لقصة الشهيرة، قصة المرأة التي لطمت على خدها في بلاد الروم، فصاحت صيحتها التاريخية: وامعتصماه.

كل مسلمة وكل مسلم في ذلك الزمن كان يحس أن له كيانًا وأن له كرامة، وأن هناك من يُسأل عنه فقالت المرأة ملطومة الخد في بلاد الروم:

---

(118) القائل هو: الأسود بن عبد المطلب، وكان ضرير البصر، وكان قد أصيب له ثلاثة من أبنائه يوم بدر. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (198/3).

(119) انظر: «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن عبد الحكم (ص 143، 144) طبعة مكتبة وهبة.

وامعتصماه. تستنجد بالخليفة وبينها وبينه وهادٌ ونجادٌ وبُحور.

وبلغ المعتصم هذه الصيحة، فماذا قال؟ قال: لبيك أختاه ... لبيك أختاه. وجند جنوده وجيش جيوشه وحارب الروم في معركة تاريخية معروفة: معركة عمروية، التي قال فيها أبو تمام بائيته الشهيرة:

السيف أصدق إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود في متونهن جلاء الشك

أي المنطق للقوة ... للسيف لا للقلم، بيض الصفائح: السيوف، لا سود الصحائف: لا ينفع في هذا الوقت سود الصحائف ولا الكلام.

هكذا كانت أمتنا في عهد الجاهلية، وفي عهد الإسلام.

لم يعد لنا مبرر للسكوت:

فما الذي جرى؟ ما الذي جرى ونحن نرى بأعيننا؟ لو كنا لا نرى لكان لنا بعض العذر، ولكن هذه التلفازات أسقطت الأعذار وأبطلت التعلات، لأننا نشهد بأعيننا، ونسمع بآذاننا، ونرى ما يحدث لإخواننا وأخواتنا وأبنائنا وبناتنا. هل تجمد الدم في العروق؟ هل بردت هذه الدماء الساخنة فأصبحت ثلجًا؟

ماذا جرى لهذه الأمة؟ لماذا لا تهب لنجدة إخوانها؟

أعجب والله، ثم أعجب، لما يحدث اليوم من سكوت، ومن صمت، ومن استخذاء. بل أعجب ثم أعجب حين كنت أسمع أول أمس - يوم الأربعاء الماضي - إحدى الإذاعات ... إذاعة القرآن تقول: حدثت بالأمس عملية انتحارية! وقد قتل الانتحاري! يا الله، إذاعة عربية إذاعة إسلامية تقول عن

هـؤلاء الشـهداء الأبطـال: انتحـاريون! أو تسـمي العمليـة: عمليـة انتحاريـة! وتجري في ركاب إسرائيل ومن وراء إسرائيل! من هو البطل إذن، ومن هو الشهيد إذن، إذا لم يكن هؤلاء الذين أسقطوا فرض الكفاية عن الأمة؟

ولم يعد الجهاد فرض كفاية على الأمة، الجهاد فرض عين على الأمة، كل عليه أن يجاهد بما يستطيع بنفسه ... بماله ... بكلامه ... بكل ما يقدر عليه. الجهاد فرض على الأمة كلها، كل في حدود دائرته وفي حدود استطاعته.

أهؤلاء انتحاريون؟ كيف يُقال هذا؟

والله عجبت وعجبت وعجبت، ولا أدري هل هذه الإذاعة تستعمل هذه المصطلحات طوال أيامها؟ أم كان ذلك خطأ؟ لا أتابع مثل هذه الأشياء.

أين الأمة؟ أين أمة العرب وأمة الإسلام؟ يعتمدون على أمريكا راعية السلام، وعليها هي أن تحقق السلام!

أمريكا تكيل بمكيالين:

ولكن أمريكا ليست راعيًا محايدًا، إن أمريكا مع إسرائيل بالحق وبالباطل، بالعدل وبالظلم، بالصواب وبالخطأ، هي منحازة لإسرائيل.

الذين يدافعون عن أنفسهم من أبناء فلسطين، الذين يقاومون الطغيان المتجبر والجبروت الطاغي، الذين يقاومون عدوان شارون ومن مع شارون، الذين يقاومون الدبابات والطائرات، هؤلاء إرهابيون!

حماس إرهابية! الجهاد إرهابية! الجبهة الشعبية إرهابية! حزب الله إرهابي! واليوم أضافوا كتائب شهداء الأقصى وهي فصيل من فتح، ضُمّت

إلى قائمة الإرهاب! هؤلاء إرهابيون!

أما شارون وعصابته فهم يقولون: من حقهم أن يدافعوا عن أنفسهم! شارون وجماعته مدافعون، مظلومون، معتدَى عليهم! أما الفلسطينيون فهم المعتدون، وهم الظالمون، وهم الجائرون، وهم الإرهابيون، ضموا إلى قائمة الإرهاب الأمريكية! وعلى العرب والمسلمين جميعًا أن يحاربوهم، لأن المنطق: إما أن تكون معنا أو تكون مع الإرهاب! فعلى جميع العرب وعلى جميع المسلمين أن يحاربوا حماس، وأن يحاربوا الجهاد، وأن يحاربوا كتائب الأقصى، وأن يحاربوا حزب الله، لأن كلهم إرهابيون!

هذا هو منطق الأمريكان!

كنت في الشهر الماضي في بيروت، في الجلسة الافتتاحية لمؤسسة «القدس»، هذه المؤسسة العالمية التي تضم مسلمين ومسيحيين، وعربًا وعجمًا، تضم كل من يدافع عن قضية القدس وفلسطين، وقد شرفني الإخوة برئاسة مجلس أمنائها، وقلت في تلك الجلسة الافتتاحية: إذا كان كل من يدافع عن وطنه ويستميت في الدفاع عن مقدساته إرهابيًا، فأنا أول الإرهابيين. وأنا أدعو الله وأقول: اللهم إن كان هذا إرهابًا، فأحييني اللهم إرهابيًا، وأمتني إرهابيًا، واحشرني في زمرة الإرهابيين.

هل هذا هو الإرهاب؟ هذا ما تريده أمريكا.

شارون بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب، شارون حملٌ وديع!

شجاعة أهل فلسطين:

أما الفلسطينيون فهم ذئاب كاسرة، وسباع كاشرة! هؤلاء إرهابيون، أهل

عنف وأهل دماء!

الذين يدافعون عن أنفسهم، الذين يعيشون تحت وطأة الحصار هذه الشهور الطويلة، الذين يصبرون ويصابرون ويرابطون مجرمون وإرهابيون يجب أن يقاتلوا، وأن يقاتلهم العرب والمسلمين أنفسهم مع أمريكا، وإلا كانوا مع الإرهاب وعُدّوا في زمرة الإرهابيين!

إننا نشد على يد إخواننا في الانتفاضة في أرض فلسطين، نشد على أيديهم، نبارك جهادهم، نحيي صمودهم، ويستطيعون أن يفعلوا الكثير.

إن الفلسطينيين لا يهمهم ما يقدمون من شهداء، هذه طبيعتهم، وهذه طبيعة القتال: **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ...﴾** [البقرة: 216]، **﴿ ... إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ...﴾** [النساء: 104].

لن يهم الفلسطينيين ما قدموا وما يقدمون من شهداء وتضحيات، ولكن الإسرائيليين يهمهم جدًا أي واحد يسقط منهم، أي حادثة تقع لهم تهز أركانهم هزًا، تزلزلهم زلزالًا شديدًا، تجعل الآلاف يطلبون الهجرة ويفرّون في أول فرصة، لماذا أيها الإخوة؟ لأن الفلطسيني هذه أرضه فهو يتشبث بها. وقد تعلم الفلسطينيون من معارك (1948م) أنهم لن يتركوا ديارهم ولو تحولت قبورًا.

أما الإسرائيلي هذا فهو إنسان لا يتشبث بجذور الأرض، ليس له فيها جذور يتشبث بها، هو غريب، وافد، مهاجر من أوربا الشرقية أو الغربية أو أمريكا أو غيرها، فهو يشعر أنه ليس له أصول في هذه البلاد، لا تمتد جذوره إلى عروق أرضها، ولذلك لا يصعب عليه أن يتركها. فهذا هو الذي يزلزل

إسرائيل ويخيفها.

لو صبرت العرب وصبر قادة العرب على المقاومة وعلى الانتفاضة وأمدوها بعض المدد بالمال والسلاح، لاستطاعت الانتفاضة أن تؤدي دورًا كبيرًا، وأن تقلق إسرائيل وتزعج إسرائيل وتنتهي في النهاية بالنصر.

قالوا: الشجاعة صبر ساعة، { **... وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ**} [البقرة: 177].

تحول غريب في سياسة العرب:

ولكن العرب لا يصبرون، ويريدون أن يضغطوا على الفلسطينيين ليقبلوا وقف إطلاق النار.

العرب الذين كانوا شركاء في المعركة، أصبحوا اليوم وسطاء في المعركة! يتوسطون ليقنعوا الفلسطينيين بأن يوقفوا إطلاق النار، وأن يوقفوا العنف، وأن يجلسوا على مائدة المفاوضات.

الشركاء بالأمس وسطاء اليوم. أُخرجوا من المعركة. هذا أول ما كسبته إسرائيل: أنها أخرجت بعض العرب المهمين والمهمين جدًا - مثل مصر والأردن - من المعركة، وأصبح كل همهم الآن «الوساطة»، أن يكونوا وسيط خير بالصلح، { **... وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ ...**} [النساء: 128].

كيف يحدث الصلح بين اللحم والسكين ... الصلح بين الضحية والجلاد ... الصلح بين الذبيحة والجزار؟ أي صلح هذا أيها الإخوة العرب؟

يا أيها العرب لماذا لا تستعيدون ثقتكم بأنفسكم؟ لماذا لا تعيدون إلى

الجامعة العربية حيويتها وقوتها؟ لماذا لا يقف العرب وقفة الرجال الأبطال كما تنتظر منهم شعوبهم، وكما نحسه من نبض الشارع العربي في كل مكان، الذي ينتفض ويغلي غليان المرجل فوق النار؟ وقد رأينا شيئًا من هذا حينما أُتيح بعض الحرية للتعبير، رأينا الشباب في جامعات مصر في القاهرة والإسكندرية والمنصورة وطنطا وكفر الشيخ والزقازيق ... رأينا الشباب ثاروا في كل مكان، في سوريا ... في الأردن ثار هؤلاء الشباب.

نريد من قادة العرب أن يحسوا بهذا النبض ... نبض الشارع، وأن يكونوا معبرين عن حقيقة أمتهم، لا أن يعيشوا غرباء عنها.

هذا ما نريده من القمة المنتظرة في الأسبوع القادم، وأن لا تكون قمة تُضاف إلى القمم السابقة، تجتمع وتنفض، ولا تحدث شيئًا.

إن أمريكا تريد أن تسوق العرب إلى ما تريد هي، لا إلى ما يريدون هم. وهي تريد أن تتحكم في العالم. تريد من العرب أن يعطوها صكًا أو توقيعًا على بياض، أو تفويضًا مطلقًا بضرب أي بلد يريدون، خصوصًا العراق، يريدون ضرب العراق، وما سوه محور الشر: العراق وإيران وكوريا الشمالية، وحينما احتجت كوريا الجنوبية سحبوا كوريا الشمالية، وما كانوا سيفعلون شيئًا مع كوريا الشمالية، المقصود هو بلاد العرب والمسلمين، وإيران ليس وقتها الآن، ولكن الآن يريدون ضرب العراق.

هل سيعطيهم العرب هذا التوقيع على بياض؟ هل سيبصمون لهم بما يريدون، كما فعل العرب والمسلمون حينما بصموا ووقعوا وأعطوهم هذا «الكارت» المُوقّع بضرب أفغانستان؟ هل يفعل العرب هذا ويبيحون لهم

ضرب إخوانهم؟ أعتقد أنها ستكون خيانة عظمة لو فعل العرب ذلك.

فهم حقيقة المؤامرة الأمريكية على العراق:

أنا لست بعثيًا، ولا صداميًا، ووقفت ضد صدام وضد البعث حينما أغار على الكويت، ولكني لا أقبل أبدًا أن نسمح بضرب بلد عربي وشعب عربي وجيش عربي، لا نوكّل أمريكا بتأديب العراق ولا تأديب صدام، الشعب العراقي هو القادر على أن يغير حكومته إن أراد، أما أن نُعطي أمريكا الحق في ضرب العراق وتدمير العراق، وهي تدمر وتضرب منذ أكثر من عشر سنوات، جوعت هذا الشعب وقتلت من أطفاله من قتلت، ولم يكفها هذا، تريد أن تقضي على ما بقى من هذا الشعب.

يا الله، أين الأخوة؟ أين أخوة العرب؟ وأين شهامة العرب؟ وأين نجدة العرب؟

الشاعر العربي يقول:

أخاك أخاك إن من لا أخًا له كساع إلى الهيجا بغير سلاح
وإن ابن عم المرء فاعلم وهل ينهض البازي بغير

كيف تقبل أن يُكسر جناح أخيك، وأن يُنتف ريش أخيك، وأن تكون مع المغير والمعتدي، وأن تقف ضد إخوانك مهما يكن خطؤهم في الماضي؟

أنا أقول لإخواننا في الكويت: الاعتداء على الكويت شيء، ولكن الاعتداء على العراق الآن شيء آخر، إن العراق ليس له أي دخل فيما سموه «الإرهاب»، ولم يثبت عليه أي شيء، ولكنهم الآن بدأوا يغيرون النغم، بعد أن كانت الحرب ضد الإرهاب قالوا: ضد أسلحة الدمار ومن يملكون أسلحة

الدمار!

أمريكا وحدها هي وحلفاؤها من حقهم أن يملكوا ما شاؤوا من أسلحة الدمار، الأسلحة النووية، والأسلحة الجرثومية، والأسلحة الكيماوية، وكل أنواع الأسلحة ما وُجد منها وما لم يوجد، من حقهم أن يمتلكوه، وليس من حق الآخرين أن يمتلكوه. إذا امتلكه الأمريكان وحلفاؤهم فهذا حلال زلال، وأما إذا ملكه الآخرون فهو منكر وحرام حرام! أي منطق هذا؟!

يا أيها الإخوة: إن على هذه الأمة أن تعرف قدرها، وأن تعرف واجبها في هذه المرحلة، إن الله سائل هذه الأمة عما يجري.

أمة من ثلاثمائة مليون من العرب، ووراءهم أكثر من ألف مليون من المسلمين، كيف تُستذل هذه الأمة وتُضرب في عُقر دارها ويُراد لها أن تُساق إلى ما لا تريد؟ بأي منطق هذا؟ وبأي حُجة هذا؟

إن روابط الإسلام وروابط العروبة ونداءات الحق والضمير، كلها تطالبنا بأن نقف وراء إخواننا في فلسطين، ووراء خواننا في العراق، ووراء المظلومين في كل مكان، فهذه هي حقيقة الأخوة، وصدق الشاعر العربي الذي قال:

فإما أن تكون أخي بصدق   فأعرف منك غثي من سميني
وإلا فاطرحني واتخذني   عدوًا أتقيك وتتقيني

اللهم هيئ لنا من أمرنا رشدًا، واجمع كلمتنا على الهدى، وقلوبنا على التُقى، وأنفسنا على المحبة، وعزائمنا على عمل الخير وخير العمل. اللهم آمين.

ادعوا ربكم يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

اضطهاد المسلمين والمسلمات في أمريكا:

رأينا في نشرات هذا اليوم أن إخوتنا في أمريكا يتعرضون لألوان من الاضطهاد، وهم إخوة يعملون في الميدان الثقافي والتربوي، وليس لهم علاقة لا بالعنف، ولا بالإرهاب، ولا بالجهاد العسكري، ولا بشيء من ذلك.

ورأينا الأمريكان ذهبوا إلى الجامعة الإسلامية الاجتماعية في ولاية «جينيا» على ما أظن، واقتحموها وفتشوها وأخذوا منها أشياء، وأخذوا رئيس هذه الجامعة أخانا العالم الفقيه الداعية الشيخ الدكتور طه جابر العلواني. وذهبوا كذلك إلى عدة مؤسسات: مجلس الفقه الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عدة مؤسسات تعمل في جال الثقافة ومجال العلم ومجال الدعوة والتربية، ولكن أخذوا أناسًا، وأخذوا بعض النساء، حتى إن امرأة أخذوها وقيدوا يديها من الخلف لمدة ثلاث ساعات، حتى صرخت وبكت، فأنقذوها وقيدوها من الأمام ساعتين أخريين! ما هذا؟ أمريكا التي تدعي الحرية وتدعي حقوق الإنسان، تعامل الناس بهذه الطريقة. وقد اعتقلوا أكثر من ألف شخص في أمريكا ولم يُوجه تهمة إلا لواحد منهم، واحد فقط هو الذي اتهم بأنه على صلة بالقاعدة، والآخرون لم يُوجه إليهم سؤال ولا اتهام.

أهذا هو ما يدّعونه من رعاية حقوق الإنسان؟ أهذا هو ما يدعونه من حرية الإنسان وكرامة الإنسان؟ أهذه هي المواثيق الدولية؟ أهذا ما تقوم عليه

الأمم المتحدة؟

إننا نعجب أن أمريكا وصلت إلى هذا الحد من التجاوزات، وتركت للأجهزة المختلفة عندها تنفذ أشياء غير الأشياء التي تقولها هي في الصحف والإذاعات والتلفازات، ويعاملون الناس وكأنهم ليسوا آدميين.

إننا نصرخ محتجين على هذه المعاملة، ونرى أن هؤلاء - وكثير منهم أمريكان أصليون، وكثير منهم يحملون الجنسية الأمريكية، وكثير منهم يحملون إقامة شرعية من سنوات طويلة، فلهم حقوق المواطنين - يجب أن يعاملوا باحترام وتكريم كما أراد الله للإنسان حينما قال: **{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ...}** [الإسراء: 70].

* * *

(11)
الأمة الإسلامية تحت وصاية الغرب(120)

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

ماذا يراد بتغيير التعليم في بلادنا:

قُدّر على أمتنا في هذه المرحلة أن تكون تحت وصاية غيرها من الأمم، تتحكم فيها وفي مصايرها وفي أمورها كيف تشاء.

يُراد لهذه الأمة أن تغير من طبيعتها، وتغير من حقيقتها، ومن مقوماتها وخصائصها، حتى تُرضى الآخرين، ولين يرضى الآخرون عنها حتى تتبع ملتهم.

يُراد لهذه الأمة أن تُغير تعليمها الديني، طلبت الولايات المتحدة الأمريكية من أكثر من دولة إسلامية أن تعيد النظر في التعليم الديني عندها.

ما المراد بالتعليم الديني؟ هل التعليم الديني في المدارس العامة الذي يعلم التلاميذ ما يجب عليهم في عقيدتهم، وشريعتهم، وسلوكهم، وأخلاقهم؟ أم يراد بالتعليم ما يأخذه بعض الطلاب في الجامعات من مقرر الثقافة الإسلامية الذي يعطي المسلم فكرة عن الرسالة الإسلامية، وعن فلسفتها العامة بحيث يتخرج الطالب الجامعي وقد عرف شيئًا عن هذا الدين يليق بنموه في هذه المرحلة؟

---

(120) ألقيت في جامع عمر بن الخطاب بالدوحة في 4 ذو القعدة 1422هـ الموافق 18 يناير 2002م.

وهذا واجب على كل من يعيش في بلاد الإسلام، سواءٌ كان مسلمًا أم غير مسلم، لأن الإنسان لا يكون مثقفًا إذا جهل الدين الذي يؤمن به عامة قومه، لا يكون مثقفًا إذا جهل هذه الأصول الفكرية والعقدية التي يعيش عليها الناس ويموتون عليها.

أم يراد بالتعليم الديني هذا التعليم الخاص الذي تقوم عليه المعاهد الدينية، والكليات الشرعية، والجامعات الإسلامية في عدد من البلاد، مثل الأزهر في مصر، مثل الزيتونه في تونس، مثل القرويين في المغرب، مثل الجامعة الإسلامية وجامعة الإمام محمد بن سعود وجامعة أم القرى في المملكة العربية السعودية، مثل جامعة ديوبند وندوة العلماء في الهند، مثل الجامعات الإسلامية المتخصصة في باكستان وفي كوالا لامبور وغيرها؟ هل يراد بالتعليم الديني هذا التعليم؟

الغالب أن هذا كله مراد.

يُراد أن يُغير التعليم الديني بحيث يُصاغ صياغة ترضى عنها أمريكا. وهذا أمر عجيب حقًا: أن يفرض علينا نحن العرب والمسلمين ما فُرض على اليابان وألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية. فرض على ألمانيا وعلى اليابان أن تُغيرا من دساتيرهما، وتغيرا من تعاليمهما، ومن ثقافتهما، لأن هؤلاء كانوا أعداء لأمريكا وللحلفاء، ودخلوا معهم حربًا فُقد فيها الملايين من الضحايا. ونحن لسنا أعداء، البلاد التي يطلب منها هذا التغيير تُعتبر بلادًا صديقة لأمريكا، وبينها وبين أمريكا اتفاقات ومعاهدات، وسفارات وقنصليات، ولم يحصل بيننا حرب حتى تُفرض علينا هذه الأشياء.

لماذا يُفرض علينا ما يُفرض على المنهزمين في الحرب، ونحن لم ندخل حربًا؟

ولكن هذا حكم القوي في الضعيف ... حكم الغالب في المغلوب.

تحكم الذئب فاخضع أيها تكلم السيف فاسكت أيها القلم!

هذا هو الذي يجري في هذه الأيام.

هل التعليم الديني يثمر إرهابًا؟!

ماذا تريد أمريكا؟ تريد أمريكا أن تُغيّر التعاليم الدينية بحيث لا تنتج الإرهاب، ولا تثمر الإرهاب!

من قال إن التعليم الديني هو الذي أثمر الإرهاب؟ هذه خرافة وأسطورة لا أصل لها. الذين اتهموهم بالإرهاب هل تخرجوا من التعليم الديني؟ هل «بن لادن»، أو الظواهري، أو عبد السلام فرج، أو عبود الزمر، أو خالد الإسلامبولي، أو هؤلاء الذين اتهموهم بالإرهاب، هل أحد من هؤلاء تخرج في الأزهر أو في التعليم الديني؟ ليس أحد من هؤلاء ممن تخرج في كلية دينية أو معهد شرعي.

طالبان هم طلبة شرعيون حقًا، ولكن هل طالبان إرهابيون؟ من قال إن طالبان إرهابيون فقد أخطأ خطأ مبينًا، وضل ضلالًا بعيدًا، وظلم هؤلاء الناس ظلمًا بينًا. طالبان جماعة منغلقة جامدة، تعيش في الماضي ولا تعيش في الحاضر. لا تستلهم الحاضر ولا تستشرف المستقبل. هذا ما يعاب عليه جماعة طالبان.

أما أن يتهموا بالإرهاب، فلا، حتى أمريكا لم تقل هذا، قالت عن «بن

لادن» والقاعدة: إنهم الإرهابيون وسنقاتلهم ونقاتل من يؤويهم، فاعتبرت طالبان مؤوين للإرهاب وليسوا إرهابيين. ما بالهم يقولون الآن: إنهم أصبحوا إرهابيين؟!

كل ما فعلته جماعة طالبان: أنهم آووا «بن لادن». وليسوا هم - في الحقيقة - الذين آووه. «بن لادن» ومجموعته موجودون في أفغانستان من قديم، منذ أيام الجهاد الأفغاني الذي شجعته أمريكا ودعمته وأيدته، وشجعته البلاد العربية والإسلامية عامة. ثم أصبح هؤلاء المجاهدون مجرمين بعد ذلك، وسُدت في وجوههم الأبواب، وتقطعت دونهم الأسباب، ولم يستطيعوا أن يعودوا إلى بلادهم إلا إذا أُدخلوا السجون، فعادوا إلى أفغانستان. والأفغانيون تحكمهم قيم، تحكمهم تقاليد، تحكمهم أخلاقيات، وأن من لجأ إليهم لا يستطيعون أن يتخلوا عنه.

هذا شيء غير الإرهاب.

فلماذا يقولون: إن التعليم الديني يُفرخ الإرهاب ويُولّد الإرهاب؟ هذا كلام باطل لا أساس له، ولا يقوم على أي منطق عقلي ولا نقلي، أو ديني أو خلقي، أو عرفي أو وضعي، كلام مرفوض من ألفه إلى يائه.

ماذا تريد إذن أمريكا من التعليم الديني؟

وهناك في العالم ألوان من الإرهاب ليس لها علاقة بالدين ولا بتعاليمه. «عبد الله أوجلان» هذا الكردي رئيس حزب العمال الكردستاني، وهو رجل محسوب على الماركسية والشيوعية واليسارية، وليس محسوبًا على الدين ولا على قيم الدين بحال من الأحوال.

فلماذا نقول: إن الدين هو الذي يُفرّخ الإرهاب؟!

الإرهاب الذي يوجد في عدد من البلاد: وُجد في أمريكا نفسها وفي حادث «أوكلاهوما سيتي»، ووجد في بريطانيا في الجيش الجمهوري الأيرلندي، ووجد في اليابان في جماعة الحقيقة السامية، ووجد في الهند وقُتلت «أنديرا غاندي» وابنها «راجيف غاندي»، ووجد في إسرائيل وقتل «إسحاق رابين»، ووجد في كل مكان.

لماذا التعليم الديني الإسلامي فقط هو الذي يُحمل وزر الإرهاب في العالم؟ هذا أمر عجب.

مؤامرة لتقليص دور الدين في الحياة:

ثم أقول: ماذا تريد أمريكا من تغيير التعليم الديني؟

هل تريد أن تُقلّص دوره وتحجّمه وتقزّمه وتُضيّق مساحته، بحيث لا يكون له تأثير على حياة المسلم؟ أهذا ما تريده؟ إن كان هذا فهذا لا يؤثر في منع الإرهاب، ولكنه يؤثر في أخلاقيات الأمة. يجعل الأمة أمة بلا قواعد راسخة ... بلا أصول ولا جذور تمتد إليها وتتمسك بها، تصبح أمة سائبة ... أمة ضائعة.

الأخلاق أساسها الدين، الدين هو جوهر الحياة وسر الوجود، فإذا فُقد من الحياة لم تعد الحياة لها معنى. والدين هو القوة الحافزة إلى الخير، والقوة الرادعة عن الشر، والضابطة لسلوك الإنسان، فإذا قلّصنا دور الدين معناه: انتشر الشر، وانتشر الإجرام، وانتشر الفساد، وانتشرت الإباحية، وانتشر فساد الذمم وبيع الضمائر.

هذا ما يحدث إذا تقلص دور الدين في الحياة.

يريدون للأمة الإسلامية - كما ذكر «فوكوياما» في مقالته التي أشرنا إليها في الأسبوع الماضي - أن تُقلّد تركيا العلمانية المتطرفة، تقلدها في تقليص دور الدين. الدين لا يُعلّم في مدارس تركيا، وحينما أراد الشعب التركي أن يستعيض عن ذلك فأنشأ مدارس قرآنية - عشرات آلاف المدارس القرآنية - أنشأها الناس بأموالهم في كل المدن والقرى تعلم الأطفال القرآن، ويتعلمون بغير لغتهم، يقرأون: {قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: 1] ولا يعرفون معناها. أهذا يُفرّخ إرهابًا؟ ومع هذا - منعت تركيا العلمانية هذه المدارس وأغلقت أبوابها.

أهذا ما يريدونه؟

محاولة لمسخ وتشويه التعليم الديني:

أيريدون تغيير مناهج التعليم الديني بحيث يُحذف من هذه المناهج كل ما ينشأ الشخصية المسلمة المتكاملة، الشخصية التي تؤمن بالحق، وتجاهد في سبيله، وتدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتقاوم الباطل، وتتمسك بالحق، ولا تبالي في سبيل مبادئها ما أصابها من أذى ومن بلاء، الشخصية التي تستعد أن تضع رأسها على كفها في سبيل الله، تُضحي كما يُضحي إخواننا في «حماس» و«الجهاد الإسلامي» وغيرها من فصائل الجهاد؟

أيريدون أن يحذفوا هذا من المناهج؟

لعلهم يريدون هذا. وقد فعلت هذا بعض البلاد العربية العلمانية العريقة في العلمانية والمتطرفة فيها، ما سموه: تجفيف المنابع. المنابع التي يتفجر منها

التـدين، والإيمـان القـوي، والشخصـية المتماسـكة المعتـزة بـدينها وبربهـا وبإسـلامها، هـؤلاء حـاربوا هـذا النـوع مـن التعليم والتربيـة وسـموه: تجفيـف المنابع. قالوا: لا يكفي أن تحارب المتدينين، وأن تُدخلهم السجون، وأن تُسلط عليهم أدوات التعذيب الماديـة والنفسية، قـالوا: كـل هـذا لا يصـلح. لا يصـلح حرب التدين إلا إذا جففنا الينابيع التي يأتي منها التدين! فلعل أمريكـا تريـد مـن تغيير المناهج هذا اللون هذا يعتبرونه إصلاحًا وتجديدًا، ومـا هـو بإصـلاح ولا تجديد، ولكنه إفساد وتبديد.

أم تريد أمريكا أن تُغير المناهج بحيث تنشـأ العقليـة الإسـلامية المتفتحـة ...؟ العقلية التـي تـؤمن بـالحوار مـع الآخـرين، والتسـامح مـع المخـالفين، والبـر مـع المسالمين، والنظر إلى البشر باعتبارهم إخوة وأسرة واحدة، ينتسـبون إلـى أب واحد، وإلى رب واحد، كمـا جـاء فـي الحـديث: «**أيهـا النـاس إن ربكـم واحـد وإن أبـاكم واحـد، كلكـم لآدم وآدم مـن تـراب**»[121]؟ إن كـان هـذا مـا تريـده أمريكـا فـنحن أسـبق منهـا فـي هـذه الـدعوة، لنـا عشـرات السـنين ونحـن نُعلـم المسـلمين هذا الإسـلام، ونـدعو المسـلمين إلـى هـذا الـدين ... الـدين المتفـتح ... الدين المتسامح.

ندعو المسلمين، وندعو المتشددين مـنهم، والغلاة والمتطـرفين أن يخرجـوا مـن التعصـب والإنغـلاق إلـى التسـامح والإنطـلاق، مـع التعسـير والتنفيـر إلـى التيسـير والتبشـير، مـن الغلـو والانحـلال إلـى الوسـطية والاعتـدال، مـع العنـف والنقمـة إلـى الرفـق والرحمـة[122]. نـدعو المسـلمين إذى هـذا، لا لأن أمريكـا

---

(121) سبق تخريجه.

(122) هذه بعض الخطوط العشرة التي ذكرناها لترشيد الصحوة الإسلامية، وهي ضمن

تطلب منها هذا، بل لأن ديننا هو الذي يأمرنا بهذا.

فإذا كان الإصلاح مبنيًا على أسس إسلامية، ومن وجهة نظر إسلامية، فهذا ما نطالب به، ولسنا في حاجة إلى أن يُفرض علينا هذا من أمريكا ولا من حلفاء أمريكا.

إننا ندعو إلى تعليم ديني منبثق مما كان عليه الصحابة والتابعون، وهم أكثر الناس فهمًا لهذا الدين، وفقهًا لروحه، ولمقاصده، والتزامًا به، وعملًا بأركانه وبمقوماته وآدابه.

نحن ندعو إلى الإسلام كما فهمه الجيل الأول الذي رباه محمد صلى الله عليه وسلم ونشأ عليه هذه الأمة التنشئة المطلوبة.

نحن ندعو إلى هذا، ولسنا في حاجة إلى من يعلمنا ديننا.

نحن أولى الناس بأن نتعلم ديننا من مصادره الأصيلة، وأن نخرج فروعه على أصوله، وأن نبنيه على ركائز متينة وقواعد راسخة، من كتاب الله ومن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لماذا لا يُطالب غيرنا بتغيير مناهجه التعليمية؟

ثم نحن نسأل أمريكا: لماذا المسلمون وحدهم؟ لماذا تطالبي المسلمين دون غيرهم بمراجعة تعاليمهم الدينية؟ لماذا لم تطالب الإسرائيليين بهذا؟ ... الإسرائيليين الذين استباحوا الدماء، واستباحوا الأموال، واستباحوا الحرمات، ليس عندهم أي بأس من أي دم يُسفك، أو أي عرض يُهتك، أو أي حرمة

كتابنا: «الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد»، طبعة دار الشروق 2002 م.

تنتهك، وهذا بناء على تعاليمهم الدينية في التوراة ... ا لتوراة التي تقول لموسى: إنك إذا انتصرت على قوم ودخلت بلدًا فاضرب أهلها رجالها ونساءها بحد السيف، واقتل بقرها وغنمها وحميرها وكل شيء فيها! يعني اجعلها خرابًا يبابًا، استبح كل شيء فيها. هذا ما تقوله التوراة في أسفارها.

أما ما يقوله التلمود فهو أشد وأنكى، وأخزى وأقسى، لأنه يستبيح كل الأمم! الأمم أحط عنده من البهائم وأذل من الكلاب! المفروض في هؤلاء الأغيار أن يكنوا عبيدًا للشعب المختار ... شعب إسرائيل! هذا ما يقوله تلمودهم وما نصوا عليه.

والقرآن يشير إلى هذا حينما قال: { **... ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**} [آل عمران: 75]. كل من عداهم أميون، ليس لهم حرمة، وليس لهم منزلة، وليس لهم قيمة، وليس عليهم فيهم سبيل، كذبوا على الله {**وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**}.

لماذا لم تطالب أمريكا إسرائيل ولا سيما الأحزاب الدينية في إسرائيل حزب «شاس» وأمثاله من هؤلاء المتطرفين الذين يريدون أن يقتلوا العرب ولا يبقوا لهم من باقية؟ أحلال للإسرائيليين حرام على العرب والمسلمين.

لماذا لم يطالبوا الذين ينادون بالأصولية المسيحية في أمريكا؟ الأصولية المسيحية التي تناصر إسرائيل وتناصر الصهيونية وتعتبر ذلك جزءًا من دينها، وقد تأثر بتعاليم هؤلاء عشرات الملايين، وممن تأثر بهم رؤساء أمريكا السابقون منذ عهد «كارتر» و«بوش» الأب ... و «ريغان» و «كلينتون» و «بوش» الصغير. كل هؤلاء من ضحايا هذه المسيحية التي

يسمونها: المسيحية الصهيونية أو المسيحية الأصولية. ولعل من فعل حادثة «أوكلاهوما سيتي» من هذا النوع.

وهناك أحزاب وجمعيات متطرفة بالعشرات داخل أمريكا، لماذا لم تطالبهم؟

لماذا لم تطالب الجيش الأيرلندي الكاثوليكي الذي يحارب البروتستانت في بريطانيا؟

لماذا لم تطالب أي جماعة من الجماعات بالنظر في تعاليمها الدينية إلا المسلمين؟!

المسلمون وحدهم هم الذين أصبحوا يؤمرون فيطيعون، ويدعون فيستجيبون، ولا يستطيعون أن يقولوا: لم؟ فضلًا عن أن يقولوا: لا. حتى الأعمال الخيرية، قرأنا بالأمس واليوم: الوفود الأمريكية التي تجوب منطقة الخليج يمينًا وشمالًا، تجوب هذه المنطقة لتضبط الأعمال الخيرية(123) حتى لا يتسرب منها شيء إلى الإرهاب! يعني: لا يتسرب منها شيء إلى فلسطين ... إلى حماس ... إلى الجهاد ... إلى حزب الله ... إلى فصيلة من فصائل المقاومة، لا ينبغي أن يتسرب إليها شيء. فهم يريدون أن يضبطوا الأعمال الخيرية في بلاد الخليج، يريدون أن يفرضوا وصاية علينا في كل شيء.

إنه استعمار جديد، باسم جديد، وبأسلوب جديد.

وينبغي لهذه المنطقة ولغيرها من مناطق العروبة والإسلام أن ترفض هذا

---

(123) راجع الخطبة رقم (12) من هذا الجزء وهي بعنوان «إغلاق المؤسسات الخيرية لمصلحة من»؟ (ص 165).

التدخل، فلسنا عبيدًا لأحد. نحن عبيد لله وحده: **{قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ 162 لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ}** [الأنعام: 162، 163].

دعوة لتطوير مناهجنا التعليمية وتجديدها:

لا أنكر - أيها الإخوة - أن في مؤسسات التعليم الديني كثيرًا من ألوان القصور والتقصير، كغيرها من المؤسسات في بلادنا. المؤسسات العامة في بلادنا كلها في حاجة إلى مراجعة وفي حاجة إلى تقويم، والأمة الحية هي التي تراجع نفسها ما بين الحين والآخر دون أن يفرض عليها هذا من أحد.

أمريكا نفسها نقدت نظام التعليم فيها، وجاءت بفريق ياباني ليقدم إليها مشورته في إصلاح النظام التعليمي فيها، ولكن هي التي فعلت هذا، لم يفرض أحدٌ عليها هذا.

نحن ندعو، ودائمًا التربويون ينادون بالمراجعة والتقويم ما بين الحين والآخر، هذا أمر طبيعي.

التعليم الديني كثير منه يشكو الجمود: أنه يعيش جامدًا، لم ينفتح على هذا العصر وعلى آفاقه الواسعة، وعلى ثقافاته المتنوعة، وعلى مشكلاته المتجددة, ونحن نطالب الذين يتعلمون الدين أن ينظروا إلى التراث بعين وإلى العصر وتياراته بعين أخرى، كما جاء في تراثنا: رحم الله امرءًا عرف زمانه واستقامت طريقته. وجاء في بعض الآثار: وينبغي للعاقل: أن يكون عارفًا بزمانه، حافظًا للسانه، مقبلًا على شأنه.

نحن نريد من التعليم الديني أن يخرج من الانغلاق، ومن الجمود، وأن

ينفتح على آفاق المعرفة الواسعة.

نحن نريد من هذا التعليم أن يخرج من قصوره.

التعليم الديني والعلوم التجريبية الإنسانية:

بعض مدارس التعليم الديني لا تعرف شيئًا عن العلوم الحديثة، لا تعرف شيئًا عن الجغرافيا، ولا عن الفيزياء، ولا عن الكيمياء، ولا عن الأحياء، ولا عن هذه الأشياء! كيف يعيش الإنسان في هذا العصر وهو جاهل بهذه الأمور؟!

ولذلك حينما نناقش بعض القضايا التي لها صلة بالعلم، نجد هؤلاء أبعد ما يكونون عن معرفة الواقع. وعلماؤنا قالوا: لا بد للمفتي أن يفقه الواقع(124) كما يفقه النص. بدون الجمع بين النص والواقع لا يستطيع أن يُحسن الفتوى. لا يمكن أن يعرف شيئًا في قضية الهلال، وهل نأخذ بالحساب الفلكي؟ إذا كان لا يعرف شيئًا عن الفلك، ولا عن الكسوف، ولا عن الخسوف، ولا عن مسير الشمس، ولا عن مسير القمر. كيف يستطيع أن يتحدث عن بعض الأشياء مثل التي تتعلق بشتل الجنين، والتحكم في جنس الجنين، وهو لا يعرف شيئًا عن هذه الأمور؟ حتى إن بعضهم مرة علق على فتوى لي قال: القرضاوي يقول إن المرأة تبيض! من قال إن المرأة تبيض؟ المرأة تلد ولا تبيض! معروف أن المرأة عندها بييضة كل شهر عربي، هذا أمر أصبح معروفًا. كيف يتكون الجنين؟ يتكون من الحيوان المنوي للرجل والبييضة من

---

(124) ذكرنا في كتابنا: «ثقافة الداعية» أنواع الثقافات التي يجب على الداعية أن يكون ملمًا بها، ومنها الثقافة الواقعية، انظر الكتاب المذكور (ص 110 - 123)، طبعة مكتبة وهبة (1996م).

المرأة. هؤلاء لا يعرفون هذا.

هناك قصور في هذه المؤسسات الدينية، وبعض هذا القصور يرجع إلى القصور المادي والمالي.

كنت في الفلبين من نحو خمس وعشرين سنة، وزرت المعاهد العربية والإسلامية، وهذه المعاهد العربية والإسلامية منتشرة في أنحاء العالم بالمئات والآلاف، وجزى الله الأمير محمد الفيصل خيرًا حينما أسس اتحادًا لهذه المدارس العربية أمينه الدكتور بتوفيق الشاوي، وعمل في بعض الأوقات على محاولة تطوير هذه المدارس والمعاهد العربية، فأقام لها دورات تربوية تطويرية في بلادها، وبعث إليها أناسًا، وطلب من بعض الجامعات أن تتبرع بإرسال بعض الأساتذة للمشاركة، وذهب بعض إخوتنا في جامعة قطر ليشارك في تطوير هذه المعاهد، وتطوير المدرسين، وإعطائهم جرعات من التربية وأسس التربية الحديثة. المهم أني حينما زرت الفلبين في ذلك الوقت - وكنت مع فضيلة الشيخ الجليل عبد الله الأنصاري حجح - وجدتهم يعيشون في الماضي كما كان الأزهر منذ مائة سنة، قلت لهم: لماذا لا تتعلمون اللغة الإنجليزية؟ لماذا لا تتعلمون العلوم الحديثة؟ لماذا لا تطورون الأساليب التدريسية أو تستعينون بالوسائل السمعية والبصرية؟ قالوا: هذا كله يحتاج إلى فلوس، ونحن نعتمد على مدرسين متطوعين، وإذا أخذوا شيئًا أخذوا القليل. فمن أين لنا أن ندفع راتبًا لمدرس الإنجليزي ومدرس الفيزياء والكيمياء ومدرس الجغرافيا؟ المشكلة إذن هناك نقص في موارد التمويل لهذه المؤسسات.

والعجب أن كثيرًا من المسلمين عندهم فائض أموال، وعندهم رغبة في

عمل الخير، ولكن معظم أثرياء المسلمين وتجار المسلمين إذا أرادوا أن يعملوا خيرًا لم يفكروا إلا في شيء واحد: أن يبنوا مسجدًا، وكأن المسجد هو كل ما يحتاج إليه المسلمون. المسلمون في حاجة إلى المدرسة مثل حاجتهم إلى المسجد أو أشد، وإلا من يذهب إلى المسجد إذا لم تأت المدرسة مثل حاجتهم إلى المسجد أو أشد، وإلا من يذهب إلى المسجد إذا لم تأت المدرسة بمن يعلمه الذهاب إلى المسجد؟ نحن في حاجة إلى المسجد ... في حاجة إلى المدرسة ... في حاجة إلى النادي ... في حاجة إلى المؤسسات المختلفة التي بها يكتمل المجتمع ويؤدي دوره.

هذا ما نريده أيها الإخوة للتعليم الديني. أن ينمو ويرتقي ويتطور، ويعايش العصر، ويمشي مع ركب الحياة، حتى يؤتي أكله كل حين بإذن ربه.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يفقهنا في ديننا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، إنه سميع قريب.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

ثبات الشعب الفلسطيني أمام المجازر:

أما بعد: فلعلكم أيها الإخوة تتابعون معي ما يحدث في أرض الإسراء والمعراج ... في أرض النبوات والمقدسات ... في أرض المسجد الأقصى ... في أرض فلسطين.

إن ما يحدث شيء يتقطع له نياط الفؤاد، وتتفتت له الأكباد، ويرجع

الإنسان حزينًا مليئًا بالحسرة والنكد كلما استمع أو شاهد نشرة من نشرات الأخبار، أو قرأ ما تنشره الصحف صباح كل يوم، إنه شيء لا يصدق.

إن شارون وعصابته المجرمة أصبحوا يُمْلُون إرادتهم، ويفرضون مشيئتهم، على أبناء فلسطين.

والعجب أن نجد من أبناء فلسطين من يستجيب لهذه الإرادة.

الشعب الفلسطيني رفض التسلط الشاروني، وقاوم ذلك بصدوره. قاوم الدبابات في الأرض، والمروحيات والطائرات من الجو، والبوارج من البحر. قاوم هذا بما يملكه من أدوات وبعضها لا يغني شيئًا أمام هذا التجبر، ولكن الشعوب حينما تقاوم، تقاوم بما تقدر عليه، والله تعالى يقول: **{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ ...}** [الأنفال: 60]، لم يقل: أعدوا لهم مثل ما أعدوا لكم، إنما قال: **{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم}**. ولم نجد شعبًا من الشعوب قاوم المحتل والمستعمر بمثل ما يملك المستعمر من قوى وأدوات، لا يوجد هذا في التاريخ أبدًا.

ولذلك الشعب الفلسطيني البطل الباسل أثبت وجوده منذ بدأت الحركة الصهيونية وبدأ المشروع الصهيوني، قاوم بثورات متصلة وبذل ما بذل، لولا المؤامرات والخيانات من قديم ومن حديث.

هذه الانتفاضة الثانية ... الانتفاضة المباركة، يجب أن تستمر. إن إيقاف الانتفاضة جريمة بكل المقاييس، وخيانة لله ولرسوله ولفلسطين وللأمة، لا يجوز أن تقف هذه الانتفاضة، يجب أن تستمر.

ماذا نريد في مقابل وقف الانتفاضة؟ أن يرضى شارون؟ والله مهما عملنا

لن يرضى شارون.

أنصح عرفات بالعودة إلى النضال:

ماذا يريد الرئيس عرفات من شارون؟ يريد أن يفرج عنه ليتحرك كما يريد؟ هو سجين في رام الله، وقال شارون: إنه سيظل حبيس رام الله مدة طويلة! هو الذي يتحكم فيه. ما قيمة هذه الرئاسة؟!

أنا أقترح على السيد ياسر عرفات أن يعود كما كان من قبل ... أن يتخلى عن كرسي الرئاسة هذا الذي لم يعد له قيمة، ولم يعد له معنى، ولا يستطيع أن يستقر عليه، ويعود ثائرًا مناضلًا مجاهدًا كما كان من قبل ... أن يرمي بغصن الزيتون يوحمل البندقية ... أن يأتي بالكوفية على وجهه ويتلثم مع المتلثمين ... أن يعلن الجهاد من جديد.

أما أن يترضى شارون ليرضى عنه حتى يتحرك داخل سلطته! أي رئيس هذا الذي لا يملك أن يتحرك داخل السلطة وهو رئيسها؟!

لم يسمح له شارون أن يحضر المؤتمر الوزاري الإسلامي! تُرى هل يسمح له أن يحضر مؤتمر القمة العربي الذي سينعقد عن قريب؟!

إن عرفات يحاول أن يرضي شارون بأن يبذل له بعض ما يريد، فيعتقل بعض قادة الفصائل النضالية والجهادية التاريخية في فلسطين ليرضي شارون! هذا عبث، وهذا خطأ، ولن يُرضي شارون.

إننا ننادي السلطة، وننادي الشعب في فلسطين: أن يقفوا جميعًا صفًا واحدًا لا يُخترق، لا يسمحون للصهاينة أن يخترقوه. قوة ه ذا الشعب في تماسكه ... في تلاحمه ... في اتحاده، والله تعالى يقول: {**إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي**

سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ} [الصف: 4].

أمـا اللهـاث وراء عمليـة السـلام[125] ـ أي سـلام كـان، السـلام كمـا تفسـره إسرائيل وكما تريده إسرائيل ـ فهذا لا يخدمنا، وليس في صفنا، ولا يحقق لنـا هدفًا. سنظل طوع أمر إسرائيل، سنظل رهن إشارة إسرائيل، سنظل تحت إرادة إسرائيل وهيمنة إسرائيل والصهيونية.

أهذا ما يراد لنا؟ أهذا ما أراده ياسر عرفات بعد هذا العمر من الجهاد: أن يصبح رهن إشارة الكيان الصهيوني يتحكم فيه كيف يشاء؟

لا حـل إلا أن يلـتحم الشـعب الفلسـطيني كلـه ويقـف وقفـة رجـل واحـد، ويرفضون هذا الاستسلام، ويرفضـون هذه الإهانـة، ويسـتعدون لبذل كل مـا يستطيعون، ليعيدوها جذعة من جديد، فما كسبوا شيئًا حتـى الآن إلا الحصـار والتجويع والقتل والتخريب والتدمير يلقونه كل يوم.

إننـا نحيـي هـؤلاء المجاهدين الشـباب الـذين ضـحوا بأنفسـهم، ووضـعوا رؤوسهم على أكفهم، وأرواحهم فـي أيديهم، وقدموها رخيصـة فـي سبيل الله،

---

(125) لنا قصيدة حول هذا السلام الهزيل أسميناها: سلام السراب أو سراب السلام، ومن أبيات هذه القصيدة:

سـلام مـن بنى صهيـو ن عفـوًا يا بني جنسـي
أيرجى السلم من ذئب أيرجى الدر من تيـس؟
فيـا عجبًـا لمـن يجـري وراء سرابــه النفسـي
يظــن لــه بــه ريـا ويرجـع فـارغ الكـأس
يفـرط في دم الشهـدا ء يا للعـار والبــؤس

انظـر: «المسلمون قـادمون» (ص 78) ومـا بعـدها، طبعـة دار التوزيـع والنشـر الإسـلامية 2000 م.

وهاجموا الصهاينة في عقر دارهم وقتلوا منهم من قتلوا، واستشهدوا في سبيل الله. نحيي هؤلاء، وهذا تغيير نوعي، بدل عمليات الاستشهاد والتفجير: الدخول في المعمعة ... القتال لهؤلاء ... المقاومة لهم، هذا اسلوب جديد نحييه ونشجعه، ونرى أنه لا يمكن أن يُخضع الإسرائيليين إلى الجهاد. إن الحرية لا تُستجدى، إن الاستقلال لا يُوهب، ولكنه يُؤخذ أخذًا، ورحم الله أمير الشعراء شوقي حينما قال:

وللحريـــة الحمـــراء بـــابٌ   بكـــل يـــدٍ مضـــرجةٍ يُـــدقُ

لا يدق باب الحرية إلا باليد المضرجة بالدماء. أما اليد الناعمة التي تلبس القفاز، وهذه الشخصيات التي لا تريد الجهاد، والتي قال فيها الشاعر قديمًا:

خطـرات النسـيم تجـرح خديـه   ولمـس الحريـر يُـدمي بنانــه!

فهؤلاء لا تنتصر بهم أمة، ولا تتحقق بهم حرية، ولا يأتي على أيديهم استقلال.

* * *

(12)
إغلاق المؤسسات الخيرية الإسلامية (126)
لمصلحة من؟

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

حالة هوان تعيشه الأمة:

لعل الأمة الإسلامية لم تمر بمرحلة هوان ومحنة ومذلة كالمرحلة التي تعيشها اليوم.

لقد ابتُلينا باستعمار عنصري صهيوني استيطاني إحلالي، استباح الدم، واستباح الأرض، واستباح العرض، واستهان بالمقدسات. ابتُلينا بهذا الاستعمار الصهيوني البغيض، الذي احتل أرض الإسراء والمعراج ... أرض المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله ... الأرض التي بارك الله فيها للعالمين كما قال القرآن الكريم(127).

وابتلينا في هذا العصر بأن غُزيت الأمة في عُقر دارها، وما غُزى قوم في

(126) أُلقيت في جامع عمر بن الخطاب بالدوحة في 25 ذو القعدة 1422هـ الموافق 8 فبراير 2002م.

(127) في مثل قوله تعالى: {سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ...} [الإسراء: 1]، {وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ} [الأنبياء: 71]، {وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ...} [الأنبياء: 81].

عُقر دارهم إلا ذلوا. ولكن المشكلة: حينما تكون مع الغزاة ...أن تجبرك الأوضاع على أن تساعد الغزاة لأرضك وأن تقف معهم، وهذه مصيبة كبرى.

قالوا: تعالوا نحارب الإرهاب. وسلم لهم من سلم، فقد قالوا: إما أن تكونوا معنا، وإما أن تكونوا مع الإرهاب! حتى لم يقولوا: أو تكونوا علينا، بل قالوا: وإما أن تكونوا مع الإرهاب! وخاف الناس أن يكونوا مع الإرهاب، فقالوا: نحن معكم.

ولكنهم لم يحددوا: ما هو هذا الإرهاب الذي نحاربه؟ تركوه مائعًا فضفاضًا رجراجًا هُلاميًا بحيث يفسرونه كما يهوون، وكما يحلو لهم.

ماذا كان هذا الإرهاب؟

انتهى الإرهاب الذي يحابونه إلى أن كل مسلم يدافع عن وطنه ويقاوم الغزاة المحتلين ويدفع في ذلك دمه ونفسه وماله، اعتبر هذا إرهابيًا.

ولذلك صنفوا في قائمة الإرهاب: حركة المقاومة الإسلامية «حماس»، منظمة الجهاد الإسلامي، كتائب شهداء الأقصى، منظمة فتح، الفصائل الإسلامية المختلفة المقاومة والمعارضة في فلسطين، كل هذه أصبحت ضمن منظمات الإرهاب. حزب الله في لبنان كذلك منظمة إرهابية، جماعة المجاهدين في كشمير منظمة إرهابية! كل من يدافع عن دينه ووطنه فهو إرهابي! وعلينا أن نقاوم معهم وأن نغزو معهم هؤلاء الإرهابيين، لأننا إذا لم نكن معهم كنا مع الإرهاب!!

أرأيتم هوانًا مثل هذا الهوان!!

لقد قال الشاعر قديمًا في قبيلة تيم:

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود

نحن الآن قبيلة تيم، بل أذل من تيم، لأنهم يتصرفون فينا كما يريدون، ولا يسألون عما يفعلون، كأنما هم آلهة في هذه الأرض، لا تُسأل عما تفعل ولا تُحاسب على ما تقول! إنه منطق القوة والجبروت **{ ... كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}** [غافر: 35]، **{وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ}** [إبراهيم: 15].

ومن العجب أن نجد بعض قادتنا يرددون ما يقوله هؤلاء، ويحطبون في حبلهم، ويسيرون في ركابهم، ويطلقون صفة الإرهاب على كل هذه المنظمات الجهادية الأصيلة إرضاء لأولئك، ولن يرضوا عنك حتى تتبع ملتهم، وحتى تفنى فيهم، وحتى تذوب شخصيتك في شخصيتهم، وحتى تطيع أمرهم وتكون عبدًا ذليلًا لهم في كل شيء، وربما لو فعلت ذلك لم يرضوا عنك أبدا.

يا أيها الإخوة: لقد أصبح هؤلاء يتدخلون في أخص شؤوننا كأننا أمة لا وجود لها، ولا مقومات لها، ولا خصائص لها، ولا رسالة لها.

يريدون أن نغير تعليمنا، خصوصًا التعليم الديني، وطلبوا ذلك صراحة من بعض البلاد، وطلبوا ذلك خفية من بلاد أخرى.

محاربة العمل الخيري الإسلامي:

ولم يكتفوا بذلك بل قاوموا العمل الخيري الإسلامي، اعتبروا جمعيات العمل الخيري الإسلامي جمعيات إرهابية، ووضعوا أسماء بعضها، ولا زال هناك أسماء أخرى في الجعبة تظهر بين الحين والحين، هذه الجمعيات التي

تعمل في إغاثة الإنسان الملهوف ... في أن تمسح دمعة المحزون ... في أن تطعم الكبد الجائعة ... في أن ترق على هؤلاء المساكين من أبناء المسلمين الذين لا يجدون ما يمسك الرمق أو يطفئ الحرق، هذه الجمعيات أصبحت جمعيات إرهابية! العمل الخيري أصبح جريمة!

ماذا يراد إذن منا نحن المسلمين؟

يراد منا أن نترك إخواننا المسلمين يموتون جوعًا، وعُريًا ومرضًا ويُتمًا وتشردًا، ولا نمد لهم يدًا بالمساعدة لنطعم الجائع، أو نسقي الظمآن، أو نكسوا العُريان، أو نداوي المريض، أو نكفل اليتيم، أو نؤوي المشرد، أو نقضي حاجة المحتاج، هذا ما يراد بنا.

عوامل التزام المسلم بعمل الخير:

إن العمل الخيري جزء من كيان الفرد المسلم والأمة المسلمة. لا يستطيع المسلم أن يعيش دون أن يُساهم في العمل الخيري، وذلك بوجوه عدة:

1 - المسلم مأمور بفعل الخير:

أولًا: أن المسلم مأمور بفعل الخير، والدعوة إلى الخير، والدلالة على الخير. الله تعالى يقول: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ}** [الحج: 77]. فكما أن المؤمن مأمور بالعبادة والركوع والسجود والصلاة مأمور بفعل الخير، هذا جزء من مهمة الفرد المسلم والجماعة المسلمة: **{وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ}**.

وهو لا يفعل الخير فقط، بل يدعو إليه: **{وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ ...}** [آل عمران: 104]. والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**من دل على خير**

فله مثل أجر فاعله»[128].

وإذا لم يستطع أن يفعل الخير أو يدل عليه فلينوه في نفسه، فإنما لكل امرئ ما نوى، ولذلك جاء في الحديث أن ممن يثيبه الله عز وجل: « **... عبد رزقه الله مالًا وعلمًا، فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقا، فهذا بأفضل المنازل. وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالًا، فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان، فهو بنيته** - قال النبي صلى الله عليه وسلم: **فأجرهما سواء»**[129]. الذي فعل والذي نوى وكان صادق النية كما يعلم الله منه، فهما في الأجر سواء.

المسلم مطالب بفعل الخير، والدلالة على الخير، ونية الخير.

2 - مطالبة المسلم بمعاونة إخوانه:

ومن ناحية ثانية: المسلم مطالب بمعاونة إخوانه المسلمين حيثما كانوا، يشد أزرهم، ويُجلد ظهرهم، ويقوي عضدهم. فالأمة الإسلامية أمة واحدة، هم إخوة حيثما كانوا في مشرق أو مغرب، لا تحد بينهم حدود، ولا تقطع بينهم أقاليم، «**المسلم أخو المسلم** «هكذا قال رسول صلى الله عليه وسلم» **لا يظلمه ولا يسلمه»**[130] معنى لا يُسلمه: أي لا يتخلى عنه، لا يتركه ضحية للظالمين يأكلونه، ولا يتركه فريسة للجوع والعري والمرض، بل يعمل على

---

(128) رواه مسلم في الإمارة (8193) عن أبي مسعود البدري.

(129) جزء من حديث رواه أحمد (18031) عن أبي كبشة، وقال محققو «المسند»: حديث حسن، والترمذي واللفظ له وقال: حديث حسن صحيح، عن أبي كبشة الأنماري. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للقرضاوي (104/1) برقم (8).

(130) سبق تخريجه في (ص 40).

إنقاذه. ويقول الله تعالى: {**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ...**} [الحجرات: 10] المؤمنون حيثما كانوا إخوة «**كونوا عباد الله إخوانا**»(131) كما أمركم الله. «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**» هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم شبك إصابعه(132). «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»(133).

كيف تنام ملء جفنك، وكيف تأكل ملء بطنك، وكيف تضحك ملء سنك، وإخوانك هناك حول الأقصى في أرض فلسطين لا يجدون ما يأكلون؟ الحصار قد قطع عليهم الطريق وسد عليهم الأبواب.

كيف تستطيع أن تهنأ بعيشك وإخوانك في بلاد شتى من أرض الإسلام لا يجدون القوت الضروري لهم؟

المسلم مأمور أن يعاون إخوانه هؤلاء حيثما كانوا، وليس بمؤمن «**من بات شبعانًا وجاره جائع**»(134) وكل المسلمين جيران لك. في عصرنا قالوا: إن العالم أصبح قرية صغرى. معنى هذا: أن تعيش مع الناس حيثما كانوا فهم

---

(131) رواه البخاري في الأدب (6065)، ومسلم في البر والصلة (2559) عن أنس بن مالك.

(132) سبق تخريجه في (ص 88).

(133) سبق تخريجه في (ص 88).

(134) رواه الطبراني والبزار عن أنس بن مالك، وقال الهيثمي: إسناد البزار حسن. ونصه كاملًا: «**ما آمن بي من بات شبعانًا وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم**». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للقرضاوي (691/2) برقم (1530). وذكره الألباني في «صحيح الترغيب» (2561).

جيرانك.

هذا من جهة ثانية.

3 - فعل الخير للبشرية جمعاء:

ومن جهة ثالثة: المسلم مأمور أن يمد يده بالمساعدة للمحتاجين ولو كانوا غير مسلمين، لأن الإسلام دين الرحمة العامة **{وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ}** [الأنبياء: 107]، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «**والذي نفسي بيده؛ لا يضع الله رحمته إلا على رحيم**» قالوا: كلنا يرحم. قال: «**ليس برحمة أحدكم صاحبه؛ يرحم الناس كافة**»(135)، رحمة الجميع مسلمًا أو غير مسلم.

والله تعالى يقول: **{لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ}** [الممتحنة: 8]. ويصف الله تعالى الأبرار من عباده فيقول: **{وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا}** [الإنسان: 8] الأسير مشرك كافر، ولكن يطعمه الطعام وهو يحبه ويحتاج إليه ويشتهيه، **{إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا}** [الإنسان: 9].

لا يقتلون الأسرى كما فعل أولئك الذين قتلوا ستمائة أسير وأيديهم مقيدة مكتوفة وراء ظهورهم.

بل الإسلام يدعو إلى الرحمة بالحيوان الأعجم الذي لا ينطق ولا يبين عن نفسه: «**اتقوا الله في البهائم المعجمة، فاركبوها صحاحًا، وكلوها**

---

(135) رواه هناد في «الزهد» (325)، وأبو يعلى في «مسنده» (250/7)، وذكره الألباني في «السلسلة الصحيحة» (167).

سمانا»[136]، «**دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت»**[137]، ودخلت امرأة بغي الجنة بسبب كلب عطفت عليه فسقته فشكر الله لها فغفر لها.

هذا هو الإسلام يدعو إلى الرحمة بخلق الله، حتى الحيوانات.

4 - فريضة الزكاة:

ثم من ناحية رابعة: الإسلام جعل من فرائضه الأساسية وعباداته الركنية: الزكاة، الركن الثالث في الإسلام، هي عمل خيري، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، إنها تقوم بحق التكافل الاجتماعي، إنه أمر أساسي في المجتمع. لا يستحق المسلم أن يدخل في جماعة ا لمسلمين وأن يستحق أخوتهم الدينية إلا بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة {**فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ ...**} [التوبة: 11].

واجبات أخرى سوى الزكاة[138]:

وليست الزكاة هي الحق الوحيد في المال، إنها أول الحقوق وليست

---

(136) رواه أحمد (17625) وقال محققوا «المسند»: إسناده صحيح، رجاله ثقات. وأبو داود وابن خزيمة في «صحيحه» وابن حبان في «صحيحه»، كلهم عن سهل بن الحنظلية. قال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح، وقال في «الرياض» بعد عزوه لأبي داود: إسناده صحيح. ومعنى «المعجمة» التي لا تقدر على النطق فتشكو ما أصابها من جوع وعطش، والقصد التحريض على الرفق بها والتحذير من التقصير في حقها. «فيض القدير» للمناوي (16/1) برقم (120).

(137) سبق تخريجه في (ص 51).

(138) للمزيد من هذا انظر ما ذكرنا في كتابنا «فقه الزكاة» تحت عنوان: «أفي المال حق سوى الزكاة» (ح 1011/2) طبعة مكتبة وهبة (1994 م).

آخرها. هناك حقوق كثيرة في المال، هب أنك أديت الزكاة ورأيت إنسانًا جائعًا تتركه يموت من الجوع إلى أن يحول الحول؟ أهذا معقول؟ لا، لا بد أن تطعم المسكين.

فإذا لم تستطع أن تطعمه فحرض غيرك على إطعامه، حض على طعام المسكين: **{أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ 1 فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ 2 وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ}** [الماعون: 1 - 3]. الإنسان الكافر الذي لا دين له هو ذلك الإنسان صاحب القلب القاسي المتحجر الذي لا يرق على ضعيف ولا يرحم مسكينًا **{فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ}**. يدفعه ويقهره بعنف **{وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ}**. الذي لا يحض على طعام المسكين هو من أصحاب الشمال ... من يأخذ كتابه بشماله ويستحق النار **{خُذُوهُ فَغُلُّوهُ 30 ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ 31 ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ}** [الحاقة: 30 - 32] لماذا؟ **{إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ 33 وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ}** [الحاقة: 33، 34].

كان أبو الدرداء ررر يقول لزوجته أم الدرداء: يا أم الدرداء، إن لله سلاسل لم تزل تغلي بها مراجل النار منذ خلق الله النار إلى اليوم، قد كسرنا نصفها بالإيمان بالله، وبقى النصف الآخر يا أم الدرداء، فحضي على طعام المسكين حتى نكسر السلسلة كلها.

وصف الله المجتمع الجاهلي وذمه بقوله: **{كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ 17 وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ}** [الفجر: 17، 18]. اليتيم ضائع في المجتمع الجاهلي، والمجتمع الجاهلي مجتمع أناني، كل إنسان فيه مشغول بنفسه ... بشواته ... بمصالحه المادية، أما المجتمع المسلم فهو يتحاض على طعام المسكين. يقول الأستاذ الإمام محمد عبده: إن هذه الآية: **{وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ**

طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ} [الفجر: 18] أصل في وجوب إنشاء الجمعيات الخيرية التي ترعى وتعني بأمور الضعفاء والفقراء واليتامى والمساكين.

هذا هو المتجمع المسلم.

دور العمل الخيري في الحفاظ على عقيدة الأمة:

العمل الخيري عمل أساسي في المجتمع المسلم، وخصوصًا إذا تعرض هذا المجتمع للتهديد في عقيدته، أو في قيمه، أو في هويته، وأصالته، كما نرى اليوم هناك مجتمعات إسلامية تهددها الغزوات التنصيرية، وتهددها العقائد المستوردة كما قال سيدنا أبو ذر: إذا ذهب الفقر إلى بلد قال له الكفر خذني معك! معنى الكفر: الشيوعية أوالتنصير أو غير ذلك من الدعوات الإلحادية والإباحية، الفقر يضعف مقاومته ويجعله فريسة لتلك الأفكار الغازية من الشرق أو من الغرب. ومن هنا كان على المسلمين أن يقاوموا هذه الموجات.

وعندما اجتمع المنصرون الأمريكن في سنة (1978م) في ولاية «كلورادو» ـ اجتمع مائة وخمسون من عتاة المبشرين المنصرين بهدف معلن، هذا الهدف هو تنصير المسلمين في العالم، وأنشأوا لذلك معهدًا سموه: معهد زويمر مهمته تخريج متخصصين في تنصير المسلمين، ورصدوا لهذا الهدف «ألف مليون دولار» جمعوها في ليلة واحدة، ألف مليارديركل واحد عليه مليون جمعوا الألف مليون ـ في ذلك الوقت طفت في عدد من أقطار المسلمين ادعو إلى مقاومة هذه الموجة الغازية المكتسحة الجديدة، ودعوت

إلى إنشاء مؤسسة لمقاومة هذا التيار[139]، وانتهينا إلى إنشاء الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية.

لم يكن هدفنا أن نؤسلم النصارى كما يريدون هم تنصير المسلمين، إنما كان هدفنا أن نحمي المسلمين ... نحمي الوجود الإسلامي من هذه الغزوة، وقلنا: علينا أن نجمع ألف مليون دولار، لنستثمرها وننفق من ريعها وعوائدها على المشروعات الخيرية التي تحمي المسلمين. وقلنا إن المسلمين أكثر من ألف مليون في العالم، لو دفع كل واحد في المتوسط دولارًا لجمعنا الألف مليون دولار، ورفعنا شعارًا يقول: ادفع دولارًا تنقذ مسلمًا. كان اليهود قديمًا رفعوا شعارًا في أول أحلامهم في الهجرات الجماعية إلى أرض فلسطين يقول: ادفع دولارًا تقتل عربيًا. نحن لا نريد أن نقتل أحدًا، قلنا: ادفع دولارًا تنقذ مسلمًا.

ومع هذا أيها الأخوة أتدرون ماذا جمعنا منذ حوالي عشرون عامًا؟ لم نجمع أربعين مليونًا! هناك أشياء كثيرة أعمال خيرية من الزكاة والصدقات والأوقاف، ولكن الهدف الأصلي الذي أقمنا من أجله الهيئة: أن نجمع ألف مليون نستثمرها وننفق من عوائدها، لم يتحقق عُشره ولا أقل من عشره.

أمة الإسلام هذه كله لم تستطع أن تجمع ألف مليون دولار لأنها أمة لا قيادة لها. مشكلة الأمة أنه ليس لها قيادة، ليس عندنا بابا ولا ماما! هم عندهم

---

(139) طرح الشيخ القرضاوي هذه الفكرة في خطبة «المسلمون في مواجهة القوى المعادية» التي نشرت ضمن الجزء الأول في هذه السلسلة انظر (ص 135 - 137). وانظر أيضًا خطبة «مشروع الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية» في الجزء الخامس (ص 205 - 216).

قياداتهم ونحن ليس عندنا قيادات.

المهم أيها الإخوة أن العمل الخيري رغم ضآلته هذه في مقابل ما يجمعون - قال لي بعض الإخوة: أن الألف مليون دولار التي جمعوها في «كلورادو» هي مرة من المرات ولكنهم جمعوا بعد ذلك مليارات ومليارات، وعندما يريدون المليارات عندهم طرق شتى لجمعها - هذا العمل الخيري المحدود أتعبهم وأقلقهم، ويريدون أن يوقفوه حتى ينفتح المجال أمام الهجمات التنصرية ليعملوا.

هناك أربعة ملايين وسبعمائة وخمسون ألف منصر ومنصرة في أنحاء العالم! هؤلاء يعملون وتدفع لهم الملايين بسهولة، ونحن إذا جمعنا مبالغ ضئيلة لجمعياتنا الخيرية لتتحرك بها هنا وهناك نوصف بأننا إرهابيون، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أزعجهم هذا العمل الخيري لأنه يقف ضد هجمات التنصير، ولأنه - من ناحية أخرى - يثبت وحدة الأمة الإسلامية. من فوائد العمل الخيري وثمراته المباركة أنه وحد مشاعر الأمة. السياسة للأسف لم تستطع أن توحد الأمة ... لم تستطع أن تجعلها تقف موقفًا إيجابيًا موحدًا، ولكن هذه الجمعيات استطاعت أن توحد مشاعر الأمة ... أن تجعل المسلم في المشرق يتحرك ويتألم ويتحرق من أجل إخوانه في المغرب. المسلم في جاكرتا يتحرك من أجل إخوانه في فلسطين، أو إخوانه في السودان، أو إخوانه في الصومال، أو إخوانه في تشاد. هذا هو عمل مهم وحد مشاعر الأمة.

حينما نجد جمعية خيرية في قطر، أو في المملكة العربية السعودية، أو في

الإمارات، أو في الكويت، أو في أي بلاد من بلدان الخليج تعمل من أجل إخوانها في أفغانستان، أو في الشيشان، أو في البوسنة والهرسك، أو في كوسفو، أو في أفريقيا، حينما نجد هذه الجمعيات الخيرية تتحرك على مستوى العالم، وتجعل المسلم يحس بآلام إخوانه المسلمين، هذا كسب هائل، ربما لم نلحظه نحن المسلمين، ولكن الذين يقفون بالمرصاد بأجهزتهم الراصدة الحساسة يدركون هذا الأمر، ولذلك يريدون أن يقفوا في سبيله، يريدون أن يقتلوه، وأن يئدوه حتى لا يؤتي أكله، ولكن هيهات إن شاء الله.

سيظل العمل الخيري قائمًا، وسيظل العمل الخيري ممتدًا، وسيحقق أهدافه، ولا يمكن أن تستسلم هذه الأمة لما يُراد بها.

مصادر تمويل العمل الخيري:

إن عندنا موارد ومصادر لتمويل العمل الخيري، بعضها من الزكاة الفريضة الركنية، وبعضها من صدقات التطوع التي يبغي بها المسلم وجه الله، وبعضها من وصايا الأموات «**إن الله تصدق عليكم عند وفاتكم بثلث أموالكم ...**»[140] الذين يوصون بالثلث أو بالربع أو بالخمس، أو بما قل من ذلك أو كثر، هذه الوصايا من أهل الخير والبر هي رصيد للعمل الخيري. الصدقات الجارية التي تبقى للإنسان بعد موته وتتمثل في أوقاف خيرية تميز بها المسلمون خلال العصور، وثبت في حُجج الوقف أن المسلمين لم يتركوا مكانًا للبر أو موضعًا للخير إلا ووقفوا عليه أموالهم، حتى الكلاب الضالة،

(140) رواه أحمد في «المسند» (27482) عن أبي الدرداء وقال محققو «المسند»: حديث محتمل للتحسين بشواهده، ورواه ابن ماجه في «الوصايا» (2709) عن أبي هريرة، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (2190).

حتى الخادم الذي يكسر الصحن ويخشى أن يُؤذى من سيده أو من سيدته، وقف بعضهم وقفًا للصحون المكسورة، إذا وقع الصحن من يد الخادم وانكسر يذهب به إلى هذا الوقف ليعطوه صحنًا آخر.

انظروا إلى هذه الرحمة التي تمثلت في الوقف الإسلامي، حتى وُجد وقف لإيناس المرضى، ناس يذهبون إلى المرضى في مستشفياتهم ليعودوهم، ربما ليس لهم أهل ولا أقارب، فيذهبون لوجه الله ويؤنسون المريض ويقولون له: ما شاء الله وجهك اليوم مشرق ويدخل عليه السرور والأمل، لأن الجانب النفسي له أثره في التعجيل بشفاء المريض(141).

هذه كلها موارد ومصادر لتمويل العمل الخيري.

نحن أمة الخير: {... فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ...} [البقرة: 148، المائدة: 48] {...يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ...} [الأنبياء: 90، المؤمنون: 61].

نحن أمة الخير، وخير الخير هو الإسلام.

هذه الأمة ستظل في عملها الخيري، ستظل تداوي الجراح، ستظل تُسعف المصابين، ستظل تُغيث الملهوفين، ستظل تمسح دمعة المنكوبين.

هذا هو الذي يجب علينا، ولا يمكن أن نعتبر هذا العمل الخيري جريمة.

إن من المصائب أن نعتذر عن العمل الخيري، ونعتذر عن التعليم الديني، هذه الأشياء التي نعتز بها ونفخر ونغالي ونباهي، أصبحت جريمة،

---

(141) راجع ما ذكرناه في كتابنا «الإيمان والحياة» (ص 246) وما بعدها، طبعة مؤسسة الرسالة (1996م).

وأصبحت وصمة عار. لله در البحتري حينما قال:

إذا محاسني اللاتي أُدل بها   كانت ذنوبي فقل لي كيف

كيف نعتذر من محاسننا ومآثرنا التي يعتبرها هؤلاء الناس ذنوبًا؟!

لن نعتذر، وسنمضي في طريقنا، وصدق الله العظيم إذ يقول: **{وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}** [التوبة: 105].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

فضل العشر الأوائل من ذي الحجة:

أيها الإخوة: نحن مقبلون على شهر حرام ... شهر ذي الحجة، وهو من الأشهر الحرم ومن أشهر الحج: **{ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ...}** [البقرة: 197]. وفي أوائل هذا الشهر الكريم عشرة أيام أقسم الله بها في كتابه: **{وَٱلْفَجْرِ 1 وَلَيَالٍ عَشْرٍ}** [الفجر: 1، 2]. وهي من أفضل الأيام عند الله، والعمل الصالح فيها مضاعف الأجر والمثوبة عند الله، كما جاء في حديث ابن عباس رررب(142)، التهليل والتكبير والتسبيح والتحميد والصدقة والصلاة وتلاوة القرآن، كل هذا تزيد مثوبتها عند الله في أيام عشر ذي الحجة.

والصيام في هذه الأيام سنة مؤكدة، وأوكد هذه الأيام، يوم التاسع من ذي

---

(142) سبق تخريجه في (ص 52).

الحجة ... يوم عرفة فهو يوم يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيه: «**إني أحتسب على الله تعالى أن يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعده ...**»(143).

فاحرصوا على أن تستفيدوا من هذه الأيام المباركة ليكون ذلك لكم رصيدًا عند الله تتت، فما أكثر ما نحتاج إلى رصيد الحسنات ليقاوم ما نقترفه من السيئات، وما عند الله تعالى لن يضيع: {**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا**} [النساء: 40].

عباد الله: يقول الله تتت: {**إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا**} [الأحزاب: 56].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

{**... وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ**} [العنكبوت: 45].

* * *

---

(143) سبق تخريجه في (ص 52).

(13)
لا لضرب العراق

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

الزمن الأمريكي:

قدر علينا أن نعيش حتى ندرك الزمن الأمريكي، والزمن الصهيوني، ولا أدري أيهما هو الأصل والآخر هو التبع؟ هل الصهاينة تابعون للأمريكان، أم الأمريكان تابعون للصهاينة؟ أم ذاب أحدهما في الآخر كما يذوب الملح في الماء، أو تزوج أحدهما الآخر زواجًا كاثوليكيًا لا طلاق فيه، وأيهما الزوج وأيهما الزوجة، أو اختلط أحدهما بالآخر كما تختلط أجزاء المركب الكيماوي حينما تصبح الأشياء شيئًا واحدًا؟

عشنا حتى أدركنا الزمن الأمريكي والزمن الصهيوني ... زمن السامري.

كان الناس في القرن الماضي يعيشون تحت سلطان قوتين متنازعتين متنافستين، وكان اختلاف الأقوياء رحمة للضعفاء. كان سلفنا يقولون: اللهم اشغل الظالمين، وأخرجنا من بينهم سالمين.

أمريكا ومنطق الجبروت:

ولكن المصيبة حينما يوجد ظالم واحد يستكبر في الأرض بغير الحق، ولا يجد قوة تعارضه، ولا يجد أحدًا يجرؤ أن يقول له: لم؟ ناهيك أن يقول له: لا.

هذه هي مشكلة عالمنا اليوم: أن هناك قوة واحدة تنفرد بالعالم، وتريد أن تحكم العالم كله، قوة متجبرة، متألهة في الأرض، تقول ما قال نمرود حينما حاجَّه إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك، { ... **إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ «أي نمرود» أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ** ...} [البقرة: 258]. قوة تقول ما قال فرعون: { ... **مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي** ...} [القصص: 38]، {**أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ** ...} [النازعات: 24]، { ... **أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ**} [الزخرف: 51].

هكذا تقول أمريكا: ألست الوحيدة التي تتصرف في العالم ولا يعارضها أحد؟

تقول أمريكا ما قالت عاد قديمًا، وقد حكى الله عنهم: {**فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَ لَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ** ...} [فصلت: 15].

تنفرد أمريكا اليوم بحكم العالم والتصرف في العالم، وتريد أن تسوق الناس بعصاها كما يسوق الراعي غنمه. لا تريد لأحد أن يفكر برأسه، ولا تريد لأحد أن يختار بإرادته. هي التي تفكر للناس، وهي التي تختار للناس، وعلى الناس أن يسمعوا ويطيعوا.

اتخاذ الإسلام عدوًا بديلًا عن الشيوعية:

جاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر ـ والتي مر عليها عام أو أكثر من عام ـ لتعطي أمريكا الفرصة ولتمنحها المبرر، لضرب من تشاء، والعدوان على من تشاء.

ولكن هل كانت أحداث سبتمبر هي السبب الحقيقي لما يجري اليوم؟ الواقع يقول: لا.

الذين تابعوا المواقف وكانوا يبحثون ويدرسون، عرفوا أن أمريكا من قبل سبتمبر بسنوات، وحينما سقط الاتحاد السوفيتي كانت تبحث عن عدو جديد، ورشح لها رجالها ومفكروها «الإسلام» عدوًا جديدًا!

إنها في حاجة إلى عدو، تعبئ المشاعر، وتحشد العواطف، وتجند قوى الشعب لكراهية هذا العدو ومقاومته.

كان الاتحاد السوفيتي هو العدو الذي قال عنه «ريغن»: إنه دولة الشر. سقطت دولة الشر. فما البديل؟ قالوا: الإسلام هو البديل! هو المرشح لعداوة المستقبل! هو العدو المنتظر!

دعوى صدام الحضارات:

وكتب الكاتبون من فلاسفة الفكر السياسي، وفلاسفة الاستراتيجية السياسية المقربين من الخارجية الأمريكية ومن السلطات التنفيذية، كتب هؤلاء عن صدام الحضارات وصراع الثقافات، وقالوا: إن في العالم حضارات سبعًا أو ثمانيًا يمكن أن يتفاهم معها إلا حضارتين: الحضارة الإسلامية والحضارة الكنفوشيوسية - كونفوشيوس هذا فيلسوف من فلاسفة الصين القدماء، يقصدون الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية - ومن الخطر كل الخطر أن تتفاهم هاتان الحضارتان فتكونان قوة ضدنا. ولذلك ينبغي أن نتفاهم مع الحضارة الكونفوشيوسية ونقترب منها. وإذن تبقى هناك حضارة واحدة، هي الحضارة الناشرة التي تتأبى على أن تنصاع، وأن تخضع، وأن تلين قناتها،

وأن تسير في الركاب، وأن تتمسح بالأعتاب، إنها حضارة الإسلام.

وكلمة حضارة تخفي وراءها الديانة، يقصدون بصراحة: دين الإسلام. هذا هو الدين المخوف.

ورغم أن هذا الدين في فترة ضعف، وفترة استخذاء، وفترة هوان، إلا أنهم قالوا: إن إمكانية القوة كامنة فيه، ولهذا يجب أن نحذر هذا المارد أن يخرج من قمقمه يومًا ما، إنها قوة كامنة فلا بد أن نتربص بها، ونكيد لها.

مؤامرة على الإسلام دبرت بليل:

هكذا كانوا يفكرون قبل الحادي عشر من سبتمبر.

وهناك أحد الصحفيين المعروفين: الأستاذ محمود المراغي، كتب كتابًا سماه: «حرب الجلباب والصاروخ»! جمع فيه وثائق وزارة الخارجية في إبرايل سنة (2001م)، أي قبل أحداث سبتمبر بأشهر. وهناك تحضير للأعداء والخصوم المرادين، تحضير لما جرى بعد ذلك.

كانت الفرصة تهيأ، وكان المناخ يعد لضربات مقبلة لهذا العدو المنتظر. سموه: الخطر الأخضر. بعد أن زال الخطر الأحمر المتمثل في الاتحاد السوفيتي، وتقاربوا مع الخطر الأصفر وهو الخطر الصيني، تقاربوا معه وتفاهموا، بقى خطر واحد، هو: الخطر الأخضر، أي خطر الإسلام.

والحقيقة أن الإسلام ليس خطرًا، الإسلام رحمة الله للعالمين، وهدايته للناس أجمعين. الإسلام لا يكون خطرًا إلا على الإلحاد والاستعباد، والفساد والظلم أما الإسلام في ذاته فليس خطرًا على أحد.

ولكنهم يريدون أن ينفردوا بالعالم وأن يحكموا العالم وحدهم، فلا يريدون أي قوة حاضرة، ولا أي قوة محتملة أن تظهر في المستقبل.

وجاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر - أو أيلول - فكانت الفرصة الملائمة.

ولا نريد أن نخوض في هذه الأحداث، ومن وراءها، ومن فعلها، فقد دناها من أول يوم، وأنكرتها في الصحف القطرية والعربية، وفي «إسلام أون لاين» - **ISLAM ONLINE** - وفي هذا المسجد، أنكرنا هذه الفعلة أيا كان فاعلها، مسلمًا كان أم غير مسلم، عربيًا كان أم غير عربي.

أنكرنا هذا الأمر، أنكرنا الهدف، وأنكرنا الوسيلة.

أما الهدف وهو ضرب أبراج تجارية، يعمل فيها موظفون مسالمون من مختلف الأديان والجنسيات، وفيهم عرب ومسلمون، فهذا هدف غير مشروع في ذاته، ليس هدفًا حربيًا.

والوسيلة اتخاذ طائرات مدنية يركبها ركاب مسالمون، ليس لهم علاقة لا بالسياسة ولا بالحرب، ولا ناقة لهم ولا جمل، قد تكون أنت وقد أكون أنا من ركابها. اتخذوا هذه الطائات أداة قاذفة، أو صاروخًا موجهًا ليضربوا تلك الأهداف، وهذا لا يجوز.

وأنا من سنين طويلة منذ بضعة عشر عامًا، أصدرت فتوى(144) حرمت فيها خطف الطائرات، لأن المخطوفين لا ذنب لهم، ليس بين الخاطف وبين

---

(144) انظرها في الجزء الثاني من «فتاوى معاصرة» (ص 497 - 502).

ركاب الطائرة أي مشكلة، هم لهم مشكلة مع حكومة ما فيريد أن يطلب منها مطالب: إفراج عن مسجونين ... عن أسرى ... عن كذا، ويجعل هؤلاء الركاب رهائن عنده، فهو يعاقب أناسًا برآء بذنب أناس آخرين، والقاعدة: **{أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ}** [النجم: 38]، وأن **{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ}** [المدثر: 38]، وأن المسؤولية مسؤولية فردية.

لهذا أنكرنا أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ولكنا طالبنا أمريكا في ذلك الوقت ألا تتصرف بعجلة، فإن العجلة من الشيطان، وألا تندفع وراء دافع الغضب، فقد قال رسولنا عليه الصلاة والسلام: «**لا يقضي القاضي وهو غضبان**»(145). لا بد أن تتريث حتى تهدأ العاصفة، ويزول الانفعال، وتنظر في الأمر بروية وأناة.

ولكن أمريكا بمنطق القوى لم تتريث ولم تتأن، وأسرعت بالاتهام، وعاقبت المتهم قبل أن تحاكمه بل قبل أن تعرفه مائة في المائة (100%)، إنما قالت: «بن لادن» لأنه هو المشتبه الرئيسي عندها، ولكن هذا المشتبه عاقبته، وعاقبت تنظيمه، وعاقبت دولًا أخرى منها أفغانستان. عاقبت هذا الشعب المسكين الذي قدم ما قدم من ملايين الضحايا، بعضهم شهداء وبعضهم معوقون. أصبح هذا الشعب - الذي فيه ملايين الأرامل واليتامى - عرضة لكل معتد. كان عرضة من قبل للاتحاد السوفيتي، أصبح من بعد عرضة للعدوان الأمريكي.

دنّا أحداث الحادي عشر من سبتمبر وقلنا في ذلك الوقت لأمريكا: إنها

---

(145) سبق تخريجه في (ص 84).

فرصة لتراجع فيها سياستها الخارجية وتحلل لماذا حدث هذا؟ لماذا يكره الناس أمريكا في المشارق والمغارب، وقد شاهدت أمريكا هذا بعينيها ولمسته بيدها في مؤتمر «دربان» في جنوب أفريقيا، وجدت العالم كله ضدها، وفي المؤتمرات العالمية المختلفة للبيئة وغيرها يخرج الناس يهتفون بسقوط أمريكا وبالعداء لأمريكا.

ألا يدفع هذا هؤلاء القوم أن يبحثوا: لماذا؟

العاقل هو الذي يهتم بهذا السؤال، بمعرفة الأسباب. العاقل لا يهتم بسؤال: ماذا؟ ومن ذا؟ وكيف؟ ولكن يهمه سؤال: لماذا؟ لا بد للإنسان أن يعرف الأسباب إن كان عاقلًا حتى يعالجها.

القرآن الكريم علم المسلمين أن يبحثوا عن الأسباب إذا أصابتهم مصيبة في حرب أو سلم. بعد غزوة أحد قال الله تعالى: {**أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ ...**} [آل عمران: 165]. من أين جاءنا هذا؟ من أين هزمنا وقدمنا سبعين من الشهداء، وقد انتصرنا من قبل في بدر، فقتلنا سبعين وأسرنا سبعين {**قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا**}، {**قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ**} ابحثوا في أنفسكم.

أمريكا وتدخلها في شؤون الآخرين:

ليت الأمريكان بحثوا في أنفسهم وعرفوا هذا، وحاولوا أن يغيروا من سياستهم. ولكن الأمريكان يتصرفون بمنطق الفتوة ... «القبضاي»، لا بمنطق الرجل الحكيم، يتصرف بالعضلات لا بالعقل. فما سألوا أنفسهم هذا السؤال، وربما سألوه وأجابوا عنه إجابة خاطئة، واتهموا العالم ولم يتهموا

أنفسهم: أن العالم هو الذي ظلمهم ... العالم يحسدهم على ما هم فيه! وهذا ليس صحيحًا، لأن العالم قبل ذلك ما كان يكره أمريكا، بالعكس، كان الناس يتعاملون مع أمريكا معاملة طيبة، لأنها لم تستعمر البلاد كما استعمرتها بريطانيا أو فرنسا أو إسبانيا أو غيرها من الدول، كان الناس يتصرفون معها تصرفًا طبيعيًا.

ولكن حينما أرادت أن تتدخل في شؤون الناس، وأن تفرض على الناس ما تريد، وأن تجعل الناس عبيدًا لها، هناك كرهها الناس.

الناس يكرهون التسلط، ويكرهون الظلم، ويكرهون الاستكبار في الأرض بغير الحق، يكرهون كل جبار عنيد **{وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ 15 مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ ...}** [إبراهيم: 15، 16].

لم تبحث أمريكا: ما الذي جعل مجموعة من الشباب يقومون بهذا العمل إن كان هذا صحيحًا ويقينًا؟ لم تبحث لأنها في غنى عن هذا البحث.

هي تريد أن تؤدب العالم كله بقوتها الباطشة ... بطغيانها، هذا الطغيان الذي حدثنا القرآن عن سببه حين قال: **{كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ 6 أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ}** [العلق: 6، 7]. ليس الاستغناء سببًا في الطغيان، فقد يكون الإنسان غنيًا ولا يطغى على أحد. قد يكون «الغني الشاكر» كما كان كثير من الصحابة الأخيار مثل عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، ونعم المال الصالح للرجل الصالح. الخطر ليس في الغنى، ولكن في رؤية الإنسان نفسه مستغنيًا عن الآخرين، على حين يحتاج الآخرون إليه، هذه الرؤية المغرورة هي سبب الطغيان. وهي سبب طغيان أمريكا.

لماذا تريد أمريكا غزو العراق، وضرب العراق؟ تقول أمريكا أنها تضرب العراق لمصلحة العراقيين أنفسهم، لإنقاذهم من هذا الحكم المستبد المتسلط، من حكم صدام حسين.

فهل هذه الدعوى صحيحة؟ كلا. لقد أيدوا صدامًا من قبل في حربه لإيران، وأمدوه بما أمدوه به لضرب الثورة الإسلامية، ولماذا صدام وحده، وهناك طغاة كثيرون يحكمون العالم العربي والعالم الإسلامي، وبينهم وبين أمريكا علاقات حميمة، فلماذا التفريق بين المتساويين؟!

المطامع الأمريكية في العراق:

الواقع أن أمريكا تريد أن تضرب العراق لهدف واحد: إنها تريد تدمير القوة العراقية، قوة الجيش العراقي وقوة الشعب العراقي.

العراق يملك قوة لها اعتبارها: قوة عسكرية وقوة علمية. العراق استطاع في سنوات الماضية أن يؤسس قاعدة علمية متطورة، حتى قال الغربيون: إن العراق يستطيع في سنة أو أقل أن ينشئ قوة نووية.

فهم يريدون تدمير هذه القوة. لحساب من؟

إن هذا كله لحساب إسرائيل، لحساب الصهيونية، لخدمة الكيان الصهيوني وحماية الكيان الصهيوني، لا لشيء آخر. ليس هذا حبًا في الكويت، ولا حبًا في الخليج. وإنما هو حماية لهذا الحليف، أقول: حليف؟ هو أكثر من حليف الشريك؟ هو أكثر من شريك. قلت: إنه اختلاط كاختلاط المركب الكيماوي بين أمريكا وإسرائيل. فأمريكا هي إسرائيل، وإسرائيل هي أمريكا!!

هذا ما تريده أمريكا. تريد أن تدمر القوة العراقية لمصلحة إسرائيل.

ومن هنا يجب أن نعلم هذه الحقيقة: المقصود ليس صدامًا. نحن لسنا مع صدام ولا مع حزب البعث، ووقفنا ضده أيام غزو الكويت. ولكنا مع الشعب العراقي، نحن مع الوطن العراقي، نحن مع هذا الجزء الغالي من أوطاننا ومن أمتنا، نحن ضد الظلم والجبروت المستكبر في الأرض بغير الحق.

نقف مع الشعب العراقي ونقول لأمريكا: لا.

ويجب أن يقول العرب لأمريكا: لا.

ويجب أن يقول المسلمون جميعًا لأمريكا: لا.

ويجب أن يقول الشرفاء والأحرار في العالم كله لأمريكا: لا.

يجب أن نقول لأمريكا التي تريد أن تضرب العراق وتدمر العراق: لا، ثم: لا، ثم: لا.

هذا ما يجب علينا عربًا ومسلمين وأحرارًا في العالم.

لا يجوز أن ندع أمريكا تضرب العراق، والله لو ضربت العراق وكان لها ما أرادت، فإنها ستضرب بعد ذلك غير العراق، والمثل العربي يقول: إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض.

حينما خان الثور الأسود صديقه الثور الأبيض وفرط فيه، وترك الأسد يأكله، لم يكن يعلم أن الأسد سيأكله بعد ذلك، وقد كان. وحينما هجم عليه قال له: إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض وسكت عليه. لو كنت أنا والثور الأبيض وقفنا بقروننا ننطح وندافع ما جرأت علينا.

نحن نستطيع أن نفعل الكثير إذا تجمعت القوة، إذا وقفنا صفًا واحدًا

«كالبنيان المرصوص يشد بعضنا بعضا»[146]، وقلنا لأمريكا: لا. وهذا هو الواجب علينا بحكم الدين، وبحكم القومية، وبحكم المصلحة، وبحكم المصير المشترك، أن نقول: لا، ثم: لا.

لا يجوز أن نفرط في هذا الأمر، وإلا كان الدور علينا لدًا بعد بلد، ووطنًا بعد وطن، وحاكمًا بعد حاكم.

أمريكا ليس لها أصدقاء، والغرب كله، قال أحد فلاسفتهم يومًا: ليس لنا عداوات دائمة ولا صداقات دائمة، ولكن لنا مصالح دائمة.

أمريكا كانت صديقة لفصائل الجهاد الأفغاني، وكانت صديقة لهؤلاء الأفغان العرب الذين كونوا «القاعدة» بعد أن طردوا من بلادهم، وأصبحوا مجرمين في نظر أوطانهم، كانت صديقة لهؤلاء ثم انقلبت عليهم.

وأمريكا كانت صديقة لصدام حينما كان يحارب إيران، وكان لها هدف في ضرب إيران، وإضعاف إيران وقطع الطريق على هذه القوة النامية، ثم خاصمت صدام بعد ذلك.

هؤلاء ليسوا أصدقاء حقيقيين، فقد كانوا أصدقاء لبلاد الخليج، وأصدقاء للمملكة العربية السعودية، وأصدقاء لمصر، والآن أصبحنا نراهم يديرون لهم ظهر المجن. وحتى لو كانوا أصدقاء فالشاعر العربي يقول:

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديق فكان أعلم بالمضرة

---

(146) سبق تخريجه.

وخصوصًا مثل هذا الصديق الذي لا تقوم صداقته على عواطف حقيقية، ولا على مودة حقيقية، وإنما هو صديق مصالحه ... صديق منفعته، ومثل هذا لا يعتمد عليه أبدًا.

واجبنا نحو العراق:

إننا نقف مع الشعب العراقي، نقف معه بأنفسنا، ونقف معه بأموالنا، ونقف معه بدعائنا، ونقف معه بقلوبنا.

نقف مع الشعب العراقي لأنه منا ونحن منه.

لا نوافق على كثير من سياسات الرئيس العراقي، ولكن هذا شيء، وضرب العراق شيء آخر.

حينما يضرب العراق هل سيضرب صدام وحده؟ ستضرب البنية التحتية للشعب العراقي، وتضرب القوة العسكرية للجيش العراقي.

وإننا لنحيي السياسة الحكيمة التي لجأت إليها القيادة العراقية، حينما قطعت الطريق على الدبلوماسية الأمريكية فقررت القبول بعودة المفتشين الدوليين، بلا شرط ولا قيد، ألستم تقولون: إن العراق يملك أسلحة الدمار؟ تعالوا فتشوا.

والعجب: إذا كان العراق يملك أسلحة الدمار، فلماذا لم تقاوموا أسلحة الدمار التي تملكها إسرائيل، وهي تملك الأسلحة الكيماوية والجرثومية، والأسلحة النووية؟ لماذا تحرمون هذا وتحللون ذاك؟

يفرضون على العالم أن يدخل اتفاقية حظر الأسلحة النووية، ولا يفرضون ذلك على إسرائيل!

إسرائيل هي الطفل المدلل، الذي له كل شيء، وليس عليه أي شيء. له كل الحقوق وليس عليه أي واجب.

يراد ضرب العراق لأنه يملك أسلحة الدمار! وقد دخل المفتشون العراق سنوات، وحوصر العراق، وجاع الشعب العراقي، ومات الآلاف بل ربما الملايين من أبناء الشعب وأطفال الشعب طوال تلك السنوات، وقرر المفتشون أن العراق تخلص من أسلحة الدمار عنده.

ومع هذا الأمريكان لم يكتفوا بهذا القرار، وقالوا: إنه لا بد من ضرب العراق! هذه هي سياستهم.

إن قضية أسلحة الدمار، أو قضية حقوق الإنسان هي تعلّات، هي تكأة لأمريكا، وليست حقيقية.

أمريكا ستضرب العراق وافقت الأمم المتحدة أم لم توافق، وافق العرب أم لم يوافقوا. إن القوة الطاغية لا تنتظر أحدًا، إن منطقها:

تحكم الذئب فاخضع أيها   تكلم السيف فاسكت أيها القلم!

إنها تتصرف بمنطق الفتوة ... بمنطق القوى الذي لا يخشى الله، ولا يستحي من الناس.

ومثل هذا لا تردعه إلا قوة مناسبة، نرجو أن تظهر إن شاء الله.

كل ما نريده من العرب والمسلمين: ألا يساعدوا العدوان الأمريكي في ضرب إخوانهم في العراق، وهذا هو الحد الأدنى.

إذا لم تستطيعوا يا عرب أن تقفوا مع إخوانكم، وتدافعوا عنهم بحكم اتفاقية

الدفاع المشترك والاشتراك في الجامعة العربية، إذا لم تستطيعوا أن تحققوا عروبتكم التي تتغنون بها - دعوكم من الإسلام الذي تنتسبون إليه - فأقل ما يطلب منكم: ألا تساعدوا العدوان الأمريكي ... أن تكفوا أيديكم عنهم ... ألا تسمحوا لهم باستخدام أرضكم ومطاراتكم وأجوائكم لضرب إخوانكم. لا بد أن تعلنوا هذا حتى يعرف الناس موقفكم.

وهذا ما قرره وزراء الخارجية العرب في اجتماعهم بالجامعة العربية. ونريد لهذا القرار أن يكون حقيقة بالفعل، لا مجرد كلام باللسان.

لا نملك أيها الإخوة إلا أن ندعوا لإخوتنا في العراق ... لشعب العراق ووطن العراق أن يثبت الله أقدامهم، وأن ينير بصائرهم، وأن يردهم إليه ردًا جميلًا، وأن تكون هذه الفرصة مناسبة ليعودوا فيها إلى الله، ويستمسكوا فيها بالعروة الوثقى، ويرجعوا إلى هذا الدين، الذي هو مصدر قوة هذه الأمة، ومصدر عزة هذه الأمة، ومصدر التمكين لهذه الأمة.

اللهم هيئ لإخواننا في العراق من أمرهم رشدا. اللهم افتح لهم فتحًا مبينًا، واهدهم صراطًا مستقيمًا، وانصرهم نصرًا عزيزًا، وأتم عليهم نعمتك، وأنزل في قلوبهم سكينتك، وانشر عليهم فضلك ورحمتك، وردهم إلى دينهم ردًا جميلًا.

{ ... رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروا إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

* * *

(14)
قضية العراق[147]

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

سر غيابي عن المنبر:

منذ آخر جمعة من شعبان لم يقدر لي أن اعتلي هذا المنبر. ومن عادة الناس إذا تغيبت طويلًا عن المنبر لسبب أو لآخر، أن يظنوا الظنون، ويتوهموا الأوهام، ويشيعوا الأقاويل. فقال من قال: إني منعت من صعود هذا المنبر لحساسية الموقف في هذه الأيام.

وأحب أن أقول لكم وقد قلت ذلك من قبل: إني منذ وطئت قدماي أرض قطر ـ منذ اثنتين وأربعين سنة ـ وأنا أعتلي المنابر للخطبة، وأجلس في المساجد للدرس، وأحاضر في الأندية، وأكتب في الصحف، وأذيع في الإذاعة، وأقدم البرامج في التلفزيون. أقول ما أريد أن أقول حسب ما يمليه علي ديني وضميري، وأتعرض للقضايا العامة دائمًا، بحكم تكويني ورسالتي وفهمي للإسلام بشموله وتكامله، عقيدة وشريعة، ودينًا ودنيا، ودعوة ودولة، وبحكم إيماني برسالة العالم المسلم، ودوره في إيقاظ الشعب وتنويره، وتوعيته بقضايا الإسلام الكبرى، حتى لا يظل معزولًا عن الحياة وعن

---

(147) ألقيت في جامع عمر بن الخطاب بالدوحة في 4 محرم 1424هـ الموافق 7 مارس 2003م.

واجبه نحوها.

رغم هذا كله، لم يقل لي أحدفي قطر يومًا ما: لا تقل كذا وقل كذا، أو أنك تجاوزت في كذا أو أسرفت في كذا. لا والله، وقد عايشت أمراء ثلاثة في قطر، لم يقل لي أحد منهم ذلك. وربما كان على بعضهم ضغوط من جهات معينة، ولكن لم يفعلوا ذلك.

هذا أقوله للإنصاف وللتاريخ.

وقال بعض الإخوة: إن الشيخ لم يقل له أحد لا تخطب، ولكنه أراد أن لا يحرج نفسه في هذا الموقف الحساس، فانسحب مختارًا من نفسه ولم يصعد المنبر.

وأود أن أقول لهؤلاء الإخوة الأحبة: إني منذ اعتليت المنبر لأول مرة في حياتي، وأنا ابن السابعة عشرة في قريتنا الصغيرة منذ ستين عامًا، قد أخذت موثقًا مع نفسي، وموثقًا مع ربي، أن لا أقول فوق هذا المنبر إلا الحق، لا أخاف في الله لومة لائم ولا نقمة ظالم، شعاري قول الله تعالى: **{ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا}** [الأحزاب: 39].

وطالما خطبت قبل أن آتى إلى قطر وبعد أن جئت إلى قطر، ومن قبل قطر كم كلفتني هذه الخطب في السجون والمعتقلات، ولكن أحمد الله أن هذا لم يثن عزمي، ولم يحن رأسي.

سأظل أقول الحق ما حييت، وإن أحدًا لا يملك أن يقدم أجلي لحظة أو ينقص رزقي لقمة، فالأرزاق مقسومة، والآجال محتومة: **{وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ...}** [المنافقون: 11].

يا أيها الإخوة: ما منعني والله إلا المرض، منذ منتصف شهر رمضان اشتدت علي آلام الركبة اليسرى، ومنعتني بعض الأيام من الصلاة، وانقطعت عن المسجد بعض الأيام في رمضان، ثم قضيت بقية الشهر مصليًا التراويح قاعدًا. ثم اشتد علي - منذ أكثر من شهر - الألم أكثر فأكثر، فأصبحت لا أستطيع أن أصلي إلا بالإيماء. وأنا رضيت أن أخطب جالسًا وما تعودت أن أخطب جالسًا، ولكن للضرورات أحكامها(148).

أيها الإخوة الأحبة: إننا في موقف صعب، وفي أيام حاسمة، وفي لحظات رهيبة من تاريخ الأمة. في هذه اللحظات لا يسعنا إلا أن نوعي أمتنا بما يجب عليها.

إننا الآن نقول من أجل قضية العراق، وهي قضية العرب الآن، وقضية المسلمين، وقضية دول عدم الانحياز، وقضية الشرفاء والأحرار في العالم كله، حتى إن أوربا كلها نهضت لتطالب برفض الحرب ورفض العدوان على العراق. خمسة عشر مليونًا في أنحاء أوربا - وخصوصًا في البلاد التي تقف حكوماتها مع أمريكا في العدوان، في بريطانيا وفي إيطاليا وفي إسبانيا - ذهبت هذه الملايين تنادي: لا للحرب لا للعدوان.

وأعتقد أننا نحن المسلمين ونحن العرب أولى بأن نقول: لا للحرب لا للعدوان.

---

(148) تعد هذه الخطبة أول خطبة يخطبها الشيخ القرضاوي جالسًا على الكرسي في مسجد عمر بن الخطاب، على أن أول مرة خطب فيها الشيخ جالسًا كانت عند زيارته للجماهيرية العربية الليبية، قبل هذه الخطبة ببضعة أشهر.

موقفي من قضية ضرب العراق:

سألني من سألني: ما موقفك في هذه القضية؟ وأنا قد أعلنت موقفي أيها الإخوة، لم أخبئ موقفي، ولم أخرس لساني أبدًا. أعلنت موقفي في أكثر من مرة في برنامج الشريعة والحياة، وأعلنت موقفي في الصحف، وأعلنت موقفي للإعلام في بريطانيا وفي بعض البلاد الأوربية، وأعلنت موقفي لصحفيين أمريكيين زاروني هنا في قطر وسألوني.

موقفي، موقفي معروف غير مجهول، مكشوف غير مستور، لأنه لا يمكن إلا أن يكون موقف الشرع الإسلامي من هذه القضية.

موقف الشرع من ضرب بلد مسلم:

ما موقف الشرع من غزو بلد إسلامي؟ هل يجهل أحد هذا الموقف؟ هل هذا الحكم الشرعي مجهول لأحد؟

إن جميع الفقهاء من جميع المذاهب كلهم يقولون: إذا غزا الكافر بلدًا مسلمًا فإن على جميع أهله أن يخرجوا وينفروا لمقاومته وطرده من ديارهم. هذا يعتبر فرض عين على أهل البلد جميعًا، رجالهم ونسائهم، كل من يقدر على المقاومة لا بد أن يقاوم. حتى قال الفقهاء: تسقط الحقوق الفردية في هذه الحالة، فتخرج المرأة بغير إذن زوجها، ويخرج الولد بغير إذن أبيه، ويخرج الخادم بغير إذن سيده، لأنه حق الجماعة، وحق الأمة فوق حقوق الأفراد، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

على أهل البلد أن يقاوموا الغزاة خفافًا وثقالًا، مجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. فإن قدروا على طردهم وإخراجهم من ديارهم فبها ونعمت،

وإلا انتقلت الفرضية إلى جيرانهم ومن يليهم من المسلمين، فيجب عليهم أن ينضموا إليهم ويقاوموهم بما يستطيعون من الرجال والمال والسلاح، ويصبحوا جماعة واحدة في مقاومة الغزاة المحتلين. فإن عجز من يليهم انتقل الواجب إلى من يليهم، ثم من يليهم، حتى يشمل المسلمين كافة.

وذلك أن الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ـ أمة لا إله إلا الله محمد رسول الله ... أمة القرآن ... أمة محمد صلى الله عليه وسلم ... أمة الإجابة ـ هذه الأمة أمة واحدة، يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم.

تضامن الأمة في الدفاع عن أراضيها:

المؤمنون إخوة، لا يفرق بينهم لغة، ولا يفرق بينهم إقليم، ولا يفرق بينهم عرق، ولا يفرق بينهم لون، كل المسلمين أمة واحدة، هم إخوة بعضهم لبعض.

ولذلك يجب أن يساند بعضهم بعضًا، وأن يؤيد بعضهم بعضًا، وأن ينصر بعضهم بعضا، وأن يشد بعضهم أزر بعض.

ومن هنا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه ...** »[149]. لا يسلمه: أي لا يتركه ويتخلى عنه أمام الأعداء. أنت إذا وقفت متفرجًا وأخوك المسلم يغزي في عقر داره فقد أسلمته وخذلته، «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**»[150]. هذا مقتضى الأخوة الإسلامية، حتى

---

(149) سبق تخريجه في (ص 40).

(150) رواه البخاري في المظالم (2244) عن أنس، وتتمة الحديث: قالوا: يا رسول الله هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟ فقال: «**تأخذ فوق يديه**».

قال الفقهاء في تفاريعهم الفقهية: لو أن امرأة أسرت بالمشرق وعجز أهل المشرق أن يخلصوها وجب على أهل المغرب أن يفعلوا ذلك. لأن المشرق والمغرب كلهم أمة واحدة، لا يفصل مشرق عن مغرب ولا شمال عن جنوب.

الأمة الإسلامية أمة واحدة:

أرأيتم حينما دخل الصليبيون أرض فلسطين قديمًا، وأقاموا فيها ممالك وإمارات بخيانة الضعفاء والمنافقين من الحكام في تلك الأيام، قام إخوة لنا - ليسوا من العرب - أتراك وأكراد: عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين محمود الشهيد، وتلميذه صلاح الدين الأيوبي الكردي، هؤلاء هم الذين قاوا بالنجدة لإخوانهم العرب، لأن الإسلام هو الذي كان يحكمهم، الإسلام عربهم وعرب عواطفهم وأفكارهم ومشاعرهم.

المسلمون أمة واحدة.

حينما حدثت حادثة الخامس من حزيران - أو يونيو - سنة (1967م)، ودخل اليهود الضفة الغربية وغيرها، وحطموا الطائرات المصرية، وفعلوا ما فعلوا، واحتلوا الجولان، هنا في قطر فتحوا الباب للتطوع، عن طريق منظمة التحرير الفلسطينية، أتدرون من كان أعظم الناس حماسًا للتطوع ... لإنقاذ أرض الإسراء والمعراج والمسجد الأقصى؟ إخواننا الباكستانيون والهنود والبنغاليون وهؤلاء العجم!

الأمة الإسلامية أمة واحدة.

ولذلك فإن موقفي هو: الرفض المطلق لهذه الحرب العدوانية.

نحن في عالم يتنادى بالسلام، فلماذا هؤلاء يتنادون بالحرب؟ نحن ضد الحرب إلا لضرورة. الإسلام يرحب بالسلام، ويدعو إلى السلام، وإلى قبول السلم إذا جنح إليه العدو {وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ} [الأنفال: 61]، إذا انتهت المعركة بغير دماء يقول القرآن: {وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ} [الأحزاب: 25]. ولكن إذا كانت هناك ضرورة للقتال فلا بد من القتال: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ...} [البقرة: 216].

موقفي من الحروب العدوانية:

نحن نرفض الحرب العدوانية.

سألني بعض الصحفيين: ما رأيك في هذه الحرب؟ قلت: أنا ضد كل حرب عدوانية، سواء كانت من أمريكا ... من أوربا ... من العرب ... من المسلمين، أنا ضد أي حرب على أي شعب. كيف بحرب صليبية عدوانية إجرامية تشنها أمريكا على شعب شقيق لنا ... على إخوة لنا لم يرتكبوا إثمًا ولا عدوانا؟!

نحن ضد هذه الحرب، أنا ضد كل عدوان.

لقد وقفت ضد العدوان العراقي على الكويت، ومن فوق هذا المنبر في أول العدوان ألقيت خطبة نارية نقلتها الصحف، وتحدثت عنها الإذاعات، وكانت إذاعة الكويت المؤقتة ـ خارج الكويت ـ تذيعها كل عدة ساعات مرة، لم يكن عندها برامج في تلك الأوقات.

حينما كان العراق معتديًا وقفنا ضد العراق، وحينما يكون العراق معتدي عليه نقف مع العراق.

نقف مع العراق بكل قوة، ونقول للمعتدين: ارجعوا عن عدوانكم، ونقول للعدوانيين: لا، لن تقبلكم شعوبنا، لن تقبلكم أرضنا، ستلعنكم الأرض التي تمشون عليها، ستبصق الشعوب في وجوهكم.

نقول هذا للمعتدين، أيًا كان اسم هؤلاء المعتدين.

موقف أمريكا من جرائم إسرائيل:

ولماذا تشن أمريكا هذه الحرب؟

أمريكا شنت هذه الحرب الكونية العالمية بدعوى أنها حرب على الإرهاب، وقالت: نحن لسنا ضد الإسلام ولا المسلمين، ولكنا ضد الإرهاب.

وأبوا أن يعرفوا الإرهاب، أو يعطوا له مدلولًا محدودًا، حتى يدخلوا في مضمونه ما يشاؤون من الدول والهيئات والجمعيات والأفراد. ولذلك أدخلوا في قائمة الإرهاب الجماعات الجهادية التي تدافع دفاعًا مشروعًا عن أوطانها. جعلوا حماس والجهاد وحزب الله وكتائب الأقصى وكتائب أبو علي وكل المقاومين والفصائل الإسلامية والوطنية - التي تقاوم هذا الطاغوت وهذا الطغيان الشاروني والصهيوني الأعمى، الذين لا يبالي بما يسفك من دماء، وما يزهق من أرواح، وما يدمر من منازل، وما يخرب من مساجد، وما يحرق من مزارع - جعلوا هؤلاء إرهابيين!

أمريكا تسكت عن جرائم شارون، وترى أن شارون رجل مسكين ... غلبان ... ضحية ... مظلوم ... يدافع عن نفسه أمام هؤلاء الذين لا يملكون شيئًا إلا أنفسهم، يفجرونها في عدوهم!

شارون - وعصابته الإجرامية - الذي نرى من شناعاته كل يوم ما نرى

ليس إرهابيًا! هو مدافع عن نفسه! أما جماعات الجهاد هذه جماعات مجرمة ... إرهابية! أهذا ما يريده «مستر بوش» من تعريف الإرهاب؟

الإرهاب في قانون بوش: الجماعات الإسلامية المدافعة عن أوطانها. إنها الجمعيات الخيرية التي تعمل لإطعام الجائع، وكسوة العاري، وعلاج المريض، وكفالة اليتيم، وإيواء المشرد، هذه الجمعيات دخلت في دائرة الإرهاب عند هؤلاء! وهي الآن تحارب بكل سلاح، ويصد عن سبيلها، ولا تستطيع أن تفعل شيئًا. هذا ما نراه.

التضييق على المؤسسات الخيرية:

ذهبوا إلى الهيئة الخيرية الإسلامية - العالمية في الكويت، وظلوا واحدًا وعشرين يومًا يفتشون أوراقها، ووضعت أمامهم الأشياء كلها مكشوفة، وعرفوا: من المتبرعون؟ وأين تذهب التبرعات؟ هذه لمسجد، وهذه لحفر بئر، وهذه لإنشاء مدرسة، وهذه لإنشاء طرق ... إلخ. وبعد الواحد والعشرين يومًا قالوا: لم نجد عليكم شيئًا؟ قالوا: أعطونا ورقة بأنكم لم تجدوا عندنا ما يريب. قالوا: لا، لا نعطيكم ورقة!

أصبحت الجمعيات الخيرية لا تستطيع أن تبعث بما التزمت به إلى البلاد. جمعية قطر الخيرية كان عندها ما يقرب من خمس وعشرين ألف يتيم في بلاد شتى ... في أفغانستان ... في البوسنة ... في الهرسك ... في الصومال ... في غيرها، ما عادت تستطيع أن ترسل هذه المساعدات، لأن أي أموال تذهب إلى الخارج تعتبر أموالًا ذاهبة لتمويل الإرهاب! وليمت هؤلاء اليتامى المساكين من أجل سواد عيون الأمريكان.

أمريكا تحارب العمل الخيري الذي كان يجمع الأمة خيريًا. الأمة ممزقة سياسيًا، ولكنها كانت مترابطة خيريًا وإنسانيًا بواسطة هذه الجمعيات.

هم يريدون الآن أن يوقفوا «ائتلاف الخير»(151) الذي يسعى إلى إنقاذ إخواننا في فلسطين، يطعم جائعهم، ويؤوي مشردهم، ويعطيهم الحد الأدنى مما يكفل لهم المعيشة الإنسانية المعقولة، لا، لا يريدون ذلك، كل عمل خيري هم ضده.

هل في العراق أسلحة دمار شامل:

هذه الحرب ليست من أجل الإرهاب كما يقولون.

قالوا: هذه الحرب من أجل نزع أسلحة الدمار التي يملكها العراق. هل هذا صحيح؟ افترضنا أن هذا صحيح، فهل العراق وحده هو الذي يملك أسلحة الدمار في العالم؟ كم من الدول تملك أسلحة الدمار؟ كم من الدول تملك الأسلحة النووية؟ ولكن أمريكا ترى أنها هي وحلفاءها هم الذين لهم الحق في امتلاك أسلحة الدمار، ومن عداهم فلا يجوز لهم. أسلحة الدمار حلال على أمريكا وعلى إسرائيل حرام على العرب. إسرائيل التي تملك من الرؤوس النووية ما تملك، وتملك هذه الترسانة الهائلة، لا يجوز لأحد من العرب ولا

---

(151) ائتلاف الخير: هيئة خيرية عالمية تضم أكثر من خمسين جمعية خيرية، وتقوم بالتنسيق بين المؤسسات الخيرية العاملة لفلسطين، ومشاريعها ذات طابع إنساني تهتم بالجوانب التعليمية والصحية والتنموية والاجتماعية، وأتشرف بأن أكون على رأس هذا الائتلاف الخير، وقد أثار الأعداء أسئلة وشبهًا وأباطيل حول هذا المشروع، وقد أرسل إلي الأخوة هذه الأسئلة، وقد أجبت عليها، وهي في طريقها إلى إخواننا في الائتلاف إن شاء الله.

للعرب مجتمعين أن يملكوا ولا عشر معشارها.

هل العراق يملك أسلحة الدمار؟ لقد دمرت أسلحة العراق خلال السنوات الماضية. وقد فتش المفتشون من قبل وفتشوا من بعد، وكثفوا النشاط وقالوا: إننا لم نجد شيئًا حتى الآن.

ولكن بوش خرج بنظرية جديدة تقول: إن على العراق أن يثبت أنه لا يملك أسلحة الدمار!! المتهم عليه أن يثبت براءته!

في كل قوانين العالم وفي شريعتنا الإسلامية: البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه. ولكن بوش له قانونه الخاص: المتهم مجرم منذ توجه إليه التهمة وعليه هو أن يثبت أنه بريء! منطق القوة الغاشمة.

هل العراق يحارب من أجل أسلحة الدمار؟ لا.

هل العراق يحارب لأن بوش يملك قلب الأم الحنون من إشفاقه على العراق، وحنوه عليه، وحبه لشعبه، يريد أن يخلصه من ديكتاتورية حاكمه صدام حسين؟ يا لله، من أين هذه الرحمة التي نزلت عليك يا سيد بوش؟! ألم تكن أنت الذي ساندت صدام من قبل؟ أنت - أي أقصد أمريكا - الذي أمدته بالأسلحة الكيماوية لضرب الإيرانيين، ولضرب الأكراد في حلبجة. لماذا تحلونه عامًا وتحرمونه عامًا؟

بل أنتم أيها الأمريكان الذين أغريتموه بضرب الكويت، أنتم وراء هذه الفتنة التي أشعلت في هذه الأمة.

أمريكا تريد أن تخلص العراق من استبداد صدام!

لماذا إذن تسكتون عن ديكتاتوريين ومستبدين في كثير من البلاد العربية والإسلامية؟ أنتم الذين تساندونهم سرًا وعلانية، أنتم الذين تساندون الديكتاتوريات المكشوفة، والديكتاتوريات المقنعة المتسترة بالديمقراطيات الزائفة، أنتم وراء هذا.

ومن العجيب أن المعارضة العراقية تصدق هذه الأكذوبة، وتظن أن أمريكا ستحرر العراق لتعطيهم الحكم لقمة سائغة وبيضة مقشورة. هيهات هيهات أيها الواهمون.

أهداف أمريكا من غزو العراق:

أمريكا إذا غزت وإذا قاتلت، فإنما تقاتل لنفسها لا لكم. تقاتل لأهدافها هي.

وما أهدافها؟

أهداف أمريكا معروفة:

الهدف الأول: الاستيلاء على نفط العراق. تريد أن تستولى على نفطه كما استولت على نفط بحر قزوين، وكما تريد أن تستولى على مصادر النفط في العالم. فهي تفعل لمصلحتها، وهذا أمر لا يشك فيه الخبراء الاستراتيجيون.

الهدف الثاني: أن أمريكا تريد أن تدمر كل إمكانات العراق العسكرية والمادية والبشرية. فقد كان العراق يملك أقوى قوة عسكرية في المنطقة العربية، وما زال هؤلاء وراءه حتى أوقعوه في الفخ ليصدروا هذا القرار ويوافق عليه العرب جميعًا بتدمير أسلحة العراق. ودمروا أسلحة العراق، ولازالوا يدمرون.

حتى ما ليس من أسلحة الدمار الشامل مثل صواريخ «صمود 2»

يدمرونها ... ويحطمونها. والله أقل لكم: كلما حطموا صاروخًا من هذه الصواريخ كأنما كسروا ضلعًا من ضلوعي. هذه صواريخ أقيمت بعقول أبناء الأمة وبأموال الأمة فكيف تدمر؟ ولماذا لا تدمر صواريخ إسرائيل وترسانة إسرائيل؟

إنهم يريدون أن يدمروا القوة المادية للعراق ... القوة العسكرية للعراق ... القوة البشرية للعراق. فمن المعروف أن العراق كون قاعدة علمية بشرية طوال هذه العقود من السنوات، وهم لا يريدون أن يبقى للعراق أي قوة، ولذلك يريدون أن يلتقوا بالعلماء وأن يروا العلماء! يريدون نزع العلم من الأدمغة لا نزع الأسلحة فقط. هذا هدف.

وهدف آخر بعد ذلك: هو أن هذا كله يجري لخدمة هدف كبير، هذا الهدف الكبير هو: امتداد الصهيونية، وتحقيق أحلام الدولة الصهيونية في التوسع من «الفرات إلى النيل ومن الأرز إلى النخيل» ... من العراق إلى مصر ومن الأرز في لبنان إلى النخيل في المدينة وخيبر.

لا تقولوا هذه أحلام وأوهام، فقد كان من قبلنا وكنا نحن نقول عن أحلام إسرائيل: إنها أوهام وأحلام، حتى أصبحت حقيقة واقعة.

إن هذا كله يصب في شخدمة إسرائيل الكبرى.

يا أيها الإخوة: أمريكا حينما تغزو العراق لا تغزوها من أجل العراقيين، ولا من أجل التخلص من صدام حسين. إنها ستتخلص من صدام لتحل محله جنرال أمريكي يحكم الشعب العراقي.

هذه بعض أهداف أمريكا في منطقتنا.

موقفنا من غزو أمريكا للعراق:

ماذا ينبغي أن يكون موقفنا؟

إن العالم كله وقف ضد هذه الحرب، وإن قممنا العربية والإسلامية، وقمة عدم الانحياز كلها قالت: لا للحرب. ورفضت الحرب رفضًا قاطعًا. ولكنا كنا نريد من العرب شيئًا أكثر من مجرد الرفض.

قالوا: نرفض الحرب، ويجب الامتناع من الاشتراك في أي عمليات عسكرية. ولكن البعض فسروا هذا البند بأن الامتناع يعني: أن لا نبعث بجنود يحاربون من الأمريكان! ولكن أليس من المشاركة: أن تمهد الطريق للأمريكان ... أن تفتح لهم المواني لبوارجهم الحربية وحاملات طائراتهم العملاقة ... أن تفتح المطارات لتنطلق منها المقاتلات وقاذفات القنابل ... أن تفتح الأرض لتضم الجيوش وتنطلق منها الجيوش والمقتلون؟ أليس هذا من الاشتراك في الحرب؟ هذا الاشتراك في الحرب.

كنا نريد من القادة العرب أن يقولوا لأمريكا: لا، لا نستطيع أن نقدم لكم أي تسهيلات، ولا أن نفتح لكم برنا ولا بحرنا ولا جونا، لأن ديننا يحرم علينا تحريمًا قاطعًا أن نعينكم على إخواتنا. ديننا يوجب علينا أن نكون معهم لنحاربكم، فإذا عجزنا عن ذلك فأقل ما يجب علينا أن لا نقدم تسهيلات لغزوهم.

كان عليهم أن يقولوا هذا ... أن يقولوا: لا.

تحية للبرلمان التركي والأتراك:

حي الله البرلمان التركي الذي خالف حكومته وعارض أن تكون أرض

تركيا مجالًا لانطلاق الجيوش والطائرات منها ... ودل هذا على جذورهم الإسلامية حقًّا. وإن كنت الآن أخشى عليهم لأن هناك من يقول لهم: أتريدون أن تكونوا عربًا أكثر من العرب ... ملكيين أكثر من الملك؟ إذا كان العرب فتحوا أرضهم وأجواءهم وبرهم وبحرهم فلماذا تقفون؟ لماذا تخسرون هذه المليارات؟ الأتراك كانوا سيكسبون من هذه الحرب مليارات، والعرب يقدمون هذه الأشياء مجانًا لوجه الله وسواد عين أمريكا!! بل ربما أخشى أن يساهم بعضهم في دفع فاتورة الحساب.

حي الله الأتراك،@ وأرجو أن يثبت الله أقدامهم ولا يقلدوا العرب، فتقليد العرب حرام في هذه الحالة.

كنت أريد من قادة العرب أن يقولوا لأمريكا: لا، لا نستطيع ذلك، لأن عروبتنا وديننا وإسلامنا لا يجيز لنا ذلك، ونخشى أن نفتضح أمام شعوبنا ... أن تنكشف سوءاتنا ... أن يبصق الناس في وجوهنا ... أن يلعننا التاريخ ونكون سبة لأولادنا وأحفادنا حين يقولون: هؤلاء الذين ساندوا الأمريكان في ضرب إخوانهم. إنها لعنة التاريخ.

ما نتمناه من حكام العرب:

كنت أود من قادة العرب أن يقفوا هذا الموقف.

ولكن قادة العرب - إلا من رحم ربك وقليل ما هم - إذا تكلموا مع الأمريكان اصطكت أسنانهم، وارتعدت فرائصهم، وارتعشت أجسامهم، ولم يستطيعوا أن يقولوا شيئًا، لم يستطيعوا أن يقولوا: لا.

كنا نود أن يقول حكامنا العرب ... العرب المسلمون ... أبناء الأمة القرآنية

... أبناء خالد وصلاح الدين وطارق بن زياد ... كنا نود أن يقول هؤلاء: لا، كما قال سيدنا عمر: يعجبني الرجل إذا سيم الخسف أن يقول بملء فيه: لا ... لا.

أحب أن يتذكروا قول الله تعالى: **{وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ}** [آل عمران: 139]، وأن يذكروا قول الله تعالى: **{ ... وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ}** [المنافقون:8]، وقوله تعالى: **{مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا}** [فاطر: 10].

كنت أود من العرب أن يتذكروا قول شاعرهم القديم:

وكنت إذا قوم غزوني فهل أنا في ذا يالهمدان ظالم؟!
متى تحمل القلب الذكي وأنفًا حميًا تجتنبك المراغم

ولكن يبدو أن العرب ما عادوا يحملون قلوبًا ذكية، ولا أنوفًا حمية، ولا عزائم أبية، ولا سيوفًا عربية. أصبح العرب كما قال المثل: ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل! **{ ... كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ ...}** [المنافقون: 4].

كنت أريد هذا من العرب: أن يقفوا ضد الأمريكان ومعهم الحق، والحق يقويهم ويرفع رؤوسهم. ولكن القادة لم يفعلوا ذلك.

أرسل إلى أحد الإخوة من أهل العلم في الكويت بعد حلقتي منذ أسبوعين في «الشريعة والحياة» يقول لي: كيف تلوم الكويت إذا قدمت هذه التسهيلات للأمريكان وبين الكويت وأمريكا معاهدات واتفاقات موقعة؟ أليس الله تعالى يأمرنا أن نفي بالعهود: **{ ... وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا}** [الإسراء: 34]

قلت لهذا الأخ الذي التبس عليه الأمر: يا أخي إن هذه الاتفاقات إنما أقيمت على أساس الدفاع عن الكويت، أو عن أي بلد إذا مس أمنها، أو اعتدى عليها، وليس في هذه الاتفاقات أن تعان أمريكا على غزو بلد عربي مسلم. ولو كانت الاتفاقات تتضمن ذلك لكان هذا البند باطلًا شرعًا. لأنه لا يجوز أن تتضمن هذه الاتفاقات والمعاهدات العدوان على بلد مسلم.

هكذا يلتبس الحق بالباطل في أذهان كثير من الناس.

ويسألني الكثيرون من أبناء الخليج: هل يجوز أن نشارك في «درع الجزيرة»؟ هل يجوز أن نذهب إلى الكويت؟ وقلت لهم: لا مانع أن تذهبوا إذا كلفتم بذلك، ولكن لتذهبوا - كما أعلن - للدفاع عن أمن الكويت الداخلي، أما تشاركوا في حرب إخوانكم، فهذا لا يجوز. الإسلام يحرم المشاركة في الظلم وفي القتل، حتى جاء في الحديث: **«من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقى الله مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله»**[152]. ولو بشطر كلمة، لا بالسلاح ولا بالدبابات ولا بالتسهيل ولا بفتح المطارات. **«بشطر كلمة»** قال بعض العلماء: يعني لا يقول له «اقتل» وإنما يقول له: «اقـ» ولا يكمل الكلمة حتى هذه محرمة.

لا يجوز لنا أن نتجاوز حدودنا ونقف مع الظالمين. الإسلام يقوم على أمرين: لا تكن ظالمًا ولا تكن عونًا لظالم.

---

(152) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ورمز له السيوطي بعلامة الضعف. وانظر: «فيض القدير» للمناوي (72/6) برقم (8471). وذكره الألباني في «ضعيف الجامع» (5446).

سبب تعدي أمريكا وظلمها:

سألني صحفي أمريكي - لقيني في بيتي هنا في قطر وأخذ مني لقاء طويلًا، وكان من ضمن أسئلته - : هل المشكلة في أن أمريكا قوية جدًا، أو أن العرب ضعاف جدًا؟! قلت: والله، المشكلة ليست في قوة أمريكا ولا في ضعف العرب، المشكلة تكمن في طغيان أمريكا. طغيان أمريكا هو الذي سبب هذا. أمريكا طغت حين اغترت بقوتها العسكرية وقوتها الاقتصادية وقوتها العلمية والتكنولوجية، ورأت أنها فوق العالم: كما قال الله تعالى: **{كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ 6 أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ}** [العلق: 6، 7]. هذا الطغيان هو الذي دفع أمريكا إلى أن تنفرد بالعالم، أمريكا تريد التأله، تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد، ولا راد لقضائها، ولا معقب لحكمها. إذا كان الله تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فأمريكا لا تريد أن تسأل عما تفعل، تفعل ما تريد، هذا ما تريده أمريكا.

وهذا هو الذي سيسبب زوالها، لأن عاقبة الطغيان إذا زاد وتجبر إلى الزوال، الله تعالى يقول: **{فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ** «فرح البطر والأشر والغرور» **أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ 44 فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ}** [الأنعام: 44، 45]. «**إن الله يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته**»(153) ثم قرأ: **{وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ}** [هود: 102]. **{أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ 6 إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ 7 ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ 8 وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ 9 وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ 10 ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ 11 فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا**

---

(153) سبق تخريجه في (ص 47).

ٱلۡفَسَادَ 12 فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ 13 إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ} [الفجر: 6 - 14].

الله تعالى يمهل ولا يهمل، يملي للظالم، يستدرجه { **... سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ 44 وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ}** [القلم: 44، 45]. ثم تثأر السماء، ويغضب القدر، ويتدخل تدخلًا مباشرًا، **{وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ}** [فاطر: 17].

إن دموع الباكين، وأنات الشاكين - من الثكالى والأمهات ... من الأرامل والزوجات ... من اليتامى والأطفال، والديار التي خربت - لن تذهب سدى، ولن تضيع دعواتهم هدرًا، ولن تضيع شكواهم إلى الله هباء، إن الله سيسمع لهم، «**... ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، وتفتح لها أبواب السماء**»، ويقول الرب: «**وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين**»(154).

أتهزأ بالدعاء وتزدريه ... وما يدريك ما صنع الدعاء؟
سهام الليل لا تخطى ولكن ... لها أمد وللأمد انقضاء
فيمسكها إذا ما شاء ربي ... ويرسلها إذا نفذ القضاء

سنستعدي على الطغاة غضبات القدر، ودعوات السحر، وكل أشعث أغبر، لو أقسم على الله لأبره.

لسنا ضد الشعب الأمريكي:

إننا أيها الإخوة لسنا ضد الشعب الأمريكي. الشعب الأمريكي لمن عرفوه في مجمله شعب طيب، ولا يعرف الأمور، يضلله الإعلام الأمريكي الذي يؤثر عليه اللوبي الصهيوني والإعلام الصهيوني. ولكننا ضد الإدارة الأمريكية المتجبرة ... ضد هذه الحكومة العدوانية ... ضد هذا التوجه المضاد

---

(154) سبق تخريجه في (ص 121).

للإسلام وللمسلمين.

نحن نقف ضد هؤلاء، وندعوهم أن يراجعوا أنفسهم، وأن يكسبوا صداقة مليار وثلث مليار من المسلمين، بدل أن يكسبوا كراهيتهم وعداوتهم.

والله كنا قديمًا لا نضمر أي شر لأمريكا، كانت أمريكا أقرب إلينا لأنها لم تستعمر بلادنا قديمًا مثل: بريطانيا وفرنسا وغيرهما. والعرب والمسلمون ذهبوا لأمريكا للعمل، وذهبوا للهجرة، وذهبوا للتعلم، وذهبوا للاستشفاء. ولكن أمريكا اليوم غيرت موقفها.

لا تظنوا أيها الإخوة أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر هي السبب الأساسي في هذا الأمر، لا، لقد أثبت الدارسون والخبراء الاستراتيجيون أن هذه استراتيجية أمريكية مخططة من قبل. ونشر الأستاذ محمود المراغي الصحفي المصري - الذي يكتب في صحف قطر هنا - كتابًا سماه «حرب الجلباب والصاروخ» أثبت فيه أن ما حدث كان مخططًا من قبل، رسائل من وزارة الخارجية إلى البنتاغون وإلى كذا كلها تثبت أن هذا كان أمرًا مخططًا.

إن أمريكا تريد أن تغير المنطقة، هكذا قال «كولن باول» في مجلس «الكونجرس» قال: إننا بعد الانتصار على صدام سنعيد ترتيب المنطقة ترتيبًا جذريًا، سنرسم خارطتها من جديد، سنبنيها على أسس جديدة لمصلحة أمريكا!

هم يريدون تغيير هوية المنطقة، يريدون تغيير التعليم الديني، يريدون أن يحذفوا من القرآن ما يحذفوا، ويحذفوا من التاريخ ما يحذفوا، ويحذفوا من أبواب الفقه ما يحذفوا. يريدون أن يحذفوا من أبواب الفقه باب الجهاد،

ويحذفوا من التاريخ خالدًا، وأبا عبيدة، وصلاح الدين، وعمر المختار، وكل هؤلاء. إنهم يريدون أن يغيرونا ويسلخونا من جلدنا.

ولكنا نقول لهم: هيهات هيهات، لقد انتصر هذه الأمة طوال التاريخ، انتصرت على الروم، وانتصر على الفرس، وانتصرت على الصليبيين، وانتصرت على التتار، وانتصرت حديثًا على الاستعمار، وستنتصر عليكم لأنكم معتدون وظالمون، والله قد يمهل للظالمي ولكنه يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

أسأل الله تتت أن يبصر أمتنا بغايتها وطريقها، وأن يفتح لها فتحًا مبينا، ويهديها صراطًا مستقيما، وينصرها نصرًا عزيزا، اللهم آمين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

(15)
لا أخاف الاغتيال، بل أتمنى الشهادة[155]

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

ملاحقة أمريكا لمخالفيها:

بعد خطبة الجمعة الماضية لقيني عدد من إخواني وتلاميذي، وقالوا لي: لقد بينت الأمور في خبتك، وشفيت الصدور، وأثرت الشجون، وابكيت العيون، ولكنا بعد هذه الخطبة أصبحنا نخاف عليك.

قلت: ممن تخافون علي؟

قالوا: نخاف عليك من الأمريكان، فإن ذراعهم طويلة، وإنهم يستطيعون أن ينالوا خصومهم في أي مكان. قلت لهم: وهل هذه أول خطبة من نوعها؟ قالوا: لا. ليست أول خطبة، ولكن الوطيس الآن حام، والماء في درجة الغليان، وربما لم يصبر عليك القوم كما صبروا عليك من قبل. أما علمت القانون الذي صدر في الكونجرس ... القانون الذي يجعل من حق أمريكا في أي مكان وفي أي بلد أن تلاحق كل من تعتبره أمريكا عدوًا لها أو خطرًا عليها، تلاحقه باستخباراتها تخطفه ... تعتقله ... تغتاله بأي وسيلة من الوسائل، لا تتقيد بقانون ولا بأخلاق ولا بأي اعتبار من الاعتبارات؟ ألم تقرأ

---

(155) ألقيت في جامع عمر بن الخطاب بالدوحة في 11 محرم 1424هـ الموافق 14 مارس 2003م.

هذا القانون؟

قلت لهم: بلى، قرأته وعرفته، وعرفت بهذا أن أمريكا أصبحت أعظم «بلطجي» في العالم! لأنها تقتل الناس وتغتلهم بدون عريضة اتهام، ولا محاكمة، ولا دفاع ولا قضاء، وهي التي تزعم أنها تقاتل من أجل حقوق الإنسان، وحرية الإنسان، وحرمات الإنسان. وهي تقتل الناس بمجرد رأي رأته استخباراتها، دون أن تسمع دفاع الآخرين وأن تعرف ما ذنبهم. هذه أكبر بلطجة في العالم.

وقد نفذت هذا في اليمن وضربت بالصواريخ أناسًا في صحراء اليمن. ولها سوابق في هذا في أنحاء العالم.

قلت لهم: أعرف هذا. ومع هذا كله، ومع أني أعرف طول ذراع أمريكا وسوابقها في اغتيال خصومها في القارات الخمس، وساوبقها الحديثة والقديمة، مع هذا فإني لا أخاف أمريكا.

أسباب عدم خوفي من أمريكا:

لا أخاف أمريكا لأسباب ثلاثة:

1 - أمريكا ليست إلهًا:

السبب الأول: أن أمريكا ليست إلهًا. وهي تريد أن تتأله في الأرض، ولكنها ليست إلهًا، تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد، ولا راد لقضائها، ولا معقب لحكمها. ليست أمريكا إذا قالت للشيء: كن فيكون.

أمريكا بشر من البشر ومخلوق من مخاليق الله، لو سطل الله عليها بعض الزلازل، أو الأعاصير، أو الفيضانات لا تستطيع أن تفعل شيئًا.

هذا هو السبب الأول.

2 - إيماني بالقدر:

السبب الثاني: أننا نحن المسلمين نؤمن بشيء اسمه «القدر». هذا القدر هو الذي يتحكم في هذا الكون، ما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن، ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

الله تعالى علم رسوله ليعلمنا فقال: **{قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ}** [التوبة: 51]، **{ ... قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡ ...}** [آل عمران: 154]. هذا ما نؤمن به.

علم النبي صلى الله عليه وسلم ابن عمه عبد الله بن عباس وهو غلام، قال له: «**يا غلام، إني أعلمك كلمات** - وكان من هذه الكلمات - : **واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك. وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»(156).

لا نخاف، أعمارنا محدودة، آجالنا محتمة، أرزاقنا مقسمة، لا يستطيع أحد أن ينقص من رزقك درهمًا ولا لقمة، ولا يستطيع أحد أن ينقص من أجلك يومًا ولا ساعة ولا دقيقة ولا لحظة **{ ... فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا**

---

(156) رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه ب وقال: حديث حسن صحيح. وذكره الألباني في «صحيح الجامع» (7957). وأوله: كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يومًا فقال: «**يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظ، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فأسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**». وهو الحديث التاسع عشر من أحاديث «الأربعين النووية»، وقد أفاض ابن رجب في شرحه في «جامع العلوم والحكم».

يَسْتَقْدِمُونَ} [النحل: 61].

كان علي بن أبي طالب ررر يخوض المعارك وهو ينشد:

أي يـومي مـن المـوت أفـر   يـوم لا يقـدر أم يـوم قـدر
يـوم لا يقـدر لا أحـذره   ومـن المقدور لا ينجـي الحذر

إذا كان قدر على فلان ينجني منه شيء. ولذلك إذا لم يقدر على فلماذا أخاف؟

هذا هو شأن المؤمنين.

3 - لا أخاف الموت شهيدًا:

السبب الثالث: أن أقصى ما تستطيعه الاستخبارات الأمريكية وحلفاؤها من الموساد، أو الموساد وحلفاؤه من الأمريكان، أقصى ما يستطيعونه وقد هددوا به من قبل أن يغتالوني. هذا هو أقصى ما يستطيعونه.

وهل هذا يخيف؟ فوالله هذا الاغتيال لا يقلقني، ولا يخيفني، ولا يحرك في شعره واحدة.

إن هذا الأمر لو حدث فقد حققوا لي أمنية طالما دعوت الله بها في سجودي، ودعوته بها في الأسحار، أن يجعل ختام حياتي شهادة في سبيله وابتغاء مرضاته، تكون ختامًا لحياتي، وكفارة لسيئاتي، وثقلًا في ميزاتي.

وهل هناك كسب أعظم من أن يعيش الإنسان داعية ويموت شهيدًا؟

وهل أنا أعز وأغلى من الشهداء الذين نسمع عنهم كل يوم يسقطون في سبيل الله برصاص الإسرائيليين؟ كل يوم، وكل نشرة أخبار نسمع بشهداء

جدد. اليوم خمسة شهداء سقطوا برصاص الإسرائيليين. كل يوم نسمع بهؤلاء الشهداء، هل أنا أعزّ من هؤلاء وأغلى من هؤلاء؟ هل أنا أغلى من يحيى عياش، وفتحي الشقاقي، وأبو علي مصطفى، وصلاح سحادة، والمقادمة وغيرهم؟

وهل أنا أغلى من الشهداء الذين سقطوا في سبيل الإسلام: حسن البناء، وسيد قطب، ومنكل اكسو، وأحمدو بيللو، وفيصل بن عبد العزيز، وعبد الله عزام؟

قوافل الشهداء لا زالت مستمرة، ويجب أن تستمر قوافل الشهداء.

لماذا نضمن بأنفسنا أن نسقط صرعى في سبيل الله؟

لا يخيفني والله هذا أبدا.

الإمام البنا وأمنية الشهادة:

لقد استمعت منذ ما يقرب من ستين عامًا - وأنا طالب في معهد طنطا - إلى الشيخ حسن البنا ححح وهو يخطب في ألوف قد احتشدت، في مؤتمر وطني من أجل مقاومة الاحتلال الإنجليزي وطرد الإنجليز من مصر والسودان، وكان الشيخ يعبئ الجماهير ويحرض الحاضرين ويقول لهم: إني كنت في شبابي أتلوا بعض الأوراد ... الأدعية، وكان من هذه الأدعية دعاء يقول: اللهم ارزقني الحياة الحسنة والموتة الحسنة. ما هي الموتة الحسنة أيها الإخوان؟

يقول الشيخ: أتظنون الموتة الحسنة أن يموت الإنسان على فراشه الوثير بين أهله وأولاده وأحبابه؟

أهذه الموتـة الحسنة؟ كل النـاس يموتـون هكذا؟ الموتـة الحسنة: أن يفصل هذا الرأس عن هذا الجسد في سبيل الله. ضجت الجماهير وكبرت.

وماذا جرى؟ لقد ختم الله لهذا الرجل بأمنيته التـي تمناهـا، وحقق لـه دعـاءه الذي دعا به.

وأنا أسأل الله: أن يلحقني بشيخي شهيدًا في سبيل الله.

لا أخـاف المـوت أيهـا الإخـوة، ومـاذا بقـى مـن عمـري حتـى أضـن بـه أو أحرص عليه؟

لا أخاف التضييق علي في الرزق:

قال صحبي: ربما ضيقوا عليك في رزقك، ربما صـادروا مالك. قلت لهم: وهـذا أيضًـا لا يخيفنـي والله. وأنـا معظـم أمـوالي ومـدخراتي كانـت فـي بنـك التقـوى وقـد صـادروه باعتبـاره مؤسسـة إرهابيـة، وباعتبـار أصـحابه مـن الإرهابيين، بدعوى أنهم يساعدون حماس!

وما بقى من مـالي حتـى لـو صـادروه، أنـا والله لـم أنشـأ فـي الحليـة والنعيم، ولست ممن ولد وفي فمـه ملعقـة مـن ذهـب. أنـا ولـدت فـي بيئـة فقيرة ... أكلت «المـش بـدوده» ... نمـت علـى الحصـير ... أكلـت «الفرافيـت»، أسـتطيع أن أعيش علـى الخبـز والملـح وإذا كـان ذلـك فـي سـبيل الله. وأنـا هنـا أتمثـل بقـول الإمام الشافعي:

أنـا إن عشـت لسـت أعدم قوتـا   وإذا مــت لســت أعــدم قبــرا
همتي همة الملوك ونفسي نفس   حــر تـــرى المذلـــة كفـــرا

شغلونا عن القدس:

أيها الإخوة:

لقد شغلنا هؤلاء القوم، وشغلوا العالم كله معنا بقضية العراق، وضرب العراق، والعدوان على العراق. كما شغلوا العالم قبل ذلك مدة بتنظيم القاعدة، وقادة القاعدة، وابن لادن والظواهري. وفي كل يوم يفكرون في جديد ويشغلون العالم بقضية بعد قضية.

شغلونا بهذا كله عن المأساة الكبرى التي تحدث أمام أعيننا في كل يوم ... عن قضية القضايا ... عن أم القضايا ... عن قضية المسلمين الأولى ... عن المسجد الأقصى ... عن أرض الإسراء والمعارج، وما يحدث فيها صباح مساء من أعمال تقشعر لها الابدان من هولها الولدان.

كل يوم ... كل نشرة أخبار نسمع من الأحاديث ما يمزق القلوب حسرات، ما يصعد النفوس زفرات، ما تذرف العيون معه العبرات والعبرات. ولكن تبلدت المشاعر، ماتت القلوب، من كثرة ما تراه في كل يوم. كأن هذه الأشياء لم تعد تحرك ساكنًا ... لم تعد تنبه غافلًا ... لم تعد عين تذرف دمعًا ... لم يعد قلب يصعد زفرة، مما يجري في أرض فلسطين.

لقد قلت لكم في الجمعة الماضية: إنني أحس كلما دمروا صاروخًا من صواريخ الصمود في العراق أن ضلعًا من ضلوعي يتكسر. وأنا أقول اليوم: كلما سمعت أو قرأت أو شاهدت شجرة من شجر الزيتون تُقطع كأنما قطعوا شريانًا أو عرقًا من عروقي. كلما أحرقوا أو دمروا منزلًا من منازل إخواننا في فلسطين كأنما أحرقوا قلبي ومهجتي. كلما أطلقوا رصاصة تقتل طفلًا أو

شابًا أو امرأة أو شيخًا كأنما هذه الرصاصة تخترق صدري.

البلادة أصابت المسلمين في مشاعرهم:

أين المشاعر؟ أين العواطف؟ أين القلوب الحية؟ لماذا قابل الناس هذا بالهمود ... بالجفاف ... بالموت ... بموت القلوب وهو شر موت؟ أين أمة العرب؟ أين أمة الإسلام؟

ثلاثمائة مليون من العرب يرون ما يحدث يوميًا، ولكنهم لا يفعلون شيئًا، كأن الأمر لا يعنيهم. إخوانهم يُقتلون ويُذبحون يوميًا. كانوا من قبل كل عدة أشهر يدمرون منزلًا لأحد الشهداء - وهذا أمر ما عرفناه في أي قانون ولا في أي خلق أن يُعاقب أسرة الرجل بما يجني، كل قوانين الأرض وشرائع السماء تقول: إن المسؤولية فردية **{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ}** [المدثر: 38] و**{وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ...}** [فاطر: 18]، ما ذنب أسرتي أن تعاقبها وتدمر منزلها؟ أتعرفون ما معنى تدمير المنزل؟ إنهم يُخرجون أصحابه في دقائق ثم يدمرون المنزل ويجعلونه أنقاضًا ويسوونه بالأرض، كل ما فيه من أثاث وكل ما فيه من متاع وكل ما فيه من مدخرات وكل ما فيه من ملابس، كل هذا يُدمر في لحظات، وتبقى هذه العائلة في العراء ... لا تجد مأوى ... مشردة ... أصبحت أبناء سبيل.

أي قانون في الدنيا يجيز هذا؟ كان هذا يحدث في الزمن الماضي كل مدة ... كل أشهر، الآن يكاد يحصل كل يوم أو كل عدة أيام، ويدمرون منزلًا ... يدمرون خمسة منازل ... يدمرون عشرة منازل ... يدمرون بضعة عشر منزلًا! أصبحت عقوبة حد لإسرائيل.

إسرائيل تفعل ما تشاء في غيبة العالم وانشغال العالم وانشغال العرب بأنفسهم، كل يقول: نفسي نفسي.

أين أمتنا العربية والإسلامية:

أين العروبة التي يزعمونها؟ أين جامعة الدول العربية؟ أين الدفاع المشترك؟ أين الغيرة؟

أعجب والله، العرب في (1948م) بعثوا بجيوشهم، كانت الجامعة العربية سبع دول، فبعثوا بجيوش سبعة، وكانت جامعة الدول العربية وليدة لها ثلاث سنوات فقط. الآن جامعة الدول العربية وقد صارت أكثر من عشرين، وصار لها أكثر من نصف قرن، لم تفعل شيئًا.

يقف العرب صامتين ... جامدين ... مشلولين ... مكتفي الأيدي، وإخوانهم يجري عليهم هذا، هذا عجب.

أين أمة العرب؟ أين أمة الإسلام؟ أين أمة القرآن؟ أين أمة محمد عليه الصلاة والسلام؟ هذه الأمة التي تحركت يوم أُحرق المسجد الأقصى - أو أُحرق جزء من المسجد الأقصى، أو أحرق منبر المسجد الأقصى - وحركت القادة لأول مرة فاجتمعوا وأقاموا منظمة المؤتمر الإسلامي.

أين منظمة المؤتمر الإسلامي؟ أين موقفها؟ أين موقف هذه الدول السبع والخمسين أو الأكثر؟ ألا تستطيع أن تفعل شيئًا؟ لماذا تسكت هذه الأمة؟

فتوى الأزهر لنجدة العراق:

لقد أصدر مجمع البحوث في الأزهر فتوى تطالب المسلمين أن يهبوا لنجدة العراق، وأن يجاهدوا لنصرة العراق. إذا غُزى العراق وجب على

المسلمين في أنحاء العالم أن يهبوا لنجدة إخوانهم ويجاهدوا من أجلهم، لأن المسلمين أمة واحدة، يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم.

نحيي الأزهر على هذه الفتوى، وهذا هو المرجو منه، وهذا هو المُتوقع منه.

ولكن كنا نود أن يصدر فتوى أخرى: بأن على المسلمين في أنحاء العالم أن يجاهدوا من أجل إنقاذ المسجد الأقصى الأسير في يد الصهاينة ... من أجل إنقاذ أرض الإسراء والمعراج، على المسلمين في أنحاء العالم أن يهبوا لنجدة إخوانهم.

هذا هو واجب المسلمين. لا يجوز لأمة الإسلام أن تتخلى عن إخوانهم وهم يرونهم كل يوم يُقتلون ويُذبحون.

وليس التقتيل والتذبيح فقط أيها الإخوة، الهوان يجري على الإخوة الفلسطينيين.

تعرض الفلسطينيين للتعذيب والهوان:

كتب أخونا الكاتب الإسلامي المعروف الأستاذ فهمي هويدي منذ فترة قريبة مقالة عنوانها: المسكوت عنه في فلسطين. وقص أحداثًا غريبة وعجيبة مما يفعله الجنود الإسرائيليون لإخواننا الفلسطينيين، خصوصًا عند الحواجز: كم يطلبون من الشيوخ أن ينتفوا لحاهم! كم يطلبون من شيخ كبير أن يرقص أمامهم! وإذا لم يفعل انهالوا عليه بالضرب المبرح!

وهذا ما أمرهم به قادتهم. قالوا هذا في التلفزيون الإسرائيلي وأذيع: أن قادتهم أمروا بهذا.

وكلما دخلوا بيتًا ليفتشوه ضربوا أهله. وكم تعرضت النساء الفلسطينيات والبنات الفلسطينيات للهوان ومحاولة اغتصابهن، وهن يحاولن وقد يُقتلن في سبيل هذا ولا يفرطن في عرضهن.

وهناك عندهم شيء اسمه: التعذيب بالقرعة! عند الحواجز يوجد جندي إسرائيلي معه مثل الدلو مليء بورق، يقول للشخص: اختر لك ورقة من هذه الأوراق، فيختار ورقة، وورقة تقول: يُضرب فوق رأسه حتى يسقط، وورقة تقول: يُكسر أصبعه الخنصر، وورقة تقول: تُقطع يده، وورقة تقول: يُكسر ذراعه، وورقة تقول تُقطع يداه ورجلاه، وقد حدث هذا. واحد كان حظه في هذا اليانصيب: أن تقطع يداه ورجلاه، فضربوه ضربًا مبرحًا، وبعد ذلك أمسكوا بذراعه وخلعوه، فعرف الرجل القضية فأغمى عليه، ولم يستيقظ إلا بعد أن نُقل إلى إحدى المستشفيات، نقله بعض الفلسطينيين.

ما يجرى عند الحواجز أيها الإخوة شيء لا يُصدق.

أين أمة العرب؟ أين أمة الإسلام؟ إنه العجز العربي، إنه الوهن الإسلامي، إنه الغياب العالمي.

أين العالم ... العالم المتمدين ... عالم الحضارة ... عالم القرن الحادي والعشرين الذي غزا الفضاء وحطم الذرة وصنع الكمبيوتر؟ أين هذا العالم الذي تقدم علميًا وتأخر أخلاقيًا؟ أين الحضارة التي أفلست في الجانب الروحي والجانب الخلقي وتعاملت مع القضايا بمعايير مزدوجة، تحل هذا عامًا وتحرم هذا عامًا، وتوجب أشياء لأناس وأشياء أخرى لأناس آخرين؟ هؤلاء المطففون {**ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ 2 وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو**

وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ} [المطففين: 2، 3]. أين عالم الحضارة؟ أين هذا العالم؟

لقد قامت منذ شهرين مسيرة في روما فيها أكثر من ألف شخص، هذه المسيرة تنادي بحفظ كرامة القطط وحرمة القطط!! في روما قالوا إن فيها أكثر من مائة وخمسين ألف قطة شاردة ليس لها مأوى، وهذه القطط تشعر بالبرد أيام الشتاء، فغار هؤلاء على القطط وأقاموا هذه المسيرة وسيروا هذه المسيرة يطالبون بحق القطط في الحياة!

من يوقف طغيان شارون؟

ألا توجد مسيرة أيها العالم المتحضر تنادي بحق الفلسطينيين في الحياة ... في الكرامة ... في الحرية؟!

القطط والكلاب في الغرب تنعم برغد العيش، وتتمتع حيثما تريد، والإنسان الفلسطيني لا يجد شيئًا من هذا! وإذا دافع يومًا عن نفسه أمام الجبروت الصهيوني ... أمام الطغيان الشاروني ... أمام المجازر اليومية التي يتعرض لها من الترسانة الهائلة التي تملكها إسرائيل: الدبابات من تحت، والمروحيات من فوق، والصواريخ من كل جانب، تضرب وتُقتّل وتُذبح وتُدمر وتُهدّم، والعالم لا يقول شيئًا! أين صوتك أيها العالم المتحضر؟

هناك عجز عربي، هناك وهن إسلامي، هناك غياب عالمي، وهناك طغيان صهيوني، طغيان لا يقف عند حد. أنا والله لا أستطيع أن أقول ضغيان وحشي، الوحوش تقتل من تقتل من أجل أن تأكل، الأسد حينما يغتال فريسته إنما يريد أن يشبع بطنه، لا يريد الاعتداء على أحد، فإذا أشبع بطنه ترك فريسته ولم يعتر على أحد، إنه يريد أن يأكل ومن حقه أن يأكل وهذه الفريسة

هي طعامه. أما هؤلاء فهم يتلذذون بقتل البشر ... بسفك الدماء ... بإزهاق الأرواح ... بتخريب الديار. الوحوش خير منهم، وأرحم منهم. هؤلاء لا يخشون خالقًا، ولا يرحمون مخلوقًا، ولا يرعون لأحد حرمة، ولا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة.

هذا الطغيان الشاروني الصهيوني المستكبر المتجبر يؤيده الأمريكان ... النفوذ الأمريكي ... المال الأمريكي ... السلاح الأمريكي ... بهذا السلاح تضرب إسرائيل إخواننا وتقتلهم.

وأمريكا لا أقول إنها ساكتة، لا، هي مؤيدة ومساندة، ومعضدة وشريكة في كل ما يجري. ما يجري في فلسطين تستطيع أن تقول: تفعله إسرائيل بمساندة أمريكا، أو تفعله أمريكا بمساندة إسرائيل، فليس هناك فرق بين هذا وهذا.

أمريكا هي فرعون هذا العصر، هذا الفرعون الذي علا في الأرض كما قال الله عن فرعون القديم: **{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ}** [القصص: 4]، هذه فرعونية العصر.

فرعون قال لقومه: **{ ... أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ}** [النازعات: 24]، **{ ... مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ...}** [القصص: 38]. وفرعون العصر وطاغوت العصر يقول هذا لقومه، ويقول هذا للبشرية كلها: أنه الإله الأعظم ... أنه الرب الأعلى، على الجميع أن يطيعوه، وعلى الجميع أن ينحنوا له، وعلى الجميع أن يخروا راكعين له.

هذا ما يجري في فلسطين، في غياب العالم، ووهن المسلمين، وعجز العرب، وتهالك السلطة الفلسطينية على إرضاء الأمريكان، فما يطلبه الأمريكان ينبغي أن يُجاب. هل يستطيع أحد أن يقول للأمريكان: لا؟ ولهذا ترى السلطة تسارع إذا حدثت عملية استشهادية - يدافع بها الفلسطينيون عن أنفسهم بعض الدفاع - وتدين هذه العملية التي قدم فيها إخوانهم أبناء فلسطين أرواحهم فداء في سبيل الله، هذه العملية تُجرم عندهم.

هذا التهالك هو الذي أضعفنا.

يا أيها الإخوة: إن قضية فلسطين هي قضية الأمة كلها، لا يجوز لنا أن ننساها، لا ينبغي أن يشغلنا عنها شاغل. حتى ما يجري في العراق أيها الإخوة هو لخدمة الصهيونية، هو لخدمة إسرائيل.

المستفيد الأول من وراء هذا كله هو إسرائيل، إضعاف العراق قوة لإسرائيل، تدمير أسلحة العراق خدمة لإسرائيل، كل ما يجري هو لإسرائيل، فتش عن الصهيونية وراء الأحداث كلها ستجد أصابعهم الخفية وراء كثير من الأحداث.

واجباتنا نحو فلسطين:

ونحن علينا أن نقف وقفة الرجال، كثير من الإخوة والأبناء يسألونني: وماذا بإمكاننا أن نفعل؟

والله نستطيع أن نفعل الكثير:

1 - أول ما نفعله: أن نصطحب نية الجهاد في أنفسنا، حينما تُتاح لنا الفرصة ننطلق كالأسود لا نلوي على شيء، هذه النية مهمة جدًا.

وقد يُثاب الإنسان ويحصل أجر المجاهدين بنيته. جاء في «الصحيحين» أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه وهو في غزوةتبوك: **«إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم»**. قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة، قال: **«وهم بالمدينة، حبسهم العذر»**(157). **{وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ}** [التوبة: 92]. لم يجدوا ركوبًا، وليس معهم أموال يشترون بها مطية، هؤلاء لهم أجر المجاهدين(158).

أنو الجهاد، اجعل الجهاد في قلبك، إن لم تستطع بيدك فجاهد بقلبك، وذلك أضعف الإيمان.

2 - الأمر الآخر أيها الإخوة: أن نظل مقاطعين للبضائع الإسرائيلية والأمريكية، وإذا دخل البريطانيون المعركة يجب أن نضم إلى القائمة البضائع البريطانية.

لا زال الكثيرون من الشعب البريطاني يعارضون، وقد قلت لهم عندما كنت في «لندن»: الكثيرون يطالبون بأن نقاطع بضائعكم، وعندنا امتحان، إذا دخلتم الحرب ستعلن مقاطعتكم في كل مكان.

الآن على الأقل نقاطع البضائع الإسرائيلية والأمريكية. المأكولات والمشروبات والملبوسات والسيارات وغير هذه الأشياء لا يجوز لنا أن

---

(157) رواه البخاري في المغازي (4423) عن أنس، ومسلم في الإمارة (1911) عن جابر. وهذا نص البخاري.

(158) ولذلك جاء في رواية لمسلم: **«إلا شركوكم في الأجر»** «كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر».

نستعملها. هذه الأشياء لا تظنوا أنها هينة، إنها على مستوى العالم الإسلامي لها أهميتها وتأثيرها، بعض المحلات أغلقت أبوابها، المتاجر الكبرى شعرت بخسارة هذا العام، الحسابات أظهرت خسارة عندهم.

لنصمم على المقاطعة حتى لو لم يخسروا، هذا واجبنا ... واجبنا أن لا نأكل من طعام هؤلاء. تأكل السم الهاري إذا أكلت من أطعمتهم؟! تشرب السم الهاري إذا شربت من مشروباتهم؟! لا يا أخي، امتنع عن هذا، هذا أقل ما يجب أن نقدمه: أن نقاطع بضائعهم ونقاطع ثقافاتهم ونقاطع كل ما يمكننا مقاطعته.

3 - وعلينا أن نبذل لإخواننا ما نستطيع، الأمريكان يريدون أن يقطعوا عن إخواننا كل عون، من أجل هذا حاربوا الجمعيان الخيرية كلها، ولا يريدون أن يبقى منفذ يصل منه شيء إلى إخواننا في فلسطين. يريدون أن يركعوهم ... أن يجوعوهم ... أن يقتلوهم جوعًا، حتى «ائتلاف الخير» يريدون أن يوقفوه.

أنا أوصي الإخوة المسلمين جميعًا أن يساعدوا بكل سبيل ... بما يستطيعون من مال. فإذا لم نستطيع أن نجاهد بأنفسنا فعلى الأقل نجاهد بأموالنا ولو بالقليل، القليل على القليل كثير إن شاء الله.

4 - بعد ذلك علينا أن نجاهد بالدعاء إلى الله والتضرع إلى الله. سلاحنا الذي لا يفل: أن بيننا وبين السماء صلة، الله ععع يقول: **{... ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ...}** [غافر: 60]، **{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ...}** [البقرة: 186]، خصوصًا في ساعات الكرب ... في ساعات الشدة ليس لنا إلا الله، نقرع

بابه، ونبسط أيدينا إليه ونقول: يا حي يا قيوم برحمتك نستغيث، نشكو إليك ضعف قوتنا وقلة حيلتنا وهواننا على الناس يا أرحم الراحمين.

هذا سلاح المؤمنين.

أوصي الإخوة أئمة المساجد وخطباء المساجد أن يدعوا بقنوت النوازل بعد الركوع الأخير من الصلوات خصوصًا الصلوات الجهرية: صلاة الفجر والمغرب والعشاء، أن يدعوا الله عع أن يؤيد إخوانهم بنصر من عنده، وأن يفتح لهم فتحًا مبينًا، وأن يهديهم صراطًا مستقيمًا، وأن يذل أعداءهم ويخزيهم وينصرهم عليهم، ويشفي صدور قوم مؤمنين.

نسأل الله تتت أن يجيب دعاءنا، وأن يغيث لهفتنا، وأن يكشف الغمة عن هذه الأمة، وأن يرد كيد الكائدين في نحرهم، اللهم آمين.

ادعو الله تعالى يستجب لكم.

* * *

(16)
فرنسا وقضية الحجاب(159)

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

الإسلام دين انتشاري:

الإسلام دعوة عالمية، جاء للناس كافة، عربهم وعجمهم، شرقيهم وغربيهم، كما قال تعالى: **{وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ}** [الأنبياء: 107]، وقال عز وجل: **{تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا}** [الفرقان: 1]، **{... إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ}** [يوسف: 104]، **{قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ...}** [الأعراف: 158]، فلا عجب أن تضيء أنوار الإسلام في المشرق والمغرب، وأن نرى المسلمين في كل مكان من أرض الله، **{وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ ...}** [البقرة: 115].

وجد المسلمون في قارات الدنيا الست، بعضهم من أهل البلاد الأصليين، وبعضهم ممن هاجر إليها، وقد أصبحت الهجرة مفتوحة في أنحاء العالم، وأصبح العالم متقاربًا، حتى زعموه قرية من القرى بعد ثورة الاتصالات، فلم يعد هناك حجاب بين قُطر وآخر، وإنما أصبح الناس يسيرون من مكان إلى مكان، وينتقلون من دولة إلى دولة، ومن قُطر إلى قُطر، ولذلك لا عجب أن

---

(159) ألقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة في 25 من ذي القعدة سنة 1424هـ الموافق 16 من ديسمبر سنة 2003م.

تجد الإسلام في أفريقيا وآسيا، وأن تجده في أوروبا وأمريكا، وأن تجده في أستراليا ونيوزيلندا، هذا هو شأن دين انتشاري مثل هذا الدين، الذي أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون.

الأقليات المسلمة في العالم:

ولذلك لا عجب أن نرى عشرات الملايين من المسلمين في أوروبا، بعضهم من أهل البلاد الأصليين، وبعضهم مهاجرين إليها، وبعضهم تجنسوا بجنسيتها، هناك مسلون في أوروبا الشرقية من أهل تلك البلاد: في البوسنة والهرسك، وألبانيا، وكوسوفور، وبلغاريا، وغيرها، ملايين. وهناك مسلمون في أوروبا الغربية جاءوا إليها منذ القرن الماضي وقبل القرن الماضي، وتجنسوا بجنسيتها. وهناك مسلمون قدموا بعد ذلك بأسباب شتى: في بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وفي كل البلاد الأوروبية.

وأعظم أقلية إسلامية وأكثرها عددًا هم المسلمون في فرنسا، هناك نحو خمسة أو ستة ملايين من المسلمين يعيشون في فرنسا، ونصفهم - تقريبًا - مجنسون بالجنسية الفرنسية، بعضهم فرنسيون في الأصل، وبعضهم هاجروا من بلاد شمال أفريقيا، أو من السنغال، أو غيرها من البلاد التي كانت تستعمرها فرنسا، حملوا الجنسية الفرنسية وأصبحوا مواطنين فرنسيين، لهم كل الحقوق التي للمواطن الفرنسي، وبعضهم يعيشون في إقامة مشروعة.

هؤلاء لهم حق أن يمارسوا دينهم، كما يمارس غيرهم دينهم، هذا ما تقتضيه الحضارة، وما يقتضيه ميثاق حقوق الإنسان، ومواثيق الأمم المتحدة، وما تقتضيه الدساتير الحديثة التي توفر الحرية لكل مواطن، ولكل مقيم على

أرض الوطن، وهذا ما تفخر به الحضارة الحديثة: أنها حضارة الحريات وحقوق الإنسان، وبخاصة ما تفتخر به فرنسا، فرنسا التي تعد نفسها أم الحريات، وتعد ثورتها أم الثورات، وتقول: نحن بلد الحضارة والنور والانفتاح، هذا ما تقوله فرنسا التي انطلقت ثورتها في أواخر القرن الثامن عشر لتنادي بمبادئ ثلاثة: الحرية، والمساواة، والإخاء.

ولذلك عجبنا من موقف فرنسا في السنوات الأخيرة من قضية اتخذت منها أمرًا إدًّا، وضخمتها تضخيمًا كبيرًا؛ قضية المسلمة التي تريد أن ترتدي الحجاب، طاعة لأمر ربها، والتزامًا بواجبات دينها.

صفحات من تايخنا مع فرنسا:

منذ تسع سنوات، ألقيت خطبة من فوق هذا المنبر عن هذه القضية، حينما حضرت مؤتمرًا للمستشرقين في فرنسا في أواخر سنة 1994م وناقشت بعض الفرنسيين في قضية الحجاب مناقشة طويلة، وقلت لهم: إننا نحن المسلمين نريد أن نتعامل مع فرنسا معاملة الند للند، وأن ننسى ما كان بيننا وبين فرنسا في الماضي البعيد، والماضي القريب، فقد كان للمسلمين مع فرنسا تاريخ أي تاريخ، مذ القرن الأول وصل المسلمون إلى أوروبا، وفتحوا الأندلس، ووصل الفاتحون إلى جنوب فرنسا، وكادت الجيوش الإسلامية تتوغل، لولا معركة قدّر الله فيها أن ينهزم المسلمون بقيادة البطل الإسلامي: عبد الرحمن الغافقي، المعركة التي يسمونها معركة «بواتييه»، والتي قال أحد مؤرخيهم: لولا انتصارنا في هذه المعركة كنّا نرسف تحت ظلام الإسلام إلى اليوم!! والإسلام ليس ظلامًا، الإسلام نور، وكتابه نور، وشريعته نور، ونبيه نور { **... قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ**

مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ 15 يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [المائدة: 15، 16].

صفحة الحروب الصليبية:

ثم كان لنا تاريخ مع فرنسا في الحروب الصليبية، الحروب التي سماها مؤرخونا: حروب الفرنجة، وسماها الغربيون: الحروب الصليبية. لأنهم رفعوا الصليب شعارًا، وكان لفرنسا فيها دور كبير في هذه الحروب، كان لهم دور في فلسطين، وكان لهم دور في مصر، وقد جاء ملكهم - الذي كان يعتبر أحد القديسين - الملك لويس التاسع، واصطدم بالمسلمين في مصر، وأسره المسلمون في «المنصورة»، ووضعوه في دار شهيرة، اسمها: دار ابن لقمان، حتى قبل المسلمون أن يفكوا أسره، وأن يقبلوا فدية كبيرة ليعود الملك إلى بلاده.

وبعد ذلك حينما أراد الفرنسيون أن يهددوا المصريين في عهد خلفاء صلاح الدين الأيوبي، في عهد الملك الصالح أيوب نجم الدين أرسل إليه الشاعر ابن مطروح يقول:

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقال صدق من قئول فصيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باقٍ والطواشي

قال له: نحن حاضرون وجاهزن، دار ابن لقمان منتظرة، والقيود التي قيد

---

(160) انظر بقية القصيدة في كتاب «تراجم إسلامية شرقية وغربية» لمحمد عبد الله عنان. طبعة مكتبة الأنجلو بمصر.

بها ملككم، والطواشي «المملوكي الحارس» كما هو باق ... هكذا كنا.

تاريخ فرنسا الاستعماري:

ونسينا هذا التاريخ، ثم جاء تاريخ آخر دخلت فيه فرنسا بلاد المسلمين مستعمرة، لسوريا، ولبنان، وقبل ذلك: الجزائر، والمغرب، وموريتانيا، والسنغال، وبلاد شتى في أفريقيا، وكان آخر البلاد التي تحررت من نير الاستعمار الفرنسي هي الجزائر، التي خاضت معركة ضروسًا طويلة المدى مع الاستعمار الفرنسي، وهو استعمار استيطاني، ليس استعمارًا طارئًا، ينهب الأموال والثروات والخيرات، ثم يعود بعد حين إلى دياره، ولكنه استعمار استيطاني، استوطن الجزائر واعتبرها جزءًا من فرنسا، وأراد أن يلغي هويتها، فألغى لغتها العربية ليحولها إلى الفرنسية، وأراد أن يلغي دينها الإسلامي، كثيرًا ما رأيت في الجزائر مساجد حوّلت إلى كنائس، أو حولت إلى متاحف، وظل هذا الاستعمار مائة وثلاثين عامًا، قاتل فيه الجزائريون منذ عهد الأمير عبد القادر، إلى عهد الثورة الجزائرية الأخيرة التي سقط فيها أكثر من مليون شهيد، وتحررت الجزائر من فرنسا، وأصبحت دولة مستقلة، كما أصبحنا دولًا مستقلة نتعامل مع فرنسا معاملة المستقل للمستقل.

فرنسا والحجاب:

وإن كنا نأخذ على فرنسا في بعض الأوقات: انسياقها مع التيار المعادي للإسلام، ولكن - والحق نقول - في المدة الأخير كثيرًا ما نوّهنا بالموقف الفرنسي من قضايانا العربية والإسلامية، فنحن نقول للمحسن: أحسنت، كما نقول للمسيء: أسأت.

حنيما وقفت فرنسا من قضايانا العربية كقضية فلسطين، وقضية الحرب على العراق، وقفت موقفًا لم تكن فيه ذيلًا لأمريكا، وإنما وقفت موقفًا مستقلًا إيجابيًا: أشدنا بالموقف الفرنسي، ورحبنا بالموقف الفرنسي.

ولكن ها هي فرنسا اليوم تخذ موقفًا من المسلمين في ديارها يغضب مسلمي العالم كله، لا تبالي فرنسا أن تغضب ستين بلدًا إسلاميًا تضمهم منظمة المؤتمر الإسلامي، وتريد أن تُغير على الفتيات المسلمات، سبحان الله! هناك لجنة حكماء شكلها الرئيس شيراك لتبحث في أمر الرموز الدينية وهذه الأشياء، وأصدرت توصيتها بأنه: يجب منع كل الرموز الدينية، ومنها: الحجاب الإسلامي، حفاظًا على الوجه العلماني لفرنسا، وتأييدًا للفصل الكامل بين الدين والدولة!

وأي دخل للدولة في قضية الحجاب، هذا أمر شخصي بحت يتعلق بحرية الإنسان واختياره، هل هذا سيؤثر على الدولة الفرنسية؟ عجب كل العجب أن يقال: إن ارتداء الحجاب - وكلمة الحجاب أصبحت تطلق عرفًا على الخمار، أو ما يسمى «الإيشارب» أو «الطرحة» التي توضع فوق الرأس - ضد علمانية الدولة!

الحجاب أمر من الله واجب التنفيذ:

إن الحجاب أمر أمَر به الله ععع، وليس من اجتهاد الفقهاء، ولا من ابتداع المسلمين، هذا أمر قرآني، يقول الله تعالى: **{وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ...}** [النور: 31] يضربن بخمار الرأس على الجيب،

وهو فتحة الصدر، المراد: أن يغطى هذا الخمار الرأس والنّحر والعنق، هذا أمر أجمع عليه المسلمون بكل مذاهبهم؛ المذاهب الأربعة، والمذاهب الثمانية، والمذاهب التي انقرضت، مذهب الأوزاعي والثوري والطبري، وغير المذاهب: فقه الصحابة والتابعين والأتباع، وكل الفرق الإسلامية، والمدارس الإسلامية، كلها أجمعت على أن الخمار واجب، وفرض ديني، أمر به الله ورسوله، وهذا إجماع نظري ارتبط بالتطبيق العملي خلال ثلاثة عشر قرنًا، في القرون الثلاثة عشر الماضية لم تُعرَف مسلمة كشفت رأسها، بعد أن تبلغ، بل حتى قبل أن تبلغ، منذ أن تصبح فتاة تُشتهى تضرب الخمار عليها، رغبة في الاحتشام، واستجابة لداعي الحياء، والحياء من الإيمان، وهو خير كله، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا أمر لا شك فيه.

هل الجماعات الإسلامية وراء الحجاب؟

لم تفكر مسلمة في التمرد على أمر الله هذا، إلا منذ دخل الاستعمار بلاد المسلمين، ولذلك أعجب لإحدى الصحفيات التي قالت: إن الحجاب هذا بدعة اخترعتها الجماعات الإسلامية في هذا العصر، لأنه لم يكن المسلمات يلبسن هذا الحجاب، ومنذ ظهرت الجماعات الإسلامية لبست النساء الحجاب. يعني أنها تعتبر الفترة التي طغى فيها الاستعمار الغربي على المسلمين، وبدأ الناس يقلدون الغرب شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، في الأفكار والمفاهيم والتقاليد: تعتبر هذه الفترة هي الأصل، مع أنها فترة استثنائية في تاريخ الأمة. الجماعات الإسلامية لم تفعل شيئًا إلا أنها أيقظت المسلمين، وحركتهم ليلتزموا بدينهم، فكانت الصحوة الإسلامية المعاصرة، التي ردت الناس إلى ربهم ودينهم، فأصبح الناس يشعرون أنهم مسلمون، وبدأت المرأة المسلمة

تشعر بأنها مسلمة، وأنها غير المرأة الغربية، وأن عليها واجبًا أمرها الله به أن تغطي رأسها.

هذا هو نضح الصحوة الإسلامية، عادت بالمرأة إلى الأصل. وهذا أمر نسائي بحت، حركة الحجاب بين المسلمات: حركة نسائية طوعية اختيارية، لم يُلزم بها أب ولا زوج، بل كثيرًا ما رأيت بعض الأمهات ينهين بناتهن عن التزام الحجاب، ورأيت بعض الأزواج ينهين زوجاتهم عن الحجاب، وكثيرًا من الزوجات يتخاصمن مع أزواجهن من أجل هذا، هي حركة نسائية تتعلق بإرادة المرأة المسلمة نفسها، وهذا ما حدث في فرنسا، وما حدث في بلاد أوروبية مختلفة، فلماذا يمنعون المرأة؟

أيها الفرنسيون: أليست حضارتكم وثورتكم هي التي نادت وتنادي بحق الإنسان في أن يلبس ما يشاء، ويتصرف في خاصة شؤونه كما يشاء، والتي تقرر الحرية الشخصية، والحرية الدينية؟! ثورة الحرية والمساواة، تضغط على النساء وتقهرهن على ما لا يردن، هذا ضد مبدأين أساسيين من مبادئ الحرية: الحرية الشخصية، والحرية الدينية، الحرية الشخصية في أن الإنسان يلبس ما يشاء، وهذه من الحريات المدنية الأساسية، واحدة تلبس «جابونيز» وواحدة تلبس طويلًا، وواحدة تلبس قصيرًا، لا أحد يتدخل في هذا لماذا تتدخلون في المرأة التي تريد أن تحتشم؟! هذا حقها المحض، وهو ثمرة حريتها الشخصية.

الحجاب من الحرية الدينية للإنسان:

ثم هذا من الحرية الدينية، المقررة والمصونة في كل الدساتير الحديثة

ومواثيق حقوق الإنسان. الإنسان حر في أن يعتنق من الأديان ما يشاء، وأن يلتزم بدينه، وبواجبات دينه، بل هذا أكثر من كونه مجرد حرية، لأن الحرية في الحقيقة تتعلق بالمباحات أي بالأشياء التي يجوز للإنسان أن يفعلها ويجوز له أن يتركها أما الحجاب فلا يجوز للمسلمة الملتزمة أن تتركه، لأن الله أمرها به، فكيف تجبرون المسلمة على أن تفعل شيئًا يخالف أمر ربها؟!

ولذلك نقول: هذا ضد الحرية، وضد المساواة، لأن معنى هذا: أنكم تضطهدون المسلمة الملتزمة بالدين، التي تريد أن ترضي ربها بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، تقولون لها: لا حق لك في أن تتديني، فأنت إذن تعطي الملحدة واللادينية حق أن تفعل ما تشاء ولا تعطي للمتدينة هذا الحق، أليست هذه تفرقة؟ أين المساواة التي تزعمونها إذن؟! الإنسانة المؤمنة بالله، الملتزمة بأحكامه وتعاليمه، لا تستطيع أن تمارس هذا الحق، على حين تستطيع الملحدة ولمتحللة أن تفعل كل ما تريد، دون أن يمنعها أحد! فأين المساواة، وأين التسامح الديني؟! تزعمون أنكم أهل التسامح، أين التسامح إذا فرضت عليّ ما لا أريد؟! إذا فرضت عليّ أن أخالف أمر ربي!

وقد قال تعالى: { **... وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ...**} [النور: 31]، هذا أمر، {**وَلْيَضْرِبْنَ**} هذه اللام لام الأمر، والأمر القرآني للوجوب المحتم اللازم، كما قال تعالى: {... **مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ...**} [الأعراف: 13]، أي أن أمر الله لا بد أن يجاب ويطاع، فكيف تجبر المسلمة على أن تخالف دينها وتترك أمر ربها؟ أنا أعجب من حضارة يباهون بها وبتسامحها تتعصب ضد إنسان، لأنه يعمل ما يأمره به دينه دون أن يضر بذلك أحدًا، ما شأنك أنت؟ واحدة تلبس طرحة على رأسها، ماذا يضيرك أنت؟ المصريون لهم نكتة

يقولون فيها: «واحد شايل ذقنه - مطلق لحيته - أنت زعلان ليه؟»، واحدة تضع طرحة على رأسها، ماذا يؤذيك من هذا؟

الحجاب بين الفرضية والرمزية:

ومن المهم هنا: أن نصحح خطأ كبيرًا شائعًا، فمن أكبر الأخطاء الشائعة: أن يقال عن الحجاب: إنه رمز ديني! وهذا عجب من العجب، الحجاب ليس رمزًا دينيًا، ولا يخطر ببال من تلبس الحجاب: أنها تريد أن تعبر عن دينها، وأنها تعلن أنها مسلمة، بدليل أن المسلمة في قلب بلاد المسلمين تعمل هذا، وليست في حاجة إلى الإعلان.

الحجاب ليس رمزًا، الرمز الديني هو ما ليس له وظيفة إلا الإعلان عن انتماء صاحبه لهذا الدين، مثل امرأة تلبس صليبًا على عنقها، هذا الصليب ليس له فائدة - فيما يظهر لنا - إلا أنها تريد أن تقول: أنا نصرانية مسيحية. اليهودي الذي يلبس قلنسوة تغطي قطعة من رأسه، هذه ليس لها وظيفة، لأنه لو أراد أن يغطي رأسه لغطى رأسه كله، هذا رمز ديني. أما الحجاب فليس رمزًا، ولكن له وظيفة، وهو أن يستر شعر المرأة، ويستر نحرها وعنقها، هذه وظيفة فتسميته رمزًا تسمية خاطئة لا تدل على عمق في الفكر، أو تأمل حقيقي في هذا الموضوع، وبعض المسلمين تأثروا بهذا الكلام، وقالوا: هو رمز ديني، وهذا خطأ، فهو ليس رمزًا دينيًا بحال، هذا أمر.

ثم إن الرمز الديني، يكون الإنسان حرًا فيه ومختارًا، يعني يستطيع أن يضع الصليب على صدره، أو تضع الصليب على صدرها، ويقدر على أن لا يفعل لكن هذا الحجاب ليس أمرًا اختياريًا بالنسبة للمسلمة، هذا أمر أمَر الله

تعالى به فليس لمسلمة الاختيار في هذا، هي مجبورة على أن تمتثل أمر الله عز وجل، ولذلك لا يقال إن الحجاب رمز ديني.

على أن الرمز الديني لا يختلف باختلاف الأحوال والأوضاع، ولكن الحجاب يختلف، فالمرأة تلبسه أمام الرجال الأجانب عنها، ولا تلتزم به أمام النساء، ولا أمام أبيها وأخيها، وعمها وخالها، وأبناء إخوانها وأخواتها، وسائر محارمها، فهل يوجد مثل هذه التفرقة في أي رمز من الرموز الدينية؟!

وحتى لو كان هناك رموز دينية، وكان الحجاب منها. فالواقع أنهم لم يمنعوا غير الحجاب! ففي فرنسا قالوا: سنمنع الصليب الكبير، ما معنى الصليب الكبير؟ وهل التي تلبس الصليب تلبس صليبًا يزن نصف كيلو؟! هو صليب صغير في العادة، والصليب الصغير لا يمنع! إذن يكون الأمر منصبًا على منع الحجاب الإسلامي! هذا هو المقصود، والدليل: أنه لم تثر القضية إلا بعد أن أصبحت قضية الحجاب مثارة في كل مكان؛ حنيما وجدت فتاتان أبوهما يهودي وصممتا - بعد أن أسلمتا - على ارتداء الحجاب، وأبوهما يدافع عنهما وعن حقهما في لبس الحجاب، فثارت هذه القضية ووصلت إلى ما وصلت إليه.

صور من سماحة الإسلام مع الآخر:

نحن - المسلمين - متسامحون، نحن نتسامح فيما هو أكثر من ذلك، نحن نطالب الفرنسيين ونطالب الحضارة الغربية: أن تسامحنا فيما نراه أمرًا واجبًا دينيًا، ولكننا - نحن المسلمين - نسامح فيما هو أكثر من هذا وأوسع دائرة، إننا

نسامح فيما يراه الشخص مباحًا في أمر دينه، ولا نضيق عليه فيه، وإن كنا نحن نراه حرامًا. نحن نرى: أن أكل لحم الخنزير حرام، ولكن لا نمنع المسيحي من أن يأكل لحم الخنزير، وأن يربي الخنزير في بيته، أو مزارع عنده، هذا حقه، لا نريد أن نضيق عليه في أمر مباح عنده، مع أن الأمر المباح يستطيع الإنسان أن يتركه، فليس من الواجبات الدينية أن يأكل المسيحي لحم الخنزير، هو مباح له، ولكن الإسلام يقول له: أنت حر فيما أبيح لك.

وشرب الخمر مباح عند المسيحيين، ولكنه محرم عندنا، فالخمر أم الخبائث، ومفتاح الشرور، وهي من كبائر الإثم، ومع هذا لا نضيق على المسيحيين في أن يشربوا خمرًا، بشرط: أن يشربوها في مناطقهم الخاصة، ولا يبيعوها للمسلمين، ولا يعلنوا بها في المناطق الإسلامية، هذه هي سماحة الإسلام.

بل مذهب الإمام أبي حنيفة: أن المسلم لو كسر دنًّا من خمر لذميّ نصراني: فإن عليه أن يغرم قيمته، لأنه مال متقوّم عند صاحبه، هكذا نتسامح إلى هذا الحد. فأين هذا التسامح مما نراه في فرنسا الآن؟

التنوع الثقافي في حضارتنا:

إن حضارتنا الإسلامية في أيام بلوغها الذروة، في أيام عطائها المدرار كانت حضارة متسامحة: اتسعت لكل الأديان، ولكل الثقافات، آمنت بظاهرة التنوع، شارك في بناء الحضارة الإسلامية مسلمون ومسيحيون ويهود ومجوس، ومن كل الملل والنحل، شاركوا في الحضارة الإسلامية، ووسعتهم

الحضارة الإسلامية، الحياة مبنية على التنوع، الكون قائم على التنوع، مختلف ألوانه، هذا الكون فيه أشياء كثيرة مختلف ألوانها أي: أنواعها، فلماذا يريد الفرنسيون أن يمنعوا ظاهرة التنوع والتعدد؟ هذه ظاهرة رجعية. أن تحاول أن يكون هناك لون واحد، ودين واحد، وثقافة واحدة، وزي واحد، هذا هو التأخر والتخلف، ليست هذه حضارة، الحضارة: أن تسع الآخرين.

هذا للأسف ما وجدناه عند فرنسا المتنورة، المتحضرة، المتمدنة، أم الثورات، وأم الحريات، تضيق بهؤلاء المسلمات!

نريد من فرنسا، ونريد من دول الغرب كلها: أن تتسع لمن يخالفها في الدين، أو يخالفها في العرق، أو يخالفها في الثقافة، أم سياسة التطهير العرقي، أو التطهير الديني، أو التطهير الثقافي، أو عدم السماح بأي مخالف، ومحاولة صهر المجتمع كله في بوتقة واحدة، وفي طريقة واحدة، فهذا ما لا يقبل بحال من الأحوال.

لونان من العلمانية:

يقولون: نحن نحافظ على الوجه العلماني لفرنسا! وأود أن أقول هنا: العلمانية نوعان: علمانية معتدلة، وعلمانية متطرفة، العلمانية المتطرفة رأيناها عند الماركسيين والشيوعيين، الذين لا يسمحون بأي دين، ولا بأي فلسفة مخالفة، وترى: أن «الدين أفيون الشعب»، وينص دستورها على: أن «لا إله، والحياة مادة»!، والغربيون الذين كانوا يسمون أنفسهم العالم الحر، كانوا ينكرون هذا ويقاومونه ويحاربونه، وهذه هي العلمانية المتطرفة، فما بال الغربيين اليوم يتبنون هذه العلمانية؟!

وهناك علمانية معتدلة، لم هي معتدلة؟ إنها تقف من الدين موقف الحياد، يعني هي لا تؤيد الدين ولا تعاديه، لا تقبله ولا ترفضه، ليس لها علاقة بالدين الذي يريد أن يتدين فهو حر، ولكن الدولة لا تتدخل في تأييد هذا الدين، ولا في رفض هذا الدين. هذه هي العلمانية الحقيقية، لأنها إذا وقفت من الدين موقف العداء معناها أنها فرقت بين المواطنين بعضهم وبعض، لأن من المواطنين من يتدين، ومنهم من لا يتدين، فإذا وقفت ضد المتدين فلم تسوّ بينهما.

خوف يتبعه مخاوف:

ونحن نحشى أنهم إذا قالوا اليوم: نريد أن نمنع التتميز الدين في الزيّ، فنخاف مستقبلًا أن يقولوا: نمنع التميز الديني في العبادة. لماذا يتميز المسلمون بأن يكون لهم مساجد يصلون فيها؟ هذا نوع من الخلاف السائد في فرنسا، وإذا كان هناك من يشرب الخمر، ومن لا يشرب الخمر، فكيف نميز بينهما؟ هل يجب أن يشرب كل الناس الخمر؟! هناك من يدخن ومن لا يدخن، هناك من تحتشم ومن لا تحتشم، فيظل هناك فروق. إذا مر هذا الأمر ولم يعترض الناس أمكن أن يقولوا بعد ذلك: لماذا تمتنع عن الأكل والشرب في رمضان، والناس كلهم من حولك يأكلون ويشربون؟ أعني: أن هذه قضية في غاية الخطورة، فإذا فتحنا هذا الباب فمعناه: أن يتدخل الناس في الشؤون الشخصية للفرد، في أخص الخصوصيات، وهذا لا يقبله أحد. وهو لا شك ضد حقوق الإنسان.

العلمانية المتطرفة:

نحن ننكر على فرنسا هذا الموقف، ونرى: أن هذا ردة عن تراث فرنسا،

وعن موقفها من الحريات، ومن حقوق الإنسان، وأنه لا يليق بها هذا، وأنها بموقفها هذا تغضب المسلمين في أنحاء الأرض، بعد أن صفقوا لها، ووقفوا منوهين بسياستها المستقلة عن أمريكا.

وإن مما يندى له الجبين، ومما ينقطع له نياط الفؤاد، وتتفتت من أجله الأكباد: أن في بعض بلادنا الإسلامية من يفعل مثل فرنسا، وما هو أشد من فرنسا، لأن فرنسا تمنع هذا في المدارس، أما في بلاد إسلامية عربية معروفة في شمال أفريقيا فنراها تمنع الحجاب في المدارس والجامعات، وتمنع دخول المحجبة في الوظائف الحكومية، ووظائف القطاع العام، وتمنعها من دخول المستشفيات، ولو للعلاج أو الولادة، بل أصبحوا الآن يدفعون السائقين إلى أن لا يركبوا امرأة محجبة في سيارة التاكسي، هذه بلاد إسلامية، ولذلك بعضهم يقولون: إذا كنتم لا تستطيعون أن تمنعوا هذا في البلاد الإسلامية، فلماذا تريدونه أن يمنع في بلادنا؟! هذا أمر مؤسف! ولكن هذه البلاد معروفة بمعاداة الحريات، وبالتنكر لحقوق الإنسان، ولا نحب لفرنسا أن تكون مثلهم، ولا هي تحب أن تكون كذلك.

دول المسلمين نحو قضية الحجاب:

نحن أيها الإخوة ينبغي أن نقول لفرنسا: ما فعلتموه لا يرضي المسلمين في أنحاء العالم، والمسلمون في أنحاء العالم وقفوا معكم في قضايا كثيرة، وأشادوا بكم، ونوهوا بمواقفكم، فلا تجلبوا عداوة المسلمين عليكم، كل من عنده استطاعة أن يبعث ببرقية إلى الرئيس الفرنسي ينبغي أن يفعل، وعلى الجهات الإسلامية، والجمعيات الإسلامية، والجامعات الإسلامية، وعلى المؤسسات الإسلامية المختلفة أن تفعل ذلك. لم أستطع أن أقول: وعلى حكام

المسلمين أن يفعلوا ذلك، لأن بلاد المسلمين كلها لها عند فرنسا مصالح، ولفرنسا لها عندها مصالح، ولو قال حكام المسلمين كلمة واحدة: هذا لا يرضينا نحن المسلمين، والله لارتدعت لفرنسا، ولكن لا أحد يهتم بأمر الإسلام ولا المسلمين! حتى قال أحد العلماء حينما سئل عن هذا الأمر، قال: هذا أمر داخلي، ولا علاقة لنا به، ولا يجوز لإنسان أن يتدخل في أمر بلد آخر!!! نحن لا نتدخل، ولكن نقول: هذا ضد مبادئكم، وضد دستوركم، وضد حقوق الإنسان، ونقول: هذا يؤلمنا ويؤذينا ويعكر علاقتنا بكم، هذا هو الذي نريده.

نسأل الله تتنت أن يهيئ للمسلمين من أمرهم رشدًا وأن يجعل يومهم خيرًا من أمسهم ويجعل غدهم خيرًا من يومهم إنه سميع قريب.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

إلقاء القبض على صدام حسين:

نشرت الصحف، وبثت وكالات الإعلام نبأ اعتقال الرئيس العراقي السابق صدام حسين، وقد كنت في مؤتمر في مكة حينما سمعت هذا النبأ وقلت: هذا أمر كان لا بد أن يقع، ولا يمكن أن يظل الرجل مختفيًا أبد الدهر، خصوصًا: أن من أقرب المقربين إليه من هو مستعد أن يبيعه ولو بثمن بخس، ومثل هؤلاء الذين لم يتربوا في حضانة الإيمان مستعد أن يبيع صديقه

بعرض يسير من الدنيا، فلهذا وشي به أقرب الناس إليه، وكان بجواري في هذا المؤتمر أحد كبار العلماء العراقيين من أهل السنة قلت له: أسمعت بنبأ اعتقال صدام؟ قال: نعم، سمعت وهذه نهاية كل ظالم، أما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم تلا قول الله تعالى: {وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}** [هود: 102]»[161].

قلت له: ولكن كنا نحب أن يكون ذلك على أيدي العراقيين لا على يد الأمريكيين، قال: وهل يسمح الأمريكيون للعراقيين أن يسقطوا طاغية؟ هل يسمحون للمسلمين في أي بلد أن يسقطوا طاغية من طغاتهم؟ قلت له: لا والله، لا يسمحون، وما سمحوا بذلك في بلد قط، سمحوا في أوروبا الشرقية أن تثور الشعوب على طغاتها، شاوشيسكو وغيره، وأن يسقطوهم، ولكنهم لم يسمحوا بذلك في البلاد الإسلامية التي كانت تحكمها الشيوعية، البلاد التي كانت منتمية إلى الاتحاد السوفيتي، أوزباكستان وطاجيكستان وكل هذه البلاد، أبقوا فيها الحكام الشيوعيين القدامى كما هم، ووفروا لهم الحماية اللازمة، ولم يسمحوا بثورة على هؤلاء الطغاة.

هم فعلًا لا يسمحون بأن يقوم الشعب العراقي ليسقط طاغيته، هم أيدوا صدام حسين حينما كان توجهه يخدم سياستهم، أمدوه بالسلاح، وبما يحتاج إليه حتى كوّن جيشه الذي حارب به جيرانه، ولكن حينما بدأ يختلف معهم تخلوا عنه، هم الذين أغروه بأن يغزو الكويت، حتى يقع في المطب وفي

---

(161) سبق تخريجه في (ص 47).

الفخ، ثم بدأوا يحاربونه، ويؤلبون عليه، حينما بدأ يكون سلاحًا نوويًا، وبدأ يكون خطرًا على إسرائيل، هنا بدأوا يدركون خطورة هذا الرجل، وخطورة العراق. فمن أجل هذا حاربوه، لم يحاربوه من أجل سواد عيون الشعب العراقي، أو من أجل خاطر المعارضة العراقية.

لست صداميًا!:

أنا لا أحزن على صدام حسين، فلم أكن في يوم من الأيام صداميًا، دعا صدام حسين العلماء، وذهب العلماء إلى العراق، وحضروا مؤتمراته من المشرق والمغرب، إلا عالمين لم يحضرا، ووضعا في القائمة السوداء عنده: الشيخ أبو الحسن الندوي في الهند، ويوسف القرضاوي في قطر، هذا العالمان لم يستجيبا لدعوة صدام.

على كل حال نحن لا نريد أن نبكي على صدام، كما لا نريد أن نهلل للأمريكيين، لا نريد أن نطبل ونزمر لهم، وأن نسير في ركاب المطبلين والمزمرين لهؤلاء، إنما نحن مع كل موقف حق، ونحن ضد كل ظالم سواء كان هذا الظالم عربيًا أم عجميًا، شرقيًا أم غربيًا، نحن نرى أن نهاية الظالمين لا بد أن تأتي قرب اليوم أو بعد، **{ ... وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ}** [هود: 83]، **{وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ}** [إبراهيم: 20]، **{فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}** [النمل: 52].

* * *

(17)
التعددية في الإسلام(162)

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

وحدانية الخالق:

يقوم التصور الإسلامي للوجود على حقيقتين أساسيتين:

الحقيقة الأولى: هي وحدانية الخالق.

والحقيقة الثانية: هي تعددية الخلق.

على هذين الأساسين بني الإسلام تصوره وعقيدته وفكرته عن هذا الوجود، الله وحده هو الواحد، وما عداه متعدد، هو واحد في ذاته، وواحد في صفاته، وواحد في أفعاله، هو الخالق وحده، والمحيي والمميت وحده، وهو المعبود وحده، فلا يستحق العبادة غيره، ولا الاستعانة سواه **{إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ}** [الفاتحة: 5]، **{قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ 1 ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ 2 لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ 3 وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ}** [الإخلاص].

ولهذا كان التوحيد في الإسلام هو جوهر هذا الدين، وهو أساس هذا البناء كله، التوحيد روح الوجود الإسلامي **{ ... يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ**

(162) ألقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، في 3 من ذي القعدة سنة 1424هـ الموافق 26 من ديسمبر 2003م.

بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ...} [آل عمران: 64]. وهذه كانت دعوة الأنبياء والمرسلين جميعًا، كل الرسل دعوا قومهم إلى التوحيد **{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ...}** [النحل: 36] والطاغوت: كل ما يعبد ويعظم ويطع طاعة مطلقة من دون الله، سواء كان من البشر أم من غير البشر.

لقد حرر الإسلام البشرية من عبادة غير الله، من عبادة الأشياء أو عبادة الذوات: عبادة الأشخاص، أو عبادة الأفلاك، أو عبادة الحيوان، أو عبادة الإنسان، أو عبادة الهوى والذات، وبكلمة موجزة: تحرير البشر من العبودية لغير الله.

كانت رسالة الأنبياء جميعًا التي تركزت وتجسدت في الدين الخاتم - الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم - أن ينعم الناس بظلال الحرية، ويتنسموا نسيم الحرية، فقد كان يعبد بعضهم بعضا، ويذل بعضهم لبعض، ولذلك رفع الإسلام الجباة أن تسجد لغير الله، والظهور أن تطأطئ لغير الله، فلا انحناء إلا لله راكعين، ولا تعفير لجبهة إلا لله ساجدين، وكانت رسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيصر الروم وغيره من أمراء النصارى، تدعوهم إلى هذا التحرر، ويختمها بالآية الكريمة: **{ ... يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}** [آل عمران: 64] هذه هي الحقيقة الأولى.

تعددية الخلق:

والحقيقة الثانية - وهي المقصودة بالحديث في هذا اليوم بعد وحدانية

الخالق - هي: التعددية، التعددية في الخلق: التعددية العرقية، والتعددية اللسانية، والتعددية الدينية، والتعددية الثقافية، والتعددية الحزبية، كل هذه التعدديات شرعها الإسلام، أنت لست وحدك في هذا الوجود، لست إلهًا حتى تكون متوحدًا: لا شريك لك، ولا ند لك، ولا كفؤ لك، ولا شبيه لك، لا، هناك آخرون يشاركونك، وينبغي أنه يفهم الناس هذه الحقيقة، أن هناك تعددًا.

هناك تعدد في الأجناس والعناصر، والله تعالى يقول: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ...}** [الحجرات: 13] خلقناكم من ذكر وأنثى، كلكم أبناء آدم وحواء، وكلكم أبناء رجل وامرأة، وجعلناكم شعوبًا وقبائل، هذا الشعب العربي، وهذا التركي، وهذا الشعب الهندي، وهذا الشعب الأفغاني وهذا الشعب الفارسي، شعوبًا وقبائل لتعارفوا لتتفاهموا لتتعاونوا، لا تتناكروا ولا تتصادموا ولا تتعادوا، هكذا خلق الله البشر عروقًا وأجناسًا كلها تنتمي لأب واحد هو آدم، وتنتمي لرب واحد هو الذي خلقها وسواها، هو الله عز وجل، وهذا ما عرفه النبي صلى الله عليه وسلم للألوف المؤلفة في حجة الوداع حينما قال: **«أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب»**(163).

لا بد أن يعترف الناس بن هناك عروقًا وأجناسًا مختلفة، وليس لجنس سيادة على جنس؛ كما يدعى اليهود: أن الجنس الإسرائيلي هو شعب الله المختار، وعليه أن يسود العالم.

---

(163) رواه أحمد (570/6)، والطبراني في «الأوسط» (4749) عن أبي سعيد الخدري، ورواه البيهقي في «الشعب» (5137) عن جابر بن عبد الله.

أو كما اعتقد بعض الفلاسفة اليونان: أن الناس يتفاوتون بحكم الخلقة، فمنهم شعب خلق ليسود ويقود ويحكم، وشعوب أخرى خلقت لتقاد وتساق وتحكم، هناك سادة وهناك عبيد.

أو كما اعتقد الآريون الأوربيون في وقت من الأوقات، مثل هتلر وغيره، أن الجنس الآرى هو سيد الأجناس، لا بد أن يحكم العالم!

أو كما اعتقد رينان وغيره من الفلاسفة المحدثين: أن الأجناس تتفاضل، فهناك جنس أفضل من جنس، وعرق خير من عرق.

لا، فهذه المقولات مرفوضة في نظر الإسلام، إن الإسلام يقول: الناس سواسية كأسنان المشط متساوون في العبودية لله، والبنوة لآدم. إنما يتفاوت الناس بالعلم والعمل والإحسان { **... قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ...**} [الزمر: 9] {**لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ ...**} [النساء: 95] {**قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ ...**} [المائدة: 100] الناس تتفاوت بعلمها، وبأعمالها، وبتقواها، وبفضائلها، وبما تقدمه للناس من خيرات وصالحات.

الأجناس كلها متساوية ويجب أن يسع بعضها بعضا، لا يحاول جنس أن يطغى على جنس، فضلًا عن أن يبيد جنسًا آخر، كما رأينا الأوربيين عندما ذهبوا إلى أمريكا، أرادوا أن يبيدو الجنس الأصلي الذي يسكن البلاد «الهنود الحمر»، وقامت مذابح إبادة هائلة.

وكذلك عندما دخلوا أستراليا أعملوا سيف الإبادة في أهلها الأصليين!

وحينما دخلوا بلادًا شتى حاولوا أن يبيدوا عناصر أخرى وأجناسًا أخرى! ليس من حق جنس أن يحكم على جنس بالإبادة. هذا خلق الله، لهم حق في الاستخلاف في هذه الأرض وعمارتها، كما لكم حقوق في العيش عليها.

بل إن رسول الإسلام ليعلن هذه الحقيقة الكبيرة: «**لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها**»(164) حتى أمم الحيوان لا ينبغي أن تباد، وإن كانت تؤذي الإنسان أحيانًا، والرسول هنا يشير إلى الحقيقة القرآنية التي سجلها القرآن في قوله تعالى: {**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ...**} [الأنعام: 38].

التعددية اللسانية واللغوية:

هناك التعددية العرقية، وهي حقيقة من الحقائق، وهناك التعددية اللسانية: أن الله خلق الناس تختلف ألسنتهم ولغاتهم، القرآن يقول: {**وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ**} [الروم: 22] هذا يتكلم بالعربية، وهذا بالفارسية، وهذا بالهندية، والهندية فيها مئات اللغات، وهذا يتكلم بالتركية أو بالسواحلية، فالناس يتكلمون بلغاتهم {**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن**

---

(164) رواه الترمذي في الصيد (1489) وقال: حسن صحيح، وأبو داود في الصيد (2845)، والنسائي في الصيد (4280)، وابن ماجه في الصيد (3205) عن عبد الله بن مغفل. وذكره الألباني في «صحيح الجامع» (5321).

وفي الحديث إشارة إلى حقيقة كونية قررها القرآن الكريم وهي: أن الكائنات الحية الأخرى - غير العاقلة - لها كينونتها الاجتماعية الخاصة، التي تميزها عن غيرها، وهذا يعني أنها لم تخلق عبثًا، ولهذا فلا يحسن الأمر باستئصالها. راجع ما كتبناه في كتابنا «السنة مصدرًا للمعرفة والحضارة» طبعة دار الشروق القاهرة، ط. 1997م، (ص 146)، وكتابنا: «رعاية البيئة في شريعة الإسلام» طبعة دار الشروق القاهرة 2001م، (ص92).

رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ...} [إبراهيم: 4] حتى الرسالة العالمية - رسالة الإسلام، ورسالة القرآن - جاءت بلسان عربي مبين، كيف نبلغها إلى العالم؟ نترجم إلى العالم هذه الرسالة حتى يعرفوها، ولكن لا بد أن نعترف أن هناك لغات شتى، وألسنة شتى مختلفة يتحدث بها الناس، وهذه آية من آيات الله عز وجل، هناك تعددية لسانية ولغوية، ولا ينبغي لأحد أن يضيق بلغة غيره أو يحاول أن يضيق عليها، أو يتعصب ضدها.

التعددية الدينية:

وهناك تعددية دينية. الله عع خلق الناس مختلفين، خلق لكل منهم عقلًا يفكر به، ومنحه الإرادة ليرجح بها، ومنحه ملكات وقوى ومواهب مختلفة، على أساسها اختار الناس لأنفسهم. ولو شاء الله أن يجعل الناس كلهم مؤمنين به لفطرهم على التوحيد والإيمان كما فطر الملائكة، ولكن الله خلق من خلقه خلقًا مفطورين على عبادته: { **... لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ}** [التحريم: 6] **{يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ}** [الأنبياء: 20] وهؤلاء هم الملائكة.

وخلق من خلقه نوعًا ميزه بالإرادة والاختيار، هو الذي يقرر مصير نفسه **{... فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا ...}** [يونس: 108] **{مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا ...}** [فصلت: 46] { **... فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ...}** [الكهف: 29] { **... لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا}** [الفرقان: 62] أعطاه المشيئة والإرادة والاختيار والقدرة ليقرر مصيره، هذا النوع هو الإنسان، لم يشأ الله أن يجبره على دين واحد، وعلى الإيمان به، بل ترك له الحرية، أعطاه الأدوات التي يفكر بها، وبعث له الرسل، وأنزل له

الكتب، لتعاونه في اختيار الطريق، ولكنه ترك له الحرية، هكذا خلق الله الناس **{وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ 118 إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ ...}** [هود: 118، 119] قال كثير من المفسرين: لذلك: أي للاختلاف خلقهم، لأنه خلقهم متغايرين في الفكر والإرادة، فلا بد أن يتغايروا في الدين الذي يختارونه، **{وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ}** [يونس: 99]، لا، لا يكره الناس على شيء، فمن عهد سيدنا نوح قال لقومه: **{ ... أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ}** [هود: 28] أنلزمكم بالهداية؟ لا، أنتم أحرار فيما تختارون لأنفسكم.

خلق الله الناس على أديان مختلفة، ويجب أن يسع أهل الأديان بعضهم بعضا، لا يجبر أناس على أن يتركوا دينهم ليعتنقوا دينًا آخر **{لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ...}** [البقرة: 256] ولذلك ينبغي أن نسع المخالفين، لا يجوز لنا أن نقهرهم على أن يتبعوا ديننا، وكما لا نجيز لأحد أن يقهرنا على ترك ديننا، أو يمنعنا من طاعة ربنا، لا يجوز لأحد أن يتدخل في دين أحد.

هذه التعددية الدينية هي التي قررها الإسلام منذ العهد المكي والعهد المدني، هناك سورة جمعت بين أمرين قد يظنهما بعض الناس متناقضين: الاعتزاز بالدين إلى أقصى حد، والتسامح في الدين مع المخالف إلى أقصى حد، هذه السورة هي سورة «الكافرون»، السورة الوحيدة التي خاطب الله فيها الكافرين بعنوان الكافرين، فالله عز وجل يخاطب الكافرين عادة بـ: «يا أيها الناس» «يا عبادي» «يا بني آدم»، ولكن قال في هذه السورة: **{قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ 1 لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ 2 وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ 3 وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ**

4 وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ 5 لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ} [سورة الكافرون].

كان المشركون يساومون النبي صلى الله عليه وسلم ويفاوضونه، يريدونه أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، أي ليجرب كل منا دين الآخر! هذه المساومات أراد القرآن أن يقطعها بقرار حاسم، فهذا أمر مرفوض، ولذلك قال: **{لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ 2 وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ 3 وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ 4 وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ}** هذا التكرار والتأكيد مقصود، لتثبيت النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على دينهم والتشبث به، والاعتزاز به إلى آخر مدى. وفي آخر السورة يأتي هذا التسامح العجيب: **{لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ}** الحياة تتسع لي ولكم، وإن اختلفت أدياننا. لكن المشركين المتعصبين قالوا له: لا، لنا ديننا، وليس لك دينك! هذا هو التعصب بعينه، أن تثبت نفسك، وتنفي من عداك.

هل هناك أديان غير الإسلام؟

ولذلك خطأت بعض الإخوة الذين يقولون: لا دين غير الإسلام، مستدلين بقوله تعالى: **{إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ}** [آل عمران: 19] لا مانع أن تعتقد أن دينك هو الحق، فكل مؤمن بدين يعتقد أن دينه وحده هو الحق، ولا ملام على ذلك.

ومع هذا نقول: هناك أديان أخرى، حتى دين المشركين الوثنين فالله قال لهم على لسان رسوله: **{لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ}** كذلك أهل الكتاب لهم دينهم **{يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ ...}** [النساء: 171] **{ ... لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ ...}** [المائدة: 77].

هناك أديان أخرى وسعها الإسلام، وعاشت في ظلال الإسلام قرونًا:

عاشت النصرانية، وعاشت اليهودية، وعاشت المجوسية، وعاشت الهندوسية، وغيرها من الديانات. والمسلمون كانوا هم سادة العالم، ولهم القوة الأولى في الدنيا، وكانوا يستطيعون أن يفرضوا عليهم دينهم، وأن يقهروهم على الإسلام، لم يحدث ذلك أبدًا، لأن الإسلام لا يقبل إيمانًا فيه شائبة إكراه، الإيمان لا بد أن يكون اختيار محضًا، ولذلك لم يجبر غير المسلمين في وقت من الأوقات على دخول هذا الدين، وهذا ما قرره المستشرقون الغربيون أنفسهم مثل: توماس أرنولد في كتابه «الدعوة إلى الإسلام» الذي قال: لم يحدث في تاريخ المسلمين أن جماعة أجبرت على أن تدخل في الإسلام إكراهًا أبدًا، كان هؤلاء يعيشون في المسلمين كأهل ذمة، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، لهم كنائسهم، ولهم صلبانهم، ولهم نواقيسهم، ولهم أزياؤهم، ما أجبر أحد على أن يغير زيه ليكون مثل المسلمين، بالعكس قيل: إنهم أمروا أن يلزموا زيهم ولا يغيروه، وحتى هذا غير ثابت. فالإنسان له الاختيار ما دمت تركت له دينه، فمن حقه أن يعيش بدينه، وأن يقيم شعائره، وأن يؤدي واجباته. بل من عجائب التسامح الإسلامي: أنه لا يجبر الإنسان على أن يترك مباحًا له في دينه ليجامل المسلمين بتركه، لم يجبره على أن يترك أكل الخنزير أو شرب الخمر، وسمح للنصارى في بلاده أن يعيشوا فيها وهم يشربون الخمر، ويربون الخنازير، ويأكلون لحومها، وهو أمر مباح في دينهم. حتى إن من أراق خمرًا لذمي، يغرم قيمتها، كما يرى الإمام أبي حنيفة وأصحابه، وهي في نظر المسلمين جميعًا، أم الخبائث ورجس من عمل الشيطان!

هذا هو التسامح الحقيقي، التعددية الدينية تحتاج إلى التسامح، كيف يتسامح

الإنسان وهو يعتقد أن دينه هو الحق، وأن غيره هو الباطل وأن { **... ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ...**} [آل عمران: 19] {**وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ...**} [آل عمران: 85] لو كان يعتقد هذا كيف يتسامح مع غيره؟! هذا ما يحتاج إلى بيان، فقد يلتبس على كثيرين.

مفاهيم تعين المسلم على التسامح:

من روائع ما جاء في الإسلام: أن المسلم برغم اعتزازه بإسلامه {**وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ**} [فصلت: 33] رغم اعتزازه بالإسلام، ومباهاته بالإسلام، ومغالاته بالاعتزاز بهذا الدين، رغم هذا فقد غرس فيه الإسلام من العقائد والمفاهيم والأفكار ما يجعله يتعايش بتسامح منقطع النظير مع المخالفين له.

1 - الاختلاف واقع بمشيئة الله:

من هذه المفاهيم الأساسية: أنه علمه أن اختلاف الناس واقع بمشيئة الله {**هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞ ...**} [التغابن: 2] هكذا خلق الله الناس، وأن هذا بمشيئة الله {**وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ ...**} [هود: 118] وما دام هذا من مشيئة الله التي لا تنفصل عن حكمته، فلا يعقل أن يقاوم الإنسان مشيئة الله، لأن مشيئة الله هي النافذة، وهي الغالبة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. ولهذا استراح المؤمن أن هذا هو ما يشاؤه الله، هل سنعدل على الله خلقه أو كونه، وقد خلقه هكذا؟! وهو الذي أحسن كل شيء خلقه؟!

2 - حساب الناس موكول إلى الله وحده:

الأمر الثاني: أن الناس إذا اختلفوا، آمنوا أو كفروا، اهتدوا أو ضلوا،

صلحوا أو فسقوا، ليس حسابهم في هذه الدار، وإنما هناك دار أخرى للحساب والجزاء، والذي يتولى الحساب والجزاء فيها هو: الله عز وجل، وهذا يطمئننا فإن الذي يجزي الجميع رب عادل لا يظلم أحد. يقول القرآن: **{وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ 68 ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ}** [الحج: 68، 69] **{فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ}** [الشورى: 15]. **{إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ}** [الحج: 17].

3 - احترام آدمية الإنسان:

الأمر الثالث: أن الإسلام يكرم الإنسان من حيث هو إنسان، فالإنسان من حيث آدميته مكرم في هذا الدين **{وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا}** [الإسراء: 70] فأسبغ الله على الإنسان نعمه ظاهرة وباطنة، وجعله خليفة في الأرض، فالإنسان هو زبدة هذا الوجود، وهو الذي كرمه الله عز وجل بغض النظر عن لون عينيه، أو نعومة شعره أو جعودته، أو لونه أبيض أو أسود، أو أنفه كيف هي.

الإنسان مكرم عند الله من حيث هو إنسان، بغض النظر عن لونه أو عرقه أو طبقته، بل عن دينه، روى الشيخان في صحيحيهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم مروا عليه بجنازة، فقام لها واقفًا، فقالوا: يا رسول الله إنها جنازة يهودي! قالوا ذلك متعجبين من قيامه واحترامه لها، فقال صلى الله عليه

وسلم: «**أليست نفسًا؟!**»[165] أليست نفسًا بشرية، فما أروع الموقف، وما أروع التعليق! النفس البشرية مكرمة معصومة مصونة في الإسلام { **... أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا ...**} [المائدة: 32] هذا هو الأمر الثالث الذي يمحو به الإسلام التعصب من نفسية المسلم، ويغرس فيها التسامح والأفق الواسع.

4 - الإنصاف والعدل مع الجميع:

الأمر الرابع: أن الإسلام يأمر بالعدل مع الناس جميعًا، مع من تحب، ومع من تكره، مع القريب والبعيد، مع الصديق والعدو، مع المسلم والكافر، مع المسالم والمحارب، العدل للناس جميعًا، هذا هو عدل الله لكل عباد الله، وهذا ما ينبغي أن يراعيه المسلم، يقول الله تعالى: {**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ ...**} [النساء: 135] هذا عدل مع من تحب.

ويقول في الآية الأخرى: {**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ ...**} [المائدة: 8] لا يحملنكم شنآنهم يعنيك شدة بغضهم لكم، أو شدة بغضكم لهم، لا يحملنكم هذا على ألا تعدلوا {**... ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ...**} [المائدة: 8] العدل مع الجميع.

ولما حاول اليهود أن يرشوا سيدنا عبد الله بن رواحة، وهو يُقدر ما يجب عليهم في النخيل، كانوا قد عاملهم النبي صلى الله عليه وسلم على أن يزرعوا الأرض ويعطوا النبي النصف ولهم النصف، وكانت طريقتهم: خرص

(165) سبق تخريجه في (ص 42).

النخيل، يعني تقدير ثمر النخيل تقديرًا تقريبيًا، كم تحمل النخلة، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يترك لهم الحرية في الأكل من النخير أو التصرف فيه بعد الخرص. ووكل النبي صلى الله عليه وسلم أمر هذا التقدير للخبراء، وكان من هؤلاء الخبراء: سيدنا عبد الله بن رواحة، فأراد اليهود - على طريقتهم - أن يرشوه حتى يقلل ما يجب عليهم من النخيل، فقال لهم: يا أعداء الله ترشونني! والله لأنتم أبغض إلي من القردة والخنازير، ولرسول الله أحب إليّ من نفسي، ولكني والله لا أحيف عليكم مثقال ذرة! فقالوا: هذا هو العدل الذي به قامت السماوات والأرض![166]

العدل مع الناس جميعًا، بهذا غرس الإسلام روح التسامح مع المخالفين، فلا يضيق المسلم بمن يخالفه، يعاملهم بالعدل والرحمة والقسطاس المستقيم، ويعلم أن الأرض تسعه وتسعهم.

التعددية الثقافية:

هذه هي التعددية الدينية، والتعددية الدينية تترتب عليها تعددية ثقافية، فما دام الناس يتعددون دينيًا فلا بد أن يتعددوا ثقافيًا، هناك من الناحية الثقافية ما يتصل بالحياة ومفاهيمها، وتقاليدها، وعادات الناس فيها، الناس تختلف في هذه الأمور كلها يختلفون في ملابسهم، ومآكلهم، ومشاربهم، ومساكنهم، لكل جماعة طريقة اتخذتها، ناس تأكل أشياء، وناس ترى هذه الأشياء سيئة جدًا لا تؤكل، ناس تبني بيوتها بطريقة، وناس تبني بطريقة أخرى، ناس تتكلم بلغة وتكتبها بطريقة، والآخرون يكتبون بطريقة أخرى، هناك من يكتب اللغة

---

(166) رواه ابن حبان في «الصحيح»، والبيهقي في «الكبرى» عن ابن عمر، وذكره ابن كثير في «التفسير».

بطريقة الخطوط، والحروف عبارة عن خطوط، وناس تكتبها في خطوط ونقط فوقها وتحتها كما هي العربية. وناس تكتب اللغة بالصور يعني حروفها عبارة عن صور مثل: اليابانية والصينية والكورية. وناس تكتب من اليمين إلى الشمال. وناس تكتب من الشمال إلى اليمين. وناس تكتب من فوق إلى أسف كتابة رأسية. الناس يختلفون في هذه الأمور.

والإسلام قدر هذا الاختلاف في ثقافة الناس، ووسع هؤلاء جميعًا، وكان في الحضارة الإسلامية، وفي الديار الإسلامية أناس من كل هذه الأنواع، لم يفرض على الناس لونًا معينًا من المآكل أو المشارب، تريد أن تأكل بطريقة معينة، كل كما شئت، تلبس لباسًا معينًا، البس كما شئت، ما فرض على الناس شيئًا من التقاليد يجب أن يفعلوه مجاراة للمسلمين حتى لا يتميزوا عن المسلمين. الناس لهم الحرية في ثقافاتهم وتقاليدهم وأعرافهم وعاداتهم، لم يتدخل المسلمون في هذا الأمر.

تنوع الثقافات يثري الحضارة:

والحضارة الإسلامية شاركت فيها أنواع عدّة من العناصر والأجناس والأديان المختلفة، وكل له ثقافة، وكل ترك له بصمة في ناحية من النواحي، وهذا من التنوع، فالتنوع فيه إثراء وغنى للحضارات، والحضارة التي تقوم على شكل واحد، ولون واحد، وصورة واحدة، هذه الحضارة فقيرة، الحضارة الغنية الخصبة: هي التي تأخذ من الجميع، وتستفيد من الجميع، وتقتبس من الجميع، هذا هو التنوع.

والتنوع ظاهرة كونية، أشار إلى ذلك قوله تعالى: **{أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ**

ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ 27 وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ...} [فاطر: 27، 28] العلماء هم الذين يعرفون أسرار الله في الكون، يعرفون أسرار اختلاف الألوان، التنوع يعبر عنه القرآن باختلاف الألوان، أي اختلاف الأنواع والأصناف، وبهذا تثرى الحياة، وتزدهر، لا نفرض على الناس لونًا واحدًا، ونحاول أن نبيد الألوان الأخرى، هذه التعددية الثقافية.

التعددية السياسية والحزبية:

وهناك التعددية الحزبية، التي يتحدثون عنها في الفكر السياسي والعلوم السياسية، وهو: أن الدولة لا بد أن تسمح بتعدد الأحزاب والجماعات، وهذا ما يتغنّون به في النظام الديمقراطي، ويقولون النظام الديمقراطي هو الذي يسمح بالتعددية السياسية والتعددية الحزبية، وهذا ما جاء به الإسلام من قديم، وترك للناس أن يعبروا عن آرائهم، وأن يخالفوا الحاكم، سواء كان المخالفون أفرادًا أم جماعات.

معارضة الأفراد للحاكم:

يقول سيدنا أبو بكر الصديق - خليفة المسلمين الأول - : «إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم».

وعمر بن الخطاب يقول: من رأى منكم فيّ اعوجاجًا فليقومني. فقام بعض الناس وقال: لو رأينا فيك اعوجاجًا يا ابن الخطاب لقومناه بحد سيوفنا. لم يقل

عمر: اقبضوا على هذا الرجل الإرهابي، ضعوه في السجون! أو ابحثوا عن مصدر السيوف التي يريد أن يقاومني بها! لم يقل هذا، بل قال: الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بحد سيفه!

معارضة الأحزاب للحاكم:

وعلي بن أبي طالب كان يعارضه حزب، ولم يكن مجرد أفراد يعارضونه، بل هو في الواقع: حزب له مبادئه وأفكاره ومنطلقاته، كان يُسمى «حزب الخوارج»، وهو حزب قوي ومسلح، وقامت بينه وبينهم معارك انتصر فيها عليهم، هذا الحزب له مبادئه في تكفير مرتكب الكبيرة، وفي معارضة الحكام وغير ذلك.

وحينما أراد علي ررر أن يحاربهم، عندما قاوموه مقاومة مسلحة، أرسل إليهم قبل ذلك عبد الله بن عباس، ليناقشهم ويجادلهم ويحاجهم، بالمنطق القرآني، والمنطق الإسلامي، وقد حاجهم فحجهم وغلبهم، ورجع منهم عدة آلاف، وبقى الآخرون مصرين على رأيهم، هؤلاء قالوا لعلي ابن طالب: إن الحكم إلا لله، يريدون: أنه خرج عن المبادئ الشرعية حينما حكّم الرجال في دين الله، فرد عليهم قائلًا: كلمة حق يراد بها باطل. صحيح أن الحكم لله، أي التشريع الأعلى لله، ولكن ليس معنى هذا ألا يختار الناس في شؤونهم من يحكمونهم في التنزاعات، الله حكّم في نزاعات أقل من هذا شأنًا، فقد حكّم في الأسرة فقال: **{وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ...}** [النساء: 35] وفي شؤون الصيد في حالة الحج والإحرام: **{ ... يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ...}** [المائدة: 95].

ثم قال لهم علي بن أبي طالب: لكم علينا ثلاث:

1 - ألا نمنعكم مساجد الله أن تصلوا فيها معنا.

2 - وأن نعطيكم حقكم في الفيء والغنيمة، إذا كانت سيوفكم مع سيوفنا.

3 - وألا نبدأكم بقتال، أي ما دمتم مغمدين سيوفكم في جراباتها وأغمادها لا نبدؤكم بقتال(167).

أرأيتم توسعة أكثر من هذه؟ حزب معارض وأفراده مسلحون، لأن الناس في ذلك الزمن كانت بطبيعة الحال كل معه سلاحه، ولكن قال لهم: لن نبدأكم بقتال، ما دمتم لا تشهرون سيفًا على إخوانكم.

تسامحنا وتسامحهم!

هذه هي التعددية السياسية، الإسلام يقر التعددية بكل ألوانها وصورها، ويعلّم المسلمين: أن الحياة تتسع للمخالف، ولا بد أن يُربّي الناس على هذه الحقيقة، أن يسع بعضهم بعضًا، ويقبل بعضهم بعضًا، وتتسع صدورهم لمخالفيهم في العقيدة، أو في الفكر، أو في اللون، أو في اللسان، أو في العرق، أو في الثقافة. يجب أن يُربّي الناس على هذه الحقيقة.

ولذلك نستغرب أن أوروبا التي تقول: إنها أم الديمقراطية وأم الحرية تحاول أن تضغط على بعض مواطنيها حتى يفقدوا شخصيتهم الدينية،

---

(167) رواه البيهقي في «الكبرى» باب القوم يظهرون رأي الخوارج لم يحل به قتالهم (184/8)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (562/7)، وابن عبد البر في «التمهيد» (238/23)، وأصل الحديث في مسلم في الزكاة (1066) عن عبد الله بن أبي رافع، وليس فيه هذه الأمور الثلاثة.

وحريتهم الدينية، وتفرض عليهم الأغلبية بقرار منها، ومعنى ذلك: أن تصبح الأكثرية ديكتاتورية مسلّطة تفرض رأيها على الأقلية، وتذيبها بالقوة، ولا تبقى لها أي شخصية دينية أو ثقافية.

لقد كان الإسلام أعرق منهم في إقامة التعددية بكل ألوانها وبكل صنوفها. ولهذا عاش الناس في بلاد المسلمين يعرف بعضهم حقوق بعض، ويتسع بعضهم لبعض، ويتفاهم بعضهم مع بعض، ويتعاون بعضهم مع بعض، بقيت المساجد والكنائس، في كثير من الأحيان متجاورة، يسمح الناس أذان المؤذن، ويسمعون دقّات النواقيس في بلاد الإسلام، لم يضق صدر المسلمين بهذا، بل بقوا متفاهمين متعاونين، وهذا هو الدين السمح، الدين صاحب الأفق الواسع الرحب، دين الإسلام.

ونسأل الله عع أن يوفقنا لفهم هذا الدين، وحسن الالتزام به، وحسن الدعوة إليه، إنه سميع قريب مجيب.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

شائعة احتساب يوم الجمعة في قطر يوم عمل:

يعلم الإسلام المسلم أن يكون صادقًا في قوله وفعله ونيته، وألا يشيع إلا الصدق، ولا يكون إلا مع الصادقين، كما قال الله تعالى: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ}** [التوبة: 119].

وحذر من الكذب واعتبره من خصال النفاق، بل من خصال الكفار **{إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ}** [النحل: 105]، وعلى

المسلم ألا يقول الكذب أبدًا، ينبغي أن يمتنع عن الكذب إلا لضرورات معروفة في الحرب، أو في الإصلاح بين الناس، أو في إرضاء الزوجة، وحذره أيضًا من أن يقول الكذب، لا يقول الكذب، ولا ينقل الكذب.

وكثير من الناس لا يتحرى في نقل الكلام، يسمع كلمة من هنا ومن هناك فيطير بها في الآفاق، وقد يكون في هذا الكلام ما يضر بفرد معين، أو يضر بأسرة معينة، أو يضر بفئة في المجتمع، أو يضر بالمجتمع كله، ولذلك حذر الإسلام من هذا، فالله تتت يقول: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ}** [الحجرات: 6]، كثيرًا ما يتساهل بعض الناس الطيبين في نقل الكلام الكذب، وهم لا يعلمون أنه كذب ولكنهم لم يتحروا، المسلم عليه أن يتحرى الصدق، الكلام الذي لا يتأكد من أنه صدق لا يشيعه، أضرب لكم بعض الأمثلة.

كثيرًا ما أغيب عن هذا المنبر لظروف معينة، بعضها صحي، وبعضها للأسفار، فيشيع الناس: الشيخ القرضاوي مُنع من الخطابة، ويسألني بعض الناس: هل منعت؟ فأقول: يا أخي ما منعت، فقد صار لي أكثر من أربعين سنة ما منعني أحد.

كذلك أسافر بعض الأسابيع فأغيب يوم الأحد عن برنامج «الشريعة والحياة» فيقولون: منع الشيخ، حتى اتصل بي بعض الإخوة يقولون: هل منعت من «الشريعة والحياة»؟ وأحدهم يقول: هل ألغي برنامج «الشريعة والحياة»؟ من قال هذا؟ البرنامج موجود، حتى عندما أغيب يقدم فيه بعض الناس.

الآن اتصل بي بعض الناس ويسألون: هل قطر قررت أن تلغي يوم الجمعة، وتجعله يوم عمل، وتجعل الأجازة يوم السبت ويوم الأحد؟

فقلت: يا أخي هذا لا أصل له، وقد سألت أكثر من شخص من المسؤولين، وليس لهذا أساس من الحقيقة، قطر بلد عربي، وبلد مسلم، يوم كانت قطر تحت الانتداب الإنجليزي، وكان هنا مستشار بريطاني مسموع الكلمة، بقيت قطر وأجازتها يوم الجمعة، لماذا يشيع الناس هذه الإشاعة عن هذا البلد العربي المسلم ويثيرون البلبلة في النفوس؟

لا ينبغي للمسلم أن يكون أسير هذه الإشاعات، قطر بلد عربي مسلم أجازته يوم الجمعة، كانت الخميس والجمعة ... ليس هناك مانع أن تصبح الجمعة والسبت، إنما يوم الجمعة هذا يوم أساسي في البلد، وينبغي أن يعرف الناس هذه الحقيقة، قطر رأست المؤتمر الإسلامي سنوات، وكان لها موقف جيد في شتى القضايا الإسلامية،ومساعدة البلاد الإسلامية المختلفة، ومساعدة الجمعيات الإسلامية.

فلا ينبغي أن نصدق مثل هذه الإشاعات ونتحرى فيما نقوله وفيما نسمعه، الكاذب آثم، ومشيع الكذب مشاركه في الإثم، بل ربما كان أكبر إثمًا منه لأن الذي يقول الكلمة يقولها في نطاق محدود، والذي يشيعها ينشرها في الآفاق، **{ ... إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ...}** [الحجرات: 6] التبين والتثبيت هو صفة الإنسان المسلم الذي لا يدور مع كل دائر، ولا يطير مع كل طائر، بل شأنه التثبيت، ومراعاة الصدق، واتباع قول الله تعالى: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ}** [التوبة: 119].

* * *

(18)
الثقافة الإنسانية المنشودة(168)

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

الثقافات المغلوطة وأثرها:

ما تعانيه البشرية اليوم من حروب وكروب، ومن آفات وويلات، ومن صراعات لا تنتهي، سببها: الثقافات المغلوطة التي تلقن للناس، وتجعل البشر بعضهم أعداء لبعض، ويكيد بعضهم لبعض، ويمكر بعضهم ببعض، ويستعلى بعضهم على بعض، ولو أن البشر لقنوا ثقافة سليمة قويمة لهدتهم من ضلالة، وعلمتهم من جهالة، ولعلمتهم ثقافة الحوار بدل ثقافة الصراع، وثقافة المحبة بدل ثقافة الكراهية، وثقافة السلم بدل ثقافة الحرب، وثقافة التسامح بدل ثقافة التعصب، وثقافة التعايش بدل ثقافة التهاوش، وثقافة التنوع بدل ثقافة الإنفراد، وثقافة المساواة بدل ثقافة الاستكبار، وثقافة الانقياد للحق بدل ثقافة المباهاة بالقوة.

مصدر الثقافة الحقيقية:

لو أن البشر لقنوا هذه الثقافة السليمة النيرة، ما رأينا ما نراه في العالم اليوم، ولكن البشر تقودهم ثقافات شيطانية أفسدت عليهم مفاهيمهم، وأفسدت

---

(168) ألقيت في جامع عمر بن الخطاب بالدوحة في 17 ذو القعدة 1424هـ الموافق 9 يناير 2004م.

عليهم سلوكهم، وأفسدت عليهم ضمائرهم، وأفسدت عليهم علاقاتهم، وأفسدت عليهم حياتهم كلها.

الثقافة الحقيقية هي التي تنطلق من منهج قويم، مؤسس على معرفة صحيحة بالإنسان وبالحياة وبالعالم والوجود، ولا يتم هذا إلا بوحي من الله الذي لا يضل ولا ينسى، وهو ما جاء به هذا الدين الخاتم الذي بعث الله به خاتم رسله، وأنزل به آخر كتبه القرآن الكريم، وهدى الناس فيه للتي هي أقوم، وأرشدهم إلى الصراط المستقيم، الذي يسأله الناس ربهم كل يوم سبع عشرة مرة على الأقل **{ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ}** [الفاتحة: 6] الذي لا عوج فيه ولا انحراف، ولكنه يوصل إلى الغاية من أقرب طريق، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، هذا الصراط هو الذي يقوم العوج، ويصلح الفساد، ويحيي الضمائر، وينور العقول، ويهدي الناس إلى طريق الحق لا طريق الباطل.

ثقافة الحوار لا الصراع:

يغرس في الناس ثقافة الحوار، وما يسميه القرآن «الجدال بالتي هي أحسن»، وهو جزء من المنهج الأساسي للدعوة الإسلامية، **{ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ...}** [النحل: 125]، فالمسلمون مأمورون بالحوار، وليس شيئًا اختياريًا أو تطوعيًا لهم، إن شاءوا فعلوه، وإن شاءوا تركوه، لا، بل هو أمر من الله للمسلم بأن يدعو الموافقين بالحكمة والموعظة الحسنة، ويدعو المخالفين بالجدال بالتي هي أحسن، خصوصًا أهل الكتاب، فالله تتت يقول: **{وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ}** [العنكبوت: 46]، حصر الجدال في هذه الطريقة، بمعنى: أنه لو كانت

طريقة حسنة وطريقة أحسن منها، فالمسلم مطالب أن يجادل بالتي هي أحسن، الطريقة التي هي أمثل وأجود في كسب القلوب، وفي كسب الخصوم، وفي تقريب المتباعدين **{وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ}** [العنكبوت: 46]، أي: اذكروا القواسم المشتركة، اذكروا النقاط التي تجمع بينكم وبين خصومكم، لا نقاط التمايز والاختلاف.

هكذا يأمر القرآن أتباعه بهذا الحوار بالحسنى **{بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ}** لا بالتي هي أخشن، وهكذا يلقن الإسلام أتباعه ثقافة الحوار، لا ثقافة الصراع، ولا ثقافة الإملاء أو الإكراه، فهو لا يقبل الإكراه، ولا يعترف بنتائجه لو حدث، كما قال تعالى في القرآن المكي **{... أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ}** [يونس: 99]، وقال في القرآن المدني: **{لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ...}** [البقرة: 256].

والقرآن كتاب مليء بالحوار: بين الرسل وأقوامهم، كما ترى في حوار نوح لقومه، وحوار إبراهيم لقومه، وحواره لأبيه، وحوار موسى لفرعون، وكذلك غيرهم من الرسل.

بل نجد في القرآن حوار الله تعالى لخلقه، كما في حواره للملائكة حين أراد أن يخلق آدم ويستخلفه في الأرض. بل نجد في القرآن حوار الله جل شأنه مع شر خلقه إبليس، كما في سورة الأعراف والحجر والإسراء وص.

وبهذا كله تتركز في العقول والضمائر ثقافة الحوار.

ثقافة السلام لا الحرب:

وكذلك يلقن الإسلام أتباعه ثقافة السلام لا ثقافة الحرب، إنه لا يخوض الحرب إلا مكرهًا، **{كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُم ...}** [البقرة: 216]، ولكن إذا استطاع أن يتجنب الحرب فبها ونعمت، ولذلك علق الله تعالى في كتابه على غزوة الأحزاب التي حوصر فيها المسلمون، وأريد فيها تصفيتهم وإبادتهم عن بكرة أبيهم، وجاءوهم من فوقهم، ومن أسفل منهم، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وظن الناس بالله الظنون، القرآن الكريم يعلق على هذه الغزوة، بعد أن أنزل الله جنودًا لم يرها الناس، وأرسل على المشركين ريحًا خلعت خيامهم، وأكفأت قدورهم، وفعلت بهم ما فعلت، ورجعوا مهزومين، يقول القرآن الكريم معلقًا على هذه الأحداث: **{وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ...}** [الأحزاب: 25].

الإسلام إذن لا يتشوف للقتال، ولا يتعطش للدماء، بل إذا انتهت معركة بغير دماء فأهلًا ومرحبًا، كفى الله المؤمنين القتال. ففي صلح الحديبية أنزل الله سورة الفتح **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا}** [الفتح: 1] وقال أحد الصحابة: أفتح هو يا رسول الله! قال: «**نعم هو فتح**»(169)، لم يتصور فتحًا بغير حرب، ولكن الرسول قال له هذا، والقرآن أنزل هذه السورة كلها في هذه القضية **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا}** [الفتح: 1]، **{وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم}** [الفتح: 24] حتى امتن بكف أيدي المؤمنين عن المشركين.

الإسلام يلقن أتباعه ثقافة السلام لا ثقافة الحرب، ولكن إذا اضطر

---

(169) رواه أحمد (15470)، وأبو داود في الجهاد (2736) عن مجمع بن جارية الأنصاري

المؤمنون إلى أن يحاربوا دفاعًا عن أنفسهم فليكونوا رجالًا، وليبذلوا أرواحهم، وليضعوا رؤوسهم على أكفهم، ولذلك جاء في «الصحيحين» عن عبد الله بن أبي أوفى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، ولكن إذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**»(170) لا نتمنى لقاء العدو، ومقارعة السيوف، بل نتمنى السلام والسلامة دائمًا، ولكن إذا أجبرنا الأعداء على أن نخوض المعركة: خضناها رجالًا أبطالًا، لا نبخل بنفس ولا بنفيس، ولا نضن بغال ولا رخيص في سبيل ديننا وعقيدتنا.

الإسلام يغرس في نفس المسلم ثقافة السلام، حتى أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يكره كلمة «حرب» ويقول: «**أقبح الأسماء حرب ومرة**»(171) لا يحب للمسلمين أن يتسموا باسم «حرب» كما كان أهل الجاهلية يفعلون.

ثقافة الحب لا الكراهة:

والإسلام يغرس في نفس المسلم ثقافة المحبة لا ثقافة الكراهية، يغرس الإسلام في نفس المسلم أن يحب الله عز وجل، فهو مصدر الجمال، ومصدر الجلال، ومصدر الكمال، ومصدر الإحساس **{وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ...}** [النحل: 53]، كل ما ننعم به من خيرات وبركات إنما هي من الله، والإنسان يحب من أحسن إليه، الإنسان أسير الإحسان:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم   فطالما استعبد الإنسان إحسانُ

---

(170) رواه البخاري في الجهاد (2966)، ومسلم في الجهاد (1742)، وأبو داود في الجهاد (2613) عن عبد الله ابن أبي أوفى.

(171) رواه أحمد (18553)، وأبو داود في الأدب (4950) عن أبي وهب الجُشمي.

فكيف بمن يغدق عليك النعم من رأسك إلى قدميك، من يوم ولدت وإلى أن تموت، ومن قبل أن تولد، حتى وأنت جنين في بطن أمك نعم الله تعالى عليك تتوالى، أحبوا الله، { **... وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ...**} [البقرة:165]، { **...فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ...**} [المائدة: 54].

المؤمن يحب ربه عز وجل، ويحب رسوله الذي أتى إليه بهداية الله عز وجل، «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»(172)، حب الله، وحب رسوله، وحب المؤمنين {**وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ**} [المائدة: 56]، يحب كل من أحب الله، كل من سار في طريق الله، كل من سعى في عمل الخير، يحبه المسلم لأنه موصول بالله، ما دام يحب الله فيحب كل من اتصل حبله بالله.

والإنسان لا يتصل حبله بالله إلا بعمل الصالحات، واستباق الخيرات، واجتناب السيئات، فبحب الله، وحب أحباب الله من المؤمنين: يشيع الخير، ويشيع الحق، وينصر الحق، ويتعاون الناس على البر والتقوى، يحب المسلم الله ويحب المؤمنين.

حتى غير المسلمين ممن لا يعادون المسلمين ولا يحاربونهم: يحبهم المسلم ويتمنى لهم الخير، ويبرهم ويقسط إليهم {**لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي**

---

(172) رواه البخاري في الإيمان (16)، ومسلم في الإيمان (43)، والنسائي (4987)، وابن ماجه (4033) عن أنس بن مالك.

ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ} [الممتحنة: 8]، كل من فعل خيرًا أحبه المسلمون ولو كان غير مسلم، كل من أسدى معروفًا، كل من قدم خدمة للإنسانية يضمر له المسلم الخير، حتى الكافر يشفق المسلم عليه، ويتمنى له الهداية، ويسأل الله أن يختم له بخير، لا يعادي إلا من عادى لله ورسوله، **{لَّا تَجِدُ قَوۡمًا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ}** [المجادلة: 22] المسلم ينظر إلى أبناء البشر جميعًا - على اختلاف أجناسهم وألوانهم - على أنهم أسرة واحدة، وأنهم إخوانه في الإنسانية، وصلتهم رحم البنوة لآدم. وفي هذا يقرأ المسلم هذا النداء الرباني الشامل في أول سورة النساء **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ}** [النساء: 1] وما أجدر كلمة «الأرحام» المذكورة في هذه الآية: أن تشمل - فيما تشمل - الأرحام الإنسانية العامة بدلالة السياق، واقتضاء المقام، فالله تتنت يقول: { **... ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ...**} ومن هذه النفس الواحدة تفرعت الذرية كلها هناك رحم مشتركة بين بني الإنسان جميعًا، وكما قال الشاعر المسلم:

إذا كان أصلي من تراب فكلها بلادي وكل العالمين

هذا هو الأفق الواسع الذي ينظر منه المسلم، الإسلام يغرس في نفس المسلم حب الله، وحب رسوله، وحب المؤمنين، وحب الإنسانية، وحب

الحياة، وحب الموت، يحب كل ما حوله، حتى إن الرسول عليه الصلاة والسلام حينما قدم من تبوك، وبدت له المدينة من بعيد قال: «**هذه طابة ـ وطابة أو طيبة هي المدينة ـ وهذا أحد، جبل يحبنا ونحبه**»(173)، انظر إلى هذا الوجدان الحي، إلى هذا القلب الكبير، الذي يقول عن جبل من جبال الطبيعة، وقعت تحت واقعة انكسر فيها المسلمون، وفقدوا فيها من فقدوا، فقدوا سبعين من أبطالهم، منهم: عم رسول الله، وأسد رسوله: حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وفلان وفلان من الصحابة الكرام، كان يمكن أن يتطير أو يتشاءم من هذا الجبل، ولكنه قال: «**هذا أحد، جبل يحبنا ونحبه**» يا عجبا، كأن للجبل قلبا، وكأن له مشاعر وأحاسيس، فهو يُحب ويُحَبُّ، هذا جبل يحبنا ونحبه. وهذه هي الثقافة التي يغرسها الإسلام.

ثقافة التنوع لا الانفراد:

كما يغرس الإسلام في نفس المسلم: ثقافة التنوع، لا الثقافة الأحادية التي ترفض كل ما سواها، ولا تسمح له بالعيش معها. وقد حدثتكم منذ جمعتين عن التعددية، الإسلام يقر التعددية، يقر ظاهرة التعدد والتنوع واختلاف الألوان، ولا يفرض لونًا واحدًا على الناس، فالناس تختلف أديانهم، وتختلف أعراقهم، وتختلف ألوانهم، وتختلف ألسنتهم، وتختلف بلادهم وأوطانهم، وتختلف ثقافاتهم، هذا التنوع حقيقة من حقائق الكون، فعلى الإنسان المسلم أن يقر بهذه الحقيقة الكونية، والحقيقة البشرية، ولا يحاول أن يفرض لونًا واحدًا على الناس، ويلغي ما عداه من الألوان والأنواع، كما تريد أن تفعل بعض

---

(173) رواه البخاري (2889) و (3367) وفي مواضع أخرى، ومسلم (1365) عن أنس بن مالك.

القوى العظمى الآن، تريد أن تفرض نوعًا من الثقافة، ونوعًا من التقاليد، وتجبر الآخرين على أن يلغوا ثقافاتهم، ويلغوا تقاليدهم، ويخرجوا عن دينهم، ليخضعوا لمنظومتهم القيمية والفكرية! هذه ليست ثقافة سوية، ولا ثقافة مرضية.

الإسلام يغرس التنوع، لا يجوز أن تنفرد ثقافة واحدة، ولا ينفرد دين واحد، ولا ينفرد لسان واحد، أو لغة واحدة لتفرض على الناس ويلغي ما عداها. فالإسلام لا يقبل هذا، الإسلام يغرس ظاهرة التنوع وقبول هذا التنوع في البشر، لأن الله هو الذي أراد هذا **{وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ 118 إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ ...}** [هود: 118، 119].

ثقافة التسامح لا التعصب:

ويغرس الإسلام كذلك في أنفس أتباعه: ثقافة التسامح لا التعصب.

فهو رغم أنه يلقن أتباعه أنه دين الحق، وهو الدين المقبول عند الله **{إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ...}** [آل عمران: 19] **{وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ}** [آل عمران: 85]. رغم هذا، يلقن المسلم مفاهيم أساسية يعتقدها ويؤمن بها، لا تثمر إلا التسامح، نذكر منها.

1 - اعتقاد المسلم أن اختلاف البشر لا بد منه، وأنه واقع بمشيئة الله تعالى، كما قال عز وجل: **{وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ}** [يونس: 99].

2 - اعتقاد المسلم أن الذي يحاسب الناس على ضلالهم إذا ضلوا، أو كفرهم إذا كفروا هو الله تعالى، وأن موعد ذلك هو الدار الآخرة لا هذه الدنيا،

كما سبحانه: {إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [الحج: 17].

ولهذا أمر المسلم أن يقول لمخالفيه في العقيدة: { ... ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ} [الشورى: 15].

ولهذا رأينا المسلمين في تاريخهم أكثر الأمم تسامحًا مع مخالفيهم، ولا سيما في أيام قوتهم، وعظمة دولتهم. فقد ضربوا أمثلة رائعة في التسامح سجلها التاريخ(174).

ثقافة المساواة لا الاستعلاء:

ويغرس الإسلام المساواة بين الناس، لا ثقافة الاستعلاء والغطرسة وازدراء الآخرين: أن ينظر الإنسان غلى نفسه نظرة استعلاء واستكبار، وينظر إلى الآخرين نظرة ازدراء واحتقار، لم هذا؟ أخلقت - أيها الإنسان المستكبر - من ذهب، وخلقت أنا من تراب؟ لماذا هذا التكبر؟ أيجري على الموت ولا يجري عليك؟ أتسري علي الأمراض ولا تسري عليك؟ أتحكمني السنن الكونية ولا تحكمك؟ نحن في البشرية سواء، نخضع جميعًا لسنن الله في الصحة والمرض، والحياة والموت، ويتعاقب علينا الليل والنهار،

---

(174) انظر في ذلك: كتاب «التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام» للشيخ محمد الغزالي طبعة دار التوزيع والنشر الإسلامية، وكتاب «تاريخنا المفترى عليه» للشيخ يوسف القرضاوي فصل: «التسامح الديني» من باب «تاريخ له مآثر» طبعة دار الشروق بالقاهرة.

والصيف، والشتاء، لماذا يستكبر بعض الناس على بعض؟ هذا ما ينكره الإسلام.

الإسلام يغرس المساواة، فالناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، **{... إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ}** [الحجرات: 13]، فالأكرمية هنا عند الله، فلا يجوز أن تقول: أنا أكرم منك، لأني أتقى، لا، كرامتك عند الله، والتقى لا يقول: أنا تقي، لأن التقي دائمًا يخاف على نفسه، يعمل الحسنات ويقول: أخشى أن لا تقبل مني، بينما المنافق يعمل السيئات ويقول: أطمع أن يغفر لي.

فالمساواة فريضة فرضها الإسلام، سوى بين الناس، ففي العبادات: نجد الكل يقف أمام الله عز وجل في صفوف، لا تمييز فيها بين غني ولا فقير، ولا بين كبير وصغير، ولا بين مأمور وأمير، الكل يقف في صف الصلاة بجوار أخيه، لا تميز لأحد على أحد. في الحج يلبس الجميع هذه الثياب البيضاء، التي هي أشبه بأكفان الموتى.

هذا ما يغرسه الإسلام في عباداته، الناس سواسية، في معاملاته الناس سواسية، في عقوباته كذلك، يقو النبي صلى الله عليه وسلم: «**إنما هلك من كان قبلكم: أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»(175) أعاذها الله من ذلك، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.

---

(175) سبق تخريجه في (ص 28).

وقبل أن يموت قال: «**أيها الناس: من كنت أخذت له مالًا فليأتني ليأخذ ماله، ومن كنت جلدت ظهره فهذا ظهري فليستقد مني ـ يقتص مني ـ ولا يخشى الشحناء، فإنها ليست من شأني**»(176).

وهكذا أقر أصحابه هذه المساواة بين الناس بعضهم وبعض، ليس في الإسلام تفاضل، التفاضل عند الله عز وجل، ولكن الحقوق مقرة للجميع، أتى رجل من مصر إلى عمر بن الخطاب ليشكو الوالي وابن الوالي الذي ضربه، فيقتص له منه، ويقول للولد المضروب: إن شئت فأدرها على صلعة عمرو، فإنما ضربك بسلطان أبيه! فيقول: يا أمير المؤمنين إنما ضربت من ضربني، ثم يلتفت إلى عمرو ويقول: يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟

هذه الكلمة التي قالها ابن الخطاب على البديهة، أصبحت تفتتح بها مواثيق حقوق الإنسان، أول مادة في ميثاق حقوق الإنسان: «يولد الناس أحرارًا متساويين» أخذوها من فم ابن الخطاب على البديهة بدون تحضير، هذا هو الإسلام.

والعجيب: أن هذا الرجل لم يسلم، يعني أخذ حقه وبقى على دينه، لم يجبره أحد على ترك دينه، والأعجب أيضًا: ان مثل هذا الرجل في مصر كان يضرب ويهان، ويؤخذ ماله، وتصادر أملاكه، ويفعل به ما يفعل، ولا يحرك ساكنًا، ولا يرفع رأسه أيام الرومان، حينما كان الرومان يحكمون مصر ـ

---

(176) رواه الطبراني في «الأوسط» و «الكبير»، وأبو يعلى بنحوه، قال الهيثمي: في إسناد أبو يعلى عطاء بن مسلم وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه جماعة، وبقية رجال أبي يعلى ثقات. وفي إسناد الطبراني من لم أعرفهم (26/9).

وهم مسيحيون مثل أهل مصر، ولكنهم مختلفون في المذهب - كان هذا الرجل وأمثاله تنزل بهم المظالم الكبيرة والغليظة، ولا يفكر أحد أن يشتكي، لمن يشتكي؟ إن الذي يشتكيه هو الذي يظلمه ويقر الظلم، ولكنه هنا اشتكى إلى ابن الخطاب وكلف نفسه رحلة من الفسطاط، من مصر القديمة إلى المدينة المنورة، شهرًا ذهابًا، وشهرًا إيابًا.

الإسلام يقر ثقافة المساواة، ولا يقر ثقافة التمييز بين الناس، ولا ثقافة الاستكبار والاستعلاء بغير الحق، كما نرى بعض القوى في عصرنا تستكبر في الأرض بغير الحق، وتقول: من أشد منا قوة؟ كما قالت عاد قوم هود من قبل: **{مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ...}** [فصلت: 15].

ثقافة التعايش لا التهاوش:

وكذلك يغرس الإسلام في الأنفس «ثقافة التعايش» هذه الثقافة التي تنشئ علاقات تواصل وتقارب وتفاهم بين الناس، تخلق جو للتفاهم والتعايش، بدلًا من التصادم والتهاوش. يمكن أن نختلف ولكن يمكن أن يعيش بعضنا مع بعض، الحياة تتسع لنا، الكون الكبير الذي خلقه الله على هذه السعة يتسع للإنسان ومخالفه، لا مانع أن تكون كافرًا، وأن أكون مسلمًا، والحياة تسعنا، هكذا قال القرآن: **{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ 1 لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ 2 وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ 3 وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ 4 وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ 5 لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}** [سورة الكافرون].

قمة الاعتزاز بالعقيدة والتمسك بها، **{لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ 2 وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا**

أَعۡبُدُ} هذه مساومة لا تقبل، هذه مفارضة مرفوضة، وهذه قضية محسومة، التوحيد هو روح وجودنا ولا نحيد عنه، ولا نقبل التنازل عنه، **{لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ 2 وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ}** ولكن: **{لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ}** نعم لك دينك، ولي ديني، ولكن المشكلة حينما يقف الآخرون يقولون لك: لنا عملنا وليس لك عملك **{وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ}** [يونس: 41]، ولكن هؤلاء يقولون: لا، لنا عملنا، وليس لك عملك، ليس لك حرية في دينك، وليس لك حرية في دعوتك، وليس لك أن تتصرف، الطرق مسدودة عليك، والأبواب مغلقة دونك، وهذا ما يرفض.

شرط ثقافة التعايش مع الآخرين:

الإسلام يقبل التعايش مع الآخرين، بشرط: أن يتركوا له حرية دعوته، أن يترك له مساحة ليقول للناس ما يريد أن يقول، أما أن يصادر، وأما أن يلجم دعاته، ويمنعوا من أن يبلغوا دعوته إلى الناس، ويضطهد ويؤذي من دخل فيه، فبهذا تكون الفتنة، **{ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ...}** [الأنفال: 39]، إذا فتن الناس في دينهم، إذا منعوا من أن يظهروا شعائرهم، أو أن يعتنقوا الدعوة التي يؤمنون بها، وقاوم الناس حقهم بالسيف وبالقوة، فهنا لا بد للإسلام أن يدافع عن نفسه، وهذا أمر مشروع، ليس معنى السلام: أن نطأطئ الرؤوس، وأن نحني الظهور، وأن نقبل الضيم، هذا أمر مرفوض.

بهذه الأنواع من الثقافات يغرس الإسلام في أنفس المسلمين أن يتعايشوا مع الآخرين، أن يفتحوا صفات للحوار والتفاهم، والتعاون معهم على البر والتقوى، أما أن يريد الآخرون أن يحجروا على المسلمين، وأن يتمتعوا هم بالتصرف في كل شيء، وأن يعتبروا الكون كله ملكًا لهم، وأن يعتبروا الناس

عبيدًا أو كالعبيد لا دين إلا دينهم، ولا ثقافة إلا ثقافتهم، ولا مفاهيم إلا مفاهيمهم، ولا حضارة إلا حضارتهم، فهذا هو العدوان، وهذا هو التجبر، وهذا هو الاستكبار في الأرض الذي نرفضه.

بيدنا خير دواء:

نحن نفتح صدورنا، ونفتح أذرعنا للتفاهم مع الناس، والحوار مع الناس، والتعايش مع الناس، كل الناس، نفتح أذرعنا وصدورنا لنتحاور ونتفاهم، ونتعاون معهم فيما فيه الخير للجميع، على أن نتعامل معاملة الند للند، أما أن يعاملون من فوق، ينظرون إلينا من عل، وكأننا نحن في السفح، وهم في القمة، فهذا ما لا نقبله بحال من الأحوال.

إننا خير أمة أخرجت للناس، إننا الأمة الوسط التي تحمل للبشرية النور والهداية، تحمل قارورة الدواء، وتحمل مضخة الإطفاء لهذا السعار الذي أصاب البشرية، هذا الحريق الذي كاد يلتهم أخضرها ويابسها، نحن وحدنا الذين نملك رسالة النور والهداية الربانية، وعندنا وحدنا آخر كلمات الله للبشرية أنزلها في كتابه الخالد القرآن { **... كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**} [هود: 1]، {**لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ**} [فصلت: 42].

نداء للبشرية كلها:

هذا ما ننادي به البشرية كلها، نقوله بوضوح وجلاء وصراحة، ننادي الناس كل الناس، في الغرب والشرق: أن يتعاملوا معنا على قدم المساواة، أما أن يعتبروا الإسلام دينًا للإرهاب وللعنف، ويصفوا المسلمين كلهم بهذا،

وكأن الإرهاب والعنف في بلاد المسلمين وحدهم، وقد رأينا الإرهاب والعنف في العالم كله، فلماذا يخصون المسلمين؟ هذا هو الافتراء، وهذا هو العدوان، وهذا هو الجبروت الذي يريد أن يفرض نفسه على الناس، وأن يتأله في الأرض فلا يسأل عما يفعل، ولا يحاسب على ما يقول.

نحن آمنا بالله وحده ربا، لا نقبل الألوهية لغير الله، لا ينبغي غير الله ربا، ولا نتخذ غير الله وليا، ولا نبتغي غير الله حكمًا **{قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ...}** [الأنعام: 164]، **{قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}** [آل عمران: 64].

أقول قولي هذا وأستغفر الله تعالى لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة:

رثاء الأستاذ مأمون الهضيبي:

نقلت إلينا وكالات الأنباء وفاة المرشد العام للإخوان المسلمين الأستاذ «مأمون حسن الهضيبي»، الذي وافته المنية هذه الليلة، ويصلي عليه بعد صلاة الجمعة إن شاء الله هذا اليوم، كان الأستاذ مأمون الهضيبي قد بويع مرشدًا للإخوان منذ رمضان قبل الماضي، وتولى قيادة الدعوة الإسلامية في مصر، ولكن لم يمهله القدر.

هذا الرجل الذي عذب في الله، وأوذي في الله هو وأسرته جميعًا، هو

ووالده وإخوانه كلهم أوذوا في الله سنة (1954م)، وفي سنة (1965م)، لكن هذه الأسرة عرفت بالصبر والجلاد والثبات، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا وما استكانوا، والله يحب الصابرين.

كان والده الأستاذ الهضيبي المرشد الثاني للإخوان - بعد مؤسس الجماعة حسن البنا - قد لاقى ما لاقى في سجنه رغم شيخوخته وكبر سنه ورغم أنه ممن نشأ بعيدًا عن هذا الجو، وعن هذه العقبات والمصائب، كان قاضيًا في محكمة النقض والإبرام، ومن كبار الشخصيات، ولكنه حينما تحمل الدعوة، تحملها صابرًا مصابرًا، وكذلك حملها ابنه ححح، وعاش لهذه الدعوة، ومات عليها، وقدم لها أغلى ما يملك الإنسان، رغم أن حمل هذه الدعوة في هذه الظروف ليس مغنمًا، ولكنه مغرم، ليس استفادة ولكنها تضحية، الذي يحمل هذه الدعوة في هذه الأجواء والعالم كله يقف ضد الإسلام، العالم الغربي والقوى الكبرى تصادر حق هذا الدين في الدعوة، وحتى في بلادنا للأسف يقف الإسلام محرومًا من حقه في التعبير عن نفسه، في كثير من البلاد، وفي بعض البلاد؛ يحارب حتى من عبر عن نفسه، حتى المسلمة التي تعبر عن نفسها بلبس خمار على رأسها تمنع، بهذا احتج علينا الفرنسيون، قالوا: إذا كان عندكم في بلاد المسلمين من يمنع هذا لماذا تنكرون علينا؟!

قيادة الإخوة مغرم لا مغنم:

من حمل لواء الدعوة ومنصب المرشد العام في هذه الظروف فإنه يحمل مغرمًا لا مغنمًا، ويتعرض لبلاء لا يصبر عليه إلا ذو حظ عظيم، إننا نتمنى للإخوة المسلمين أن يوفقوا في مسيرتهم القادمة، أن يختاروا قيادة من جيل الوسط، الجيل الذي يحمل حماسة الشباب وحكمة الشيوخ، القيادات التاريخية

الكبيرة أعتقد أنها انتهت بوفاة الأستاذ مأمون الهضيبي، وأملنا في الشباب الذي قرب من الكهولة أيضًا، هؤلاء الذين عليهم أن يحملوا الراية، ويحملوا اللواء، ويتقدموا بالسفينة بين هذه الأمواج المتلاطمة من هنا وهناك، من شرق وغرب، ومن شمال وجنوب، نسأل الله لهم الهداية، ونسأل الله أن يسدد خطاهم، وينور الطريق لكل العاملين للإسلام.

سنصلي إن شاء الله صلاة الغائب على روح الأستاذ الهضيبي بعد أن نفرغ من صلاة الجمعة.

* * *

(19)
الإصلاح الذي ننشده
أهدافه وشروطه ومجالاته(177)

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

حيثما يممت وجهك في أي بلد من بلاد الإسلام: وجدت الناس يتحدثون عن أمر مهم، يدعون إليه وينادون به، إنه الإصلاح. الصحف تتحدث عن الإصلاح، والإذاعة والتلفاز وأجهزة الإعلام تتحدث عن الإصلاح، العلماء والمعلمون والمربون والمفكرون يتحدثون عن الإصلاح، جمعيات تتكون تحت عنوان الإصلاح، أحزاب تنشأ باسم الإصلاح، حوارات وندوات ومؤتمرات تعقد كلها من أجل الإصلاح، فما هذا الإصلاح؟ ما المراد من الإصلاح الذي ينادي به الجميع؟ حتى الأمريكان - الذين يتحكمون في مصاير العالم - يطالبوننا بالإصلاح، يدعوننا إلى الإصلاح. لا بد إذن أن نعرف ما المراد بالإصلاح الذي ننادي به نحن وينادي به غيرنا؟ قوى الداخل والخارج تطالب بالإصلاح، فهل هناك شيء اسمه الإصلاح؟ وهل هناك حاجة إلى الإصلاح؟ وما هذا الإصلاح؟ وما أهدافه؟ وما شروطه؟ وما مجالاته؟ هذا ما نود أن نتحدث عنه في خطبتنا اليوم.

---

(177) ألقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، في 24 من ذي القعدة 1424هـ الموافق 16 من يناير 2004م.

ما المراد بالإصلاح؟

الإصلاح: أن تحول الشيء الفاسد إلى شيء صالح، أو تحول الإنسان الفاسد إلى إنسان صالح، أو المجتمع الفاسد إلى مجتمع صالح، أو الأمة الفاسدة إلى أمة صالحة، هذا هو الإصلاح، ولهذا نحن نرحب بالإصلاح - بوصفنا مسلمين - نحب الإصلاح ونكره الإفساد، والله عز وجل **{لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ}**. و **{لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ}**، و **{لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ}**، ويعاقب المفسدين وينزل عليهم نقمة، حتى إن بني إسرائيل حينما أفسدوا في الأرض مرتين سلط الله عليهم من يقهرهم ويذللهم ويجوس خلال ديارهم، وكلما عادوا إلى الإفساد عاد الله عليهم بالعقوبة **{ ... وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ...}** [الإسراء: 8].

من ألوان الإفساد: الإفساد السياسي وأعوانه:

الإسلام يكره الفساد والإفساد، والقرآن الكريم لمن يقرأه ويتأمله ذكر أنواعًا من الإفساد، هناك الإفساد السياسي، كذلك الذي قام به فرعون حينما قهر طائفة من رعيته، استذلهم وحرمهم حقوقهم الفطرية، **{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ}** [القصص: 4] هذا إفساد سياسي.

ومثل هذا الإفساد السياسي: ما يقوم به بعض الناس من خداع للجماهير، لخدمة السلطة، كالذي يفعله المستأجرون من الصحفيين والإعلاميين، الأبواق المستأجرة. كالذي كان يقوم به سحرة فرعون قبل أن يؤمنوا، وقد قال لهم موسى: **{ ... مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ}** [يونس: 81].

ومن الإفساد السياسي: ما يقوم به الاستعمار حينما يدخل بلدًا، فيذل العباد، ويفسد البلاد، كما أشار القرآن إلى ذلك على لسان ملكة سبأ: **{قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا** «أي إذا دخلوها فاتحين» **وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ}** [النمل: 34]، هذا إفساد سياسي.

الإفساد الاقتصادي:

وهناك إفساد اقتصادي أشار إليه القرآن، كالذي كان يفعله أهل مدين وأصحاب الأيكة، الذين أرسل إليهم شعيب، وقال لهم: **{أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ 181 وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ 182 وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}** [الشعراء: 181 - 183]، هذا إفساد اقتصادي، أن يتصرف الناس في المال بما لا يتفق مع القيم الأخلاقية والمصلحة الاجتماعية، كما قال قوم قارون لقارون: **{ ... لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ}** [القصص: 76] أي لا تبطر بمالك **{وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ}** [القصص: 77]، لا تبغ الفساد في الأرض بمالك، لا تجعل مالك وسيلة للفساد والإفساد، **{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ}** [القصص: 77].

الإفساد الأخلاقي:

هناك إفساد أخلاقي، كالذي قام به قوم لوط حينما قلبوا الفطرة واتخذوا الذكور محلًا للشهوة، وقال لهم: **{أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ 165 وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ}** [الشعراء: 165، 166]، هؤلاء الناس الذين أتوا هذه الفاحشة، التي ما سبقهم بها من أحد من العالمين، فاستحقوا نقمة الله، قال لهم لوط: **{أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ**

فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ 29 قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ} [العنكبوت: 29، 30]، وأي فساد أشد من هذا الفساد.

ذو الوجهين:

ومن الفساد الأخلاقي: أن يعيش الإنسان بشخصية مزدوجة، له وجهان، وله لسانان، وجه يقابل به جماعة، ووجه آخر يقابل به غيرهم، لسان لهؤلاء، ولسان لهؤلاء، مذبذبين بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ 11 أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ}** [البقرة: 11، 12].

الإفساد الاجتماعي:

هناك فساد أخلاقي، وهناك فساد اجتماعي، إشاعة فساد ذات البين، تقطيع الروابط بين الناس، كالذين قال الله فيهم: **{ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ}** [البقرة: 27]، ويقول: **{فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ 22 أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ}** [محمد: 22، 23].

الإفساد البيئي:

هناك أنواع كثيرة من الإفساد، منها أيضًا: الإفساد البيئي، أن يفسد الإنسان الأرض التي خلقها الله له لينتفع بخيراتها، ويستمتع بطيباتها، فيلوثها بالملوثات المختلفة، ويفسد مكوناتها من الأرض والنبات والهواء والماء

والحيوان والإنسان، والله تعالى يقول: {**وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا ...**} [الأعراف: 56] أي بعد أن أصلحها الله، وهيأها لكم لتمشوا في مناكبها، وتأكلوا من رزقه، هذا كله من الإفساد في الأرض. وكما قال موسى لقومه: { **... كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ**} [البقرة: 60].

الإفساد الأمني:

هناك الإفساد الأمني، إشاعة الجرائم، وإخافة السبيل بالسرقة الصغرى، أو السرقة الكبرى التي يسمونها الحرابة وقطع الطريق، {**إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**} [المائدة: 33]، هذا نوع من الفساد في أمن الناس، وهذا ما كان يقوم به اليهود { **... كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗا ...**} [المائدة: 64].

والذي كان يقوم به يأجوج ومأجوج { **... إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...**} [الكهف: 94] كل هذه الأنواع من الإفسادات ذكرها القرآن الكريم وأنكر على أصحابها {**وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ**} [البقرة: 205].

لهذا ننكر الفساد وندعو إلى الإصلاح:

ولذلك نحن المسلمين نكره الفساد، والإفساد والمفسدين، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، كما قال صالح لقومه: {**فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ 150 وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ 151 ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ**} [الشعراء:

150 - 152]، نحب الصلاح والإصلاح، ونكره الفساد والإفساد، ولهذا فنحن أول من يستجيب لدعوة الإصلاح، يجب أن نصلح من أنفسنا، ولا يجوز أن نبقى على حالة الفساد التي نحن فيها.

الناس يتنادون بالإصلاح في كل مكان، ما سر هذا؟ سر هذا شعورهم بحالة الخلل والتفكك والتمزق الذي تعانيها مجتمعاتنا، وتعانيها أمتنا، لا من المحيط إلى الخليج فحسب، بل من المحيط إلى المحيط، من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي، من جاكرتا إلى الرباط، الأمة كلها تعاني الفساد، ولهذا هي في حاجة إلى الإصلاح، ويجب أن تصلح الأمة من نفسها، بدل أن يسعى غيرها إلى إصلاحها، لأنها إذا أصلحت نفسها تصلح نفسها لنفسها، لذاتها، لأهدافها، لا لأهداف غيرها.

أهداف الإصلاح:

الإصلاح أيها الإخوة: أن نعالج أمراضنا المختلفة، نعالجها من صيدليتنا لا من صيدليات غيرنا، وبتشخيصنا لا بتشخيص أطباء أجانب لنا، وبوصف الدواء من عندنا لا من عند غيرنا، الإصلاح الذي نبتغيه له أهداف، وله شروط، وله مجالات.

من أهداف الإصلاح: أن يكون معبرًا عن ذاتية الأمة:

أول أهدافه: أن يكون معبرًا عن الأمة، عن ذاتية الأمة، أن يجيب عن هذا السؤال الكبير «من تحب؟» أنحن لنا قيمة؟ أم نحن صفر على الشمال؟ أنحن أمة على الهامش أم في الصلب؟ أنحن أمة لها رسالة ولها حضارة ولها تاريخ. أم نحن دخلاء على هذا العالم؟ يجب أن نجيب عن هذا، فإذا قلنا: نحن

الأمة الوسط، نحن الشهداء على الناس، نحن خير أمة أخرجت للناس، نحن الأمة الخاتمة، نحن أمة الخلود: ترتب على هذا أشياء كثيرة، إذا أردنا أن نصلح الأمة نصلحها على هذا الأساس: أن نربي الاعتزاز بهذه المعاني في الأمة، كما قال سيدنا عمر: نحن كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزة بغيره أذلنا الله.

الإصلاح المرفوض:

الأمريكان يريدون لنا أن نصلح أنفسنا، وإذا أصلحنا أنفسنا كما يريد الأمريكان، فلا شك أن الأمريكان يريدون شيئًا يحقق لهم مطامع وأهدافًا، لا يريدون منا أن نكون أمة قوية، أمة لها رسالة، أمة تقف على رأس القافلة، أمة تقوى من ضعف، وتتعلم من جهل، وترقى من هبوط، وتجتمع من فرقة، لا يريدون لنا ذلك، إنهم يريدون أمة مستأنسة، يقال لها فتسمع، وتؤمر فتطيع، أمة منزوعة السلاح، مكسورة الجناح، مكشوفة الساح، لا تستطيع أن تدافع عن نفسها، أمة بلا مخالب ولا أنياب، أمة تسير في ركاب الآخرين، وهل هذا ما نريده نحن لأنفسنا؟! لا، ثم لا.

هناك من العلمانيين - ومن يسير في ركاب الأمريكان وغيرهم - من يريدون الإصلاح، ولكنهم يريدون إصلاح الأمة بأن يفرغوها من عناصر القوة والبطولة فيها، أن يجردوها من أسلحتها، أن تسير الأمة وراء الآخرين شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه، يريدون تجفيف منابع التدين الإيجابي في الأمة، في التعليم، في التربية، في الإعلام، في الثقافة، يريدوننا إنسانًا غريبًا عن أرضه، غريبًا عن قومه، بل غريبًا عن نفسه!! مسلوخًا من جلده، إنسانًا متفرنجًا - أو خواجة - يلبس دشداشة أهل

الخليج، أو جلابية أهل مصر، أو لباس أهل المغرب، ولكن في داخله خواجة أوروبي أو أمريكاني، يريدون امرأة كذلك تمشي وراء المرأة الغربية، في زيها وسلوكها وأفكارها وتقاليدها، هذا ما يريده العلمانيون الذين يغربون الأمة باسم التحديث.

الإصلاح المنشود:

نحن ندعو إلى الاجتهاد والتجديد، ونحارب الجمود والتقليد، ونرى الاجتهاد والتجديد لدين الأمة ودنياها: فريضة وضرورة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع.

نحن لا نقاوم تحديث الأمة، ولكن التحديث في أي شيء؟ التحديث في الآليات والوسائل، أما الأهداف فلا تحدث، الأهداف ثابتة، والمرونة في الوسائل والكيفيات والآليات، ولكن هؤلاء المتغربين والمتأمركين: يريدون أن يغيروا كل شيء في الأمة، أو كما قال إقبال: إنهم يريدون تجديد الكعبة بجلب حجارة لها من أوربا! أو كما قال الرافعي ححح: إنهم يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر!! لا، نحن نريد أن تتجدد الأمة من داخلها، بأن تنهض الأمة برسالتها، بتحقيق أهدافها هي، أن تكون الأمة كما أراد الله لها، أمة وسطا، شهيدة على الناس، لها مقام الأستاذية بين البشرية، يقول قائلها ما قال ربعي بن عامر: إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

نريد تعبئة الأمة بهذه المشاعر، صحيح أننا ضعفاء، لا نملك ترسانات نووية، ولا نملك أسلحة استراتيجية هائلة، كما يملك الآخرون، ولكننا نملك

رسالة سماوية، رسالة روحية، رسالة حضارية، لا يملكها أحد سوانا، وهذا يورثنا العزة التي يجعلنا نباهي بها وننادي ربنا ونقول:

وممـا زادنـي شـرفًا وتيهـا وكـدت بأخمصـى أطـأ الثريـا
دخـولي تحت قولـك يـا عبـادي وأن أرسـلت أحمـد لـي نبيًـا

هذه هـي أمتنـا، وهذا هو الهدف الأول من الإصـلاح: أن نعيد الأمـة إلـى ذاتيتها، أن نغرس فيها هذه المعاني، حتى تشعر بنفسها وتنطلق من ذاتها، لا يحركها غيرها وإنما تحرك نفسها، وإذا عرفت ذلك بنت سياستها، وبنت اقتصادها، وبنت تعليمها، وبنت إعلامها، وبنت حياتها كلها على هذا الأساس.

هذا هو هدف الإصلاح، إنه إصلاح شامل، وإصلاح جذري، ليس إصلاحًا ترقيعيًا، أشبه بالمسكن الذي يأخذ المريض قرصًا ليخفف الألم، والمرض باق كما هو يعمل بين جوانحه، لا، إننا نريد أن نقتلع الأمر من جذوره، الداء من جرثومته، هذا هو الإصلاح الحقيقي.

شروط الإصلاح المنشود:

والإصلاح المنشود له شروط لا بد أن تتوافر حتى يحقق هدفه، ويؤتي أكله.

1 - أن يعتمد الإسلام مرجعية له:

أما شروط الإصلاح: فأول شرط له: أن يراعي هذا الهدف، أن ينطلق من أعماق الأمة لا يملي عليها، هناك أناس يريدون الإصلاح الذي يفرض من الخارج، قالوا: لولا الأمريكان ما استطعنا أن نصلح أنفسنا وأن نغير ما بنا. لا يمكن أن يصلح شعب شعبًا آخر وأن يكون مخلصًا في إصلاحه، إلا إذا اتفق

هدفه وهدفه، ونحن لنا أهداف وهم لهم أهداف، فكيف نتفق؟ لا يمكن أن يملي الإصلاح من الخارج، الإصلاح المملي من الخارج مشبوه، مشكوك فيه، منهم أبدًا، لا يمكن أن ترضى عنه أنفسنا، ولا أن تطمئن إليه قلوبنا، هذا ما لا شك فيه، وكيف يصلحنا قوم قال الله في أمثالهم: {**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ...**} [التوبة: 32] { **...وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا ...**} [البقرة: 217].

2 - أن يقوم به أهل الحكمة والخبرة:

الإصلاح الحقيقي: أن يبدأ من الأمة، ويقوم عليه علماؤها وحكماؤها، وأولو الرشد من أهلها، مستجيبين للدوافع الشعبية، والرغبات العامة عند الأمة، ولكن لا ينبغي أن يكون الغوغاء هم المتحكمين في هذا.

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا
والبيت لا يبتني إلا له عمد ... ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

والقرآن الكريم يقول: { **... وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ...**} [النساء: 83] لا بد أن يرد الأمر إلى أهل العلم والحكمة، أهل البصيرة في دين الله، والخبرة بدنيا الناس، الذين ينظرون إلى التراث بعين، وإلى العصر بعين أخرى، الذين يستهلون الماضي، ويعايشون الحاضر، ويستشرفون المستقبل. لا ينفع في الإصلاح الجامدون الذين يريدون أن يجمدوا الحياة كالنهر الأسن، لا تتحرك إلى أمام، ولا تتحرك يمنة ولا يسرة، ويقولون: ليس في الإمكان أبدع مما كان. وما ترك الأول للآخر شيئًا. وكل قديم يجب أن يبقى على قدمه. هؤلاء لا يصلحون للإصلاح، وكذلك لا يصلح لإصلاح الأمة أولئك المتسيبون عبيد الفرنجة، عبيد الفكر

الغربي، الذين يريدون أن يسلخوا الأمة من جلدها، وأن ينفرط كل شيء، وأن لا يبقى شيء على حاله، فليس للأمة ثوابت ترجع إليها، ولا مرجعية تتمسك بها، لا، هذا خطر، أول شروط الإصلاح أن نتمسك بمرجعيتنا، وأن ننطلق من ذاتيتنا، ومرجعيتنا: هي الإسلام، وشريعة الإسلام، عليها نعتمد، ومنها نستمد، وبها نعتصم **{ ... وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ}** [آل عمران: 101]، هذا ثاني شروط الإصلاح. أول الشروط: أن نعتمد الإسلام، وثاني الشروط: أن نعتمد أهل الحكمة وأهل الخبرة.

3 - أن يكون الإصلاح شعبيًا:

وثالث هذه الشروط: أن يتم الإصلاح بإرادة الشعب، وعن طريقه: أن يريد الإصلاح، ويتقبل الإصلاح، ويتجاوب مع الإصلاح.

أيضًا هناك أناس يطلبون الإصلاح عن طريق انقلابات عسكرية، وهذا لا يمكن أن يؤدي إلى المقصود، الانقلاب العسكري - حتى وإن قام به أناس مخلصون، وقاده رجل مستقيم المسيرة - لا يؤمن أن يصبح بعد ذلك ديكتاتورًا ومستبدًا، ويفرض إرادته على الجميع، ونحن نريد أن ينطلق الإصلاح من الشعب، لا أن يفرض عليه!

هناك أناس يريدون الإصلاح عن طريق ثورة عارمة، وهذا أمر غير مأمون، ما جرى في إيران أيام الخميني كانت له ظروفه وأسباب نجاحه، وهيهات أن يتوافر لشعب آخر، وفي مكان آخر، لأن هذه الظروف قلما تتيسر إلا في النادر، ولذلك الثورات العارمة التي تنطلق كالمارد وكالسيل العارم مخوفة العواقب.

لذلك علينا أن نوعي الشعب ونثقفه ونربيه، ليؤدي واجبه، ويطالب بحقه، ويدافع عنه، حتى يختار حكامه ويحاسبهم، ويعزلهم عند اللزوم، بغير دماء تراق، بل عن طريق المؤسسات الدستورية.

4 - أن يبدأ الإصلاح من داخلنا:

ورابع شروط الإصلاح: أن نبدأ من الداخل، أن نقود الإنسان من داخله، من عقله، من ضميره، من نفسه التي بين جنبيه، الإنسان ليس بهيمة تقاد من آذانها أو من أعناقها، الإنسان يقاد من نفسه، لنبدأ بإيقاظ العقول، وإحياء الضمائر، وتزكية الأنفس، **{وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا 7 فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا 8 قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا 9 وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا}** [الشمس: 7 - 10]، غير ما بنفسك يتغير التاريخ، هذا منطق القرآن الكريم **{ ... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ...}** [الرعد: 11].

هذا ما فعله الأنبياء سسست، وبدأوا بتغيير أنفس الناس وعقولهم، وتصحيح عقائدهم ومفاهيمهم الأساسية، وفكرتهم عن الله، وعن الكون، وعن الإنسان، وعن الحياة، وعن الوجود، وهذا ما فعله محمد صلى الله عليه وسلم، صب في عروق الصحابة هذا الإيمان الجديد، الإيمان بالله ورسالاته، وبالدار الآخرة، وبالرسالة العظمى التي يحملونها للبشرية لهداية الناس، ونفع الناس، هذا أمر مهم: أن نغير ما بالأنفس قبل كل شيء، لا بد من القوانين، ولا بد من الأنظمة، لا بد من اللوائح، ولكن هذه لا قيمة لها، إذا لم يكن هناك ضمائر تراقب هذه الأشياء وترعاها، وإلا أصبح القانون حبرًا على ورق، قال أحد القضاة في قضية شهيرة في بريطانيا، اتهم فيها وزراء بالرشوة والفساد، كتب تقريرًا من مئات الصفحات، ثم انتهى فيه إلى قوله: بلا قانون

لا يكون أمة، وبلا أخلاق لا يهيمن قانون، وبدون إيمان لا توجد أخلاق. الإيمان هو الذي يحمي هذا كله.

5 ـ التدرج:

وهناك بعد ذلك: أن نسير بمنهج التدرج، إن الله بنى الدنيا في ستة أيام، كان قادرًا على أن يبنيها في لحظة «كن فيكون» ولكن ليعلمنا الأناة والتدرج، التدرج سنة كونية، وسنة شرعية، ولذلك لا بد أن نتدرج في الإصلاح، بشرط: أن يكون أمامنا هدف واضح، وخطة مرسومة، ومراحل معلومة، أما أن يقول بعض الناس: نتدرج ولا يتدرجون، كما قال بعض الحكام: إننا نريد أن نطبق الشريعة بالتدريج، ولكن مرت عليهم عشرات السنين وهم لا يتدرجون، محلك سر، لا ينتقلون من درجة إلى درجة، ولا من خطوة إلى خطوة، ولا من مرحلة إلى مرحلة، هذا ليس تدريجًا وإنما هو التمويت لا التدريج.

نريد تدرجًا حقيقيًا كما قال عمر بن عبد العزيز لابنه حينما تولى الخلافة، وبدأ يعالج أمور الناس بالرفق والأناة، شيئًا فشيئًا، ويومًا فيومًا، فقال له ابنه عبد الملك ـ وكان شابًا تقيًا مليئًا بالحماس والغيرة ـ قال له: يا أبت ما لي أراك تتباطأ في إنفاذ الأمور، فوالله لا أبالي لو غلت بي وبك القدور في سبيل الله! يعني الابن: لو قطعنا ووضعنا في القدور، وغلت علينا النار تحتها لا نبالي. فقال له أبوه: يا بني لا تعجل! إن الله ذك الخمر في القرآن مرتين، ثم حرمها في الثالثة، وإني أخشى أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه جملة، ويكون من وراء ذلك فتنة، أما يسرك أنه لا يأتي على أبيك يوم، إلا ويميت فيه بدعة ويحيى سنة؟ هذا هو المهم: أن يميت كل يوم بدعة، ويحيى

كل يوم سنة، أما أن يقول: أتدرج ولا يتدرج، فهذا لا يجوز.

مجالات الإصلاح:

هذه شروط الإصلاح، أما مجالات الإصلاح أيها الإخوة: فهي الحياة كلها، الحياة كلها محتاجة إلى إصلاح، التعليم محتاج إلى إصلاح، بحيث لا يخرج الإنسان الذي يصم ويحفظ ولا يفهم، إنما يخرج الإنسان الواعي الفاهم، نريد تعليمًا حقيقيًا.

الإعلام محتاج إلى إصلاح، بحيث لا يفسد الإعلام ما يصلحه المنبر:

متى يبلغ البنيان يومًا تمامه   إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟

الإصلاح السياسي:

السياسة تحتاج إلى إصلاح، وأول ما تحتاج إليه السياسة: إشاعة الحرية بين الناس، أنا أرى أن الأمر الأول الذي يحتاج إليه العرب والمسلمون في مجتمعاتهم اليوم هو: توطيد الحرية، الحريات العامة ولاسيما الحرية السياسية: أن يستطيع الإنسان أن يختار القائد الذي يحكم بلده، ولا يفرض عليه فرضًا بالقوة أو بالتزوير وان يختار من يمثله في البرلمان، ويستطيع أن يقول الحق إذا رآه، وأن يأمر بالمعروف، وأن ينهي عن المنكر دون أن تأتي كلاب الصيد فتتخطفه في منتصف الليل، وتذهب به إلى حيث لا يعلم أحد أين هو، هذا هو الخطر، الحرية السياسية هي أول ما يحتاج إليه الناس.

الإصلاح الاقتصادي:

هناك الإصلاح الاقتصادي، هناك تنمية الإنتاج، وعدالة التوزيع، وترشيد الاستهلاك، وسلامة التداول، هناك ينبغي أن توزع الثروة بالعدل والقسطاس

بين الناس، وليس العدل أن يتساوى الجميع، ولكن أن تتاح فرص متكافئة للجميع، وأن يأخذ كل ذي حق حقه. وألا يغرق بعض الناس في الذهب والحرير، في حين لا يجد آخرون ما يمسك الرمق.

الإصلاح الاجتماعي والأخلاقي:

هناك إصلاح اجتماعي، وإصلاح أخلاقي، وإصلاح في كل مجال من المجالات، نريد أن نبدأ الإصلاح في هذه المجالات، لا يتوقف إصلاح في مجال على إصلاح في مجال آخر، كل هذه المجالات قابلة لأن نبدأ فيها متوازية وتكاملة، حتى نستطيع أن نصل إلى المجتمع الصالح الذي ننشئه. ومن خلال هذه المجتمعات، ننشئ أمة صالحة تقوم بدورها في هداية العالم، هذا العالم الذي وصل إلى القمر، ووصل إلى المريخ، ولكنه - حتى الآن - لم يسعد نفسه على ظهر هذه الأرض.

المسلمون وحدهم هم القادرون على حمل هذه الرسالة العظيمة إلى البشرية المعذبة، المسلمون بقرآنهم وسنتهم هم الذين يحملون قارورة الدواء التي فيها شفاء البشرية **{وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ...}** [الإسراء: 82]، **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ}** [يونس: 57].

أسأل الله أن ينير لنا الطريق، ويهدينا سواء السبيل، وأن يصلحنا، ويصلح بنا، ويهدينا، ويهدي بنا، ويخرجنا من الظلمات إلى النور، إنه سميع قريب.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

انتحار الشباب بالسرعة الجنونية أثناء قيادة السيارات:

قرأت في صحف الأمس وصحف اليوم: نبأ أربعة شبان من أبناء قطر، ذهبوا ضحية حوادث الطريق، ثلاثة في سيارة، وواحد في سيارة، وكلهم فتية في عمر الزهور، في ريعان الشباب، ومقتبل العمر، في السادسة عشرة والسابعة عشرة، وفي كل مدة قريبة نقرأ هذه الأنباء عن شباب اغتالهم الطريق، ذهبوا ضحية السرعة الجنونية في الطريق، التسابق المجنون بين الشباب بعضهم وبعض.

إلى متى هذا أيها الإخوة؟ من المسؤول عن هذه الحوادث؟ هل المسؤول عن هذا هم الشباب الذين يركبون هذه المركبات، وكثيرًا ما لا يكونون يحملون الرخص لأن سنهم لم يتأهل لأخذ الرخصة الرسمية؟ هل هؤلاء الشباب هم المسؤولون؟ أو المجتمع هو المسؤول؟ ابتداء من الأسرة والمدرسة. أي أن المجتمع قصر في توجيههم وتربيتهم التربية السليمة، وتربية العقل الواعي، والضمير الحي. بم يتربوا التربية الحقيقية المطلوبة التي تعرفهم قيمة أنفسهم، وقيمة الحياة التي منحهم الله إياها؟ هل الإنسان حر في أن يضيع حياته كما يريد؟ هل هو الذي خلق نفسه؟!

قيمة الحياة:

يجب أن نعلم شبابنا أن أرواحهم هذه هبة من الله لهم، ووديعة من الله في أيديهم، لا يجوز أن يفرطوا فيها والله تعالى يقول: { **... وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ**

ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا} [النساء: 29] ويقول: **{ ... وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ ...}** [البقرة: 195] إنني أرى هذه السرعات الجنونية ـ التي كثيرًا ما أشاهدها في الطرقات ـ نوعًا من الانتحار، كأنما هذا السائق ينتحر، إنه لا يبالي بنفسه، ولا يبالي بغيره، كثيرًا ما يصاب هو ويصيب غيره، وكثيرًا ما يموت، وكثيرًا ما يبقى معوقًا طوال الحياة؛ لأنه فقد بعض حواسه، أو فقد بعض أعضائه، أهذه حياة؟!

احترام الحياة والثروة:

ينبغي أن نعلم أبناءنا، وأن نربي أبناءنا على احترام الحياة، حياة نفسه، وحياة غيره، إذا كان الشباب عنده من المال، أو عند أبيه من المال ما يعطيه سيارة يعبث بها، فليس من حقه أن يعبث بذاته بروحه، حتى الأموال لا يجوز العبث بها، إن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن إضاعة المال، تدمير هذه السيارات في غير فائدة، لماذا هذا العبث؟ ولماذا يسمح الآباء بإعطاء السيارات قبل السن اللازمة، القانون حينما حدد ثمانية عشر عامًا لم يكن لاهيًا ولا لاعبًا، إنما أراد أن يبلغ الشاب سنًّا يكون فيها أقدر على التوازن، على التصرف الهادئ العاقل، فلماذا نتجاوز القوانين؟!

إن هذه السيارات نعمة من الله علينا، فلماذا لا نشكر الله عليها؟ لماذا نستخدمها فيما يضرنا ويغضب ربنا؟ لماذا نقابل النعمة بالكفران لا بالشكران؟ والله تعالى يقول: **{وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ}** [إبراهيم: 7].

نداء للآباء والمسؤولين:

إني أناشد الآباء، وأناشد الأسر، وأناشد المربين: أن ينصحوا الشباب، أن يتقوا الله في أنفسهم، ويتقوا الله في مجتمعاتهم، حرام علينا أن نفقد كل عدة أيام بعض هذا الشباب، حتى قال لي أحد المسؤولين: إن نحو ربع الأموات من الرجال من جراء حوادث الطريق، ربع الأموات!! وهذه نسبة عالية، واعتقد أن هذه النسبة في قطر من أعلى النسب في العالم، هذا ما لا يجوز، أن يذهب هؤلاء مجانًا.

بين موتتين:

لو كانت هذه الميتات من أجل هدف رفيع، أو رسالة نبيلة، كنا نرحب بها، أما أن يذهب الشاب مجانًا، وكأنه منتحر. هناك ميتات نباركها ونرحب بها، مثل: ميتة الأخت ريم الرياشي، هذه التي فجرت نفسها لتقتل عددًا من الإسرائيليين المغتصبين المعتدين، هذا هو الموت الذي نرحب به، أما أن يموت الإنسان في غير شيء، فهذا ما لا يجوز، نرحب بهؤلاء الأبطال الاستشهاديين والاستشهاديات، الذين زلزلوا الكيان الصهيوني، والذين روعوهم، وقذفوا الرعب في قلوبهم، إنهم لا يملكون الطائرات، ولا المروحيات، ولا الآليات التي تملكها إسرائيل المعتدية، ولكنهم يملكون رؤوسهم فوضعوها على أكفهم، يملكون أرواحهم فبذلوها رخيصة في سبيل الله.

حياك الله يا «ريم»، وحياكم الله أيها الأبطال، وثبتكم الله أيها الإخوة في ربوع فلسطين، الذين يقدمون كل يوم الشهداء وراء الشهداء! يا أبناء فلسطين، يا أبطال هذه الأمة: حياكم الله في أمة خذلتكم، لم تقدم لكم أرواحًا،

ولا أموالًا، ولا عتادًا، ولا سلاحًا، وتركتكم لأعدائكم.

حياكم الله يا إخوتنا في أرض البطولة والصمود والرباط! أسأل الله عز وجل: أن يسدد خطاكم، وأن ينير طريقكم، وأن يثبت على الحق أقدامكم، وأن يلحقنا بشهدائكم في سبيله، اللهم آمين.

عباد الله: يقول الله تتت: **{إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا}** [الأحزاب: 56] .

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وأقيم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون.

* * *

(20)

الشيخ أحمد ياسين: رجل بأمة[178]

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

تفاوت أقدار الناس:

تتفاوت أقدار الناس في هذه الدنيا تفاوتًا بعيدًا، فمن الناس من لا يساوي صفرًا، بل إن عدمه خير من وجوده، من الناس من يكون وجوده شرًا على نفسه، وشرًا على أهله، وشرًا على مجتمعه، وشرًا على أمته، وشرًا على الإنسانية جمعاء، أولئك هم الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون **{ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ 11 فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ 12 فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ 13 إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ}** [الفجر: 11 - 14].

هناك من لا يساوي صفرًا، بل هناك من عدمه خير من وجوده، وهناك من يساوي كسورًا من الرجال، نصف رجل! ربع رجل! عشر رجل! واحدًا في المئة أو في الألف من رجل، كثير من هؤلاء الذين تراهم يأكلون ويشربون ويتمتعون، **{... يَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ}** [محمد: 12]، أولئك أناس نراهم يعيشون ويموتون وليس لهم هدف ولا رسالة، هؤلاء أصناف نراها من الغافلين عن حقيقة أنفسهم، الغافلين عن مصيرهم، الغافلين

---

(178) ألقيت في مسجد عمر بن الخطاب، في 5 من صفر 1425هـ الموافق 26 مارس 2004م.

عن أعظم قضية في الوجود ... قضية المصير، قضية الآخرة والجنة والنار، هؤلاء نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أنساهم حقيقة ذواتهم، فلا يعرفون من هم ولا ما هم، هذا صنف من الناس ... كسور من البشر لا تبلغ واحدًا صحيحًا.

لماذا يعيش المسلم؟

وهناك من البشر من يعيش إنسانًا صحيحًا، وهو إنسان واحد، هذا هو الذي عرف لماذا يعيش؟ لماذا يحيا الإنسان؟ لماذا خلق هذا المخلوق الذي آتاه الله من المواهب والقدرات والملكات الروحية والمادية والعقلية والنفسية، وسخر له ما في السموات والأرض جميعًا منه، وأسبغ عليه نعمة ظاهرة وباطنة، أنزل له الكتب، وبعث له الرسل؟ عرف لماذا يعيش. يقولون في الأمثال: «الأحمق يعيش ليأكل، والعاقل يأكل ليعيش»، الأحمق كل مهمته وهدفه وغايته: أن يأكل ويتمتع بألوان من الأكل، يملأ بطنه كما يملأ الثور والأنعام بطونها، هذا أحمق. أما العاقل فقالوا: إنه يأكل ليعيش.

ولكن هذا لم يحل العقدة، لأنه سيظل هناك سؤال مطروح: هذا العاقل يأكل ليعيش. فلماذا يعيش؟ هل العيش في ذاته غاية؟ هل الحياة في نفسها هدف؟ لا بد أن يسأل الإنسان نفسه: لماذا أعيش؟ لماذا أحيا؟ العيش وسيلة، هل هناك من هدف وراء هذه الحياة؟ هل هناك من رسالة لهذه الحياة؟ نرى كثيرًا من الناس ـ في أوروبا وأمريكا وغيرها من البلاد ـ لا يعرفون للحياة معنى، ولا يتذوقون لها طعمًا، ولا يعرفون لها هدفًا، يشعرون بالتفاهة والضياع، ولذلك ما أسرع ما يتخلصون من هذه الحياة لأدنى سبب بالانتحار، الحياة لا تستحق أن يعيش الإنسان لها، ويعاني من أجلها، هؤلاء معذرون، لأنهم لا يعرفون لهم هدفًا في الحياة، المؤمن يعيش لهدف، أن يعرف الله ويعبده، إذا كان

الأحمق يعيش ليأكل، والعاقل يأكل ليعيش، فالمؤمن يعيش ليعرف الله حق المعرفة، ويعبده حق العبادة، ويتقيه حق التقوى.

معرفة الله:

يقول الله تعالى: {**ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ**} [الطلاق: 12]. لماذا خلق هذا العالم العلوي والسفلي بسماواته وأرضه؟ {**لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا**} [الطلاق: 12]، أي: أن تعرفوا الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وأبرز هذه الصفات: أنه محيط بكل شيء علما، ومحيط بكل شيء قدره، فإذا عرفنا الله أدينا له حقه، وحقه: أن يعبد وحده ولا يشرك به شيئًا، لا يستحق العبادة من الإنسان إلا الله وحده، لا شيء في الأرض ولا في السماء يستحق أن تحني ظهرك، أو تطأطئ له رأسك، أو تعفر له جبهتك، أو تمد يدك إليه متضرعًا، أو تذل له وتخشع، لا أحد إلا الله، هو صاحب النعم العظمى، يكفي أنه هو الذي خلقك فسواك، وقدر لك فهداك، وأنعم عليك بنعم تغمرك من قرنك إلى قدمك، الله هو صاحب النعم العظمى: نعمة الخلق والحياة، والإيجاد والإمداد، الذي علمك البيان، وأعطاك العقل والإرادة، وهيأ لك ما هيأ، هو وحده الذي يستحق العبادة، فلا بد أن تتحرر من العبودية لغيره، وتخلص له العبادة وحده، تعبده وحده، وتستعين به وحده، {**إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ**} [الفاتحة: 5].

كانت رسالة الإسلام تحريرًا للبشرية من ذل العبودية لغير الله، العبودية للأشخاص، والعبودية للأشياء، والعبودية للذات وللهوى، والعبودية لأي شيء إلا لله، هذا هو التحرر الحقيقي، ولذلك كان النداء الأول في كل رسالة من رسالات الأنبياء: { **... يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ ...**} [الأعراف:

59].

المؤمن بين عبادة الله وخلافته في أرضه:

رسالة المؤمن في الحياة: أن يعرف الله تعالى ويعبده، وأن يكون خليفة له في أرضه، إني جاعل في الأرض خليفة، هذه المنزلة التي اشرأبت إليها أعناق الملائكة، ورنت إليها أبصارهم، وقالوا: **{ ... أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}** [البقرة: 30]، أنتم لم تهيأوا لهذا، ليس عندكم غرائز، ولا هذه الأشياء، ولا تصلحون لعمارة الأرض، خلقت مخلوقًا هو الذي سيقوم بهذه الخلافة، هو آدم وذريته، الإنسان هو خليفة الله في الأرض، ومن تمام هذه الخلافة: أن يعمر الإنسان أرض الله، يعمرها بالعلم والعمل، والإصلاح والتنمية، **{وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ...}** [الأعراف: 56]، **{ ... هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ...}** [هود: 61]، استعمركم: أي طلب إليكم أن تعمروها ولا تخربوها، وأن تصلحوها ولا تفسدوها، وتحيوها ولا تميتوها، لهذه الأهداف الكبيرة يعيش الإنسان.

وكلما اتضحت هذه الأهداف للإنسان، وكلما أعد لها العدة ليقوم بخدمة هذه الأهداف وتحقيق هذه الأهداف، في نفسه، وفي الحياة من حوله، وكلما اتسعت دائرة النفع به: كانت قيمة الإنسان، فليس من يعمل لنفسه كمن يعمل لغيره، وليس من يعمل لقريته كمن يعمل لأمته، وليس من يعمل لأمته كمن يعمل للإنسانية جمعاء.

منزلة المرء على قدر إيمانه:

الناس يتفاوتون، وعلى قدر إيمان المرء تتفاوت منزلته، هناك أناس آتاهم الله من الإيمان ما يستطيعون أن يواجهوا به المشكلات، ويتخطوا به العقبات، ويصنعوا به ما يشبه المستحيلات، ولذلك قالوا: فرد ذو همة، يحيي أمة، وقال الله تعالى: **{إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ...}** [النحل: 120]، هناك أفراد كبار الفرد منهم بأمة، الشاعر العربي يقول:

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عني

هناك ألف بواحد وهناك واحد بألف، وهناك واحد، بأكثر من ألف، بمجتمع بأسره، بقطر بأسره، بأمة بأسرها، الناس يتفاوتون، بماذا يتفاوت الناس؟ هل بضخامة أجسامهم؟ لأنهم أبطال في الملاكمة أو في المصارعة أو غير ذلك؟ وما قيمة أن تكون بطلًا في الملاكمة، أو المصارعة، أو ألعاب القوى، أو الكرة، أو في أي شيء من هذا ولا تقدم لمجتمعك شيئًا؟ تخاف على جسمك أن تعالج به مشكلة أن تبذله في خدمة الحق والخير ما قيمة هذا؟ هذا هو الذي يقال له:

يا خادم الجسم كم تسعى أتطلب الربح مما فيه خسران؟

أقبل على النفس واستكمل فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري: «**يأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة**» عظيم سمين طويل عريض فلا يزن عند الله جناح بعوضة ثم قال: اقراءوا إن شئتم { ...

فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا} [الكهف: 105](179)، لا وزن لهم عند الله.

كان عند الله بن مسعود أحد أئمة الصحابة، وأحد علماء الصحابة، وأحد السابقين الأولين، وكان رجلًا قصير القامة، نحيل الجسم، دقيق الساقين، صعد يومًا على شجرة فبدت ساقاه، وبدت هاتان الساقان نحيلتين هزيلتين كأنها عصى، فضحك الصحابة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**مم تضحكون**»؟ قالوا: يا نبي الله من دقة ساقيه! فقال: «**والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد**»(180) الساقان النحيلتان النحيفتان الهزيلتان أثقل في الميزان من جبل أحد! نعم، فالناس لا يوزنون بحمل أجسامهم من لحم، بل بما تحمل قلوبهم من علم وإيمان، فالله تعالى قال عن المنافقين: **{وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡ ...}** [المنافقون: 4] وقال العرب: ترى الفتيان كالنخل، وما يدريك ما الدخل؟

الشيخ أحمد ياسين رجل بأمة:

أقول هذا بمناسبة وداعنا أيها الإخوة لهذا الشيخ الجليل أحمد ياسين، هذا الرجل الذي عاش عمره قعيدًا على كرسي لا يتحرك إلا بمحرك يحركه، ولا يستطيع أن يفارق هذا الكرسي إلا بمن يعينه، هذا الرجل الأشل الضعيف هو الذي زلزل الطغمة الطاغية الباغية في الكيان الصهيوني، هو الذي أدخل الرعب في قلوبهم، هو الذي حرك مسيرة الجهاد في غزة والضفة الغربية، هو الذي أسس حركة المقاومة الإسلامية.

---

(179) رواه البخاري في التفسير (4729)، ومسلم في صفات المنافقين (2785) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(180) رواه أحمد (3991) عن ابن مسعود، وقال محققو «المسند»: صحيح لغيره.

هذا الرجل الأشل الجسم لم يكن العقل، ولا أشل الإرادة، كم من أناس في دنيانا أصحاء الأجسام، مراض العقول، مراض الإرادة، ولكن هذا الرجل كان صحيح العقل والفكر، كان صحيح الإرادة والعزم، ولذلك عاش عمره في تعليم الدين، وفي تجميع الشباب على الإيمان، وفي تربيتهم على أخلاق الإسلام، وفي أن يملأ صدورهم حماسة لهذا الدين، ويشعل فيهم هذه الجذوة التي انتهت بهم إلى أن يعيشوا حياة الجهاد.

الشيخ أحمد ياسين القعيد الأشل الذي زلزل إسرائيل وأمريكا والطغاة في أنحاء العالم، يعد نموذجًا للإنسان المؤمن، عاش عمره لهدف ولرسالة، ليس كأولئك الذين يعيشون لبطونهم وفروجهم، أو أولئك الذين يعيشون لمناصبهم، أو يعيشون من أجل كرسيهم، يعبدون الكرسي لا يشركون به شيئًا، من أجل الكرسي يقدمون تنازلات وراء تنازلات، من أجل الكرسي لا يستطيعون أن يقولوا: لا مرة واحدة، كما قال عمر بن الخطاب: «يعجبني من الرجل إذا سيم الخسف ـ أي طلب منه الذل ـ أن يقول بملء فيه: لا». هؤلاء العبيد لا يستطيعون أن يقولوا: لا، إلا من رحم ربك منهم، وقليل ما هم.

إرادة صلبة وعزم لا يلين:

أحمد ياسين كان رجلًا بأمة، زارنا في قطر، واستمعتم إليه هنا في هذا المسجد بعد الصلاة، وزار عددًا من البلاد العربية بعد أن أطلق سراحه، وقد عاش سنين طويلة في سجون الصهاينة، ولكنه ما خضع ولا لان، ولا وهن ولا استكان، كان كالذين قال الله فيهم: { **... فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ**} [آل عمران: 146]، طالما عرض عليه الإسرائيليون أن يتنازل بعض الشيء ليطلقوا سراحه، ويفكوا أسره

ويخلوا سبيله، ولكنه أبى.

كان صاحب إرادة، كان قادرًا على أن يقول: لا، هذا أحمد ياسين. كان في السجن صابرًا مصابرًا مرابطًا، وكان بعد السجن صابرًا مصابرًا مجاهدًا مصممًا على أن يحرر أرضه من هذا الرجس الذي لوثها، مصممًا على ذلك، قال مناحم بيجن في كتابه «التمرد»: أنا أحارب إذن أنا موجود، فقال الشيخ أحمد ياسين: وأنا أقاوم إذن أنا موجود. الذي يدل على وجودي: هو المقاومة، ولذلك أنشأ حركة المقاومة الإسلامية لتقوم بدورها في الجهاد والمقاومة، والمدافعة والتحرير لأرض المقدسات والنبوات، لأرض الإسراء والمعراج، لأرض المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله.

المعلم والمجاهد والعابد:

عاش الشيخ ياسين معلمًا مجاهدًا عابدًا. قال سيدنا عمر ررر: «لولا ثلاث لما أحببت البقاء في هذه الدنيا: أن أحمل أو أجهز جيشًا في سبيل الله، وأن أكابد الليل - يقول الليل في الأسحار - وأن أعيش مع أقوام من أهل العلم؛ ينتقون أطايب الكلام كما تنتقي أطايب الثمر». هذه هي الثلاث التي من أجلها أحب عمر البقاء، لولا هذه الثلاث لما أحب البقاء في الدنيا: الجهاد والعبادة والعلم، وقد عاش الشيخ أحمد ياسين للعلم، عاش معلمًا ومربيًا، وعاش عابدًا قانتًا لله تعالى، وظل يعبد ربه حتى أتاه اليقين.

ميتة شريفة:

كان الشيخ ياسين قد تعب كثيرًا من مرض ألم به، فاضطر أن يدخل المستشفى، ورأى الأطباء أن الشيخ في حاجة إلى أن يبقى في المستشفى عدة

أيام، ولكنه أبى، فقد يعلم الصهاينة بوجوده فيه، فيحاولون أن يضربوه فيه، فيموت أعداد من الناس لا ذنب لهم.

كان الشيخ يستطيع أن ينجو أيها الإخوة لو كان ممن يحرصون على حياة؛ أي حياة، كالذين قال الله عنهم: **{وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ...}** [البقرة: 96] لو كان حريصًا على أي نوع من الحياة لاستطاع أن يتجنب هذه الميتة التي ماتها، كان يستطيع أن يتنقل من مكان إلى مكان ويعمي على الطغاة الصهاينة، وأن لا يصلي في المسجد، ولكن أصر وصمم على أن يبقى في بيته، وأن يصلي في المسجد القريب منه، ويصلي الصلوات الخمسة كلها في المسجد حتى الفجر، وقد مات بعد أدائه لصلاة الفجر في الجماعة، وقبل الفجر طلب بعض اللقيمات ليتسحر للصيام، فقيل له: إن صحتك لا تساعدك، فصمم على أن يصوم. وبهذا لقى ربه متوضئًا مصليًا مسبحًا صائمًا!! ما أعظمها من نفس! وما أكرمها من نفس! تصمم على ما عاشت له، لتعيش عليه، وتموت عليه، وقدر الله له أن يموت هذه الميتة الشريفة، ليختم له بالشهادة.

عاش سعيدًا ومات شهيدًا!

نحن نقول في أدعيتنا التي علمها لنا النبي صلى الله عليه وسلم: «**اللهم إنا نسألك عيش السعداء، وموت الشهداء، والفوز في القضاء، والنصر على الأعداء**»[181] وقد عاش الشيخ عيشة السعداء، لم يكن يعيش عيشة

---

(181) رواه الطبراني في «الأوسط» عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه (95/4) رقم (3696) ط. دار الحرمين. ورواه ابن خزيمة في «صحيحه» بلفظ: «**اللهم إن أسألك الفوز عن القضاء، ونزل الشهداء، وعيش السعداء، ومرافقة الأنبياء، والنصر**

الأغنيـاء ولا المتـرفين، ولكنـه كـان سـعيدًا بإيمانـه، سـعيدًا برسـالته، سـعيدًا بأبنائـه؛ أبنائـه مـن صـلبه الأحـد عشـر، وأبنائـه الـروحيين ومـا أكثـرهم! الـذين رباهم على الجهاد، ورآهم أمامه يقدمون أرواحهم، ويضـعون رؤوسـهم علـى أكفهم، ويفجرون أنفسهم في عدو الله وعدوهم، ألا يعيش سعيدًا مـن رأى ثمـرة عمله؟! إنه كان من أسعد السعداء رغم ضيق عيشـه. لـو أراد الملايين لجاءتـه الملايين، ولكنه عاش في بيته المتواضع، وفي حياتـه التـي بـدأها، وظـل عليهـا إلى أن مات، ثم قدر الله له أن يموت شهيدًا، وأي شهادة؟!

إن الشيخ أحمـد ياسـين لـيس كـأي شـهيد، إن العصـابة المجرمـة - عصـابة شـارون السـفاح ومـن معـه - أبـت إلا أن تنـتقم مـن الشـيخ ياسـين فتقتلـه - فيمـا زعموا - شر قتلة، ولذلك ضربوه بثلاثة صـواريخ أمريكيـة الصـنع مـن طيـارة الأباتشـي كمـا يسـمونها، تحميهـا مقاتلـة أمريكيـة (إف 16)، ضـربوا هـذه الصـواريخ علـى الشيخ ومـن حولـه، حتـى مزقـت جسده الطيـب الطـاهر شـذر مذر، هل رأيتم جسد الشيخ أحمد ياسين؟ هل رأى أحد وجهـه؟ هل رأى أحد لـه جسدا؟! لقد تمزق هذا الجسد الشريف الطهور، مزقتـه صـواريخ أمريكـا، ولذلك قالوا في الأخبار: دفنوا ما بقى من جثمانه، خطـط لـذلك شـارون بنفسـه، وأشرف على العملية بنفسه، وظل يتابعها حتى تمت، ثم هنأ القائمين على هذه العمليـة، عـلام تهنئـون أيهـا الأنـذال، أيهـا الجبنـاء؟! قتلـتم رجـلًا قعيـدًا بهـذه الترسـانة الهائلـة، وبهـذه الإمكانيـات الهائلـة، هـل فـي هـذا شـجاعة أو بسـالة، الأمر لا يحتاج إلى تهنئة.

على الأعداء»، وذكره الألباني في «صحيح ابن خزيمة» (1119).

قال أحد الأخوة: لن يشفي غليلنا في الشيخ أحمد إلا قتل شارون، قلت له: وهل شارون كفء للشيخ أحمد؟ نحن نقول له: بُؤْ بشسع[182] نعل أحمد، كما قال المهلهل ابن ربيعة - وقد قتل أحد أبطال بكر بن وائل، فقالوا له: هذا بأخيك كليب؟ قال: بأخي كليب؟ - : ليبؤ بشسع نعل كليب! ونحن نقول: شارون بشسع نعل أحمد ياسين. أحمد ياسين رجل والرجال قليل في هذه الدنيا، بطل من أبطال هذه الأمة، لا يكفينا فيه عشرات، ولا مئات، ولا ألوف من هؤلاء، ونحن لسنا طلاب ثأر، ولكنا طلاب حق. الذي يكفينا فيه: أن تتحرر فلسطين، كل فلسطين، وتتطهر من رجس الغاصبين الظالمين، هذا هو الذي يشفي غليلنا.

بركة الشيخ أحمد ياسين حيًا وميتًا:

كان الشيخ أحمد ياسين رجلًا مباركًا في حياته، وكان رجلًا مباركًا في مماته، لقي ربه شهيدًا، وصدق ما عاهد الله عليه **{مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا}** [الأحزاب: 23]، **{... وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ 4 سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ 5 وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ 6 يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ}** [محمد: 4 - 7]، بعد أن ذكر الشهداء طلب النصر، أن ننصر الله لينصرنا الله.

أمنية محققة:

لقى أحمد ياسين ربه، حقق الله له أمنيته التي كان يطلبها في سجوده

---

(182) الشسع: هو ما يربط به النعل.

ويطلبها في حياته. وكم نتمنى أيها الإخوة أن يختم الله لنا كما ختم لأحمد ياسين: أن نلقى الله شهداء في سبيله. سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلًا يقول: اللهم آتني أفضل ما آتيت عبادك الصالحين، فقال له: «**إذن يعقر جوادك وتستشهد**»(183) هذا أفضل ما آتى الله عباده الصالحين، أن يضحي بنفسه وماله في سبيل الله، حتى جواده يعقر.

شفاء غليلنا في تحرير الأقصى:

الذي يشفي غليلنا أن تتحرر فلسطين، والذي يشرح صدورنا أن تتحد فلسطين، ويتوحد أبناء فلسطين. وهذا من بركات موت الشيخ أحمد ياسين، الذي كان مباركًا في حياته، وكان مباركًا في مماته. فمن بركة موته: أن وقفت الفصائل الفلسطينية كلها، الإسلاميون منهم والوطنيون حسب التقسيم الذي يقسمونه، حماس أو كتائب عز الدين القسام، وكتائب الأقصى، وسرايا القدس، وكتائب الشهيد أبو علي مصطفى، والجبهة الشعبية ... كل هؤلاء قالوا: سنثأر للشيخ أحمد ياسين، وحق لهم، الثأر ليس لشخص الشيخ أحمد ياسين، ولكن للمعنى الذي يمثله أحمد ياسين، فقد كان رمزًا لقضية، هذه القضية طالما نسيت في محيط العرب والمسلمين، فكان من بركات الشيخ أحمد ياسين: أن تحيا هذه القضية في غمرة الأحداث، التي تنزل بالمسلمين هنا وهناك، في العراق في أفغانستان، في باكستان، في كشمير، في الشيشان، في غمرة هذه الأحداث نسى الناس قضيتهم الأولى قضيتهم المحورية قضية

---

(183) رواه أبو يعلى، والبزار بإسنادين أحدهما رجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي (295/5)، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للقرضاوي (407/1) برقم (754).

فلسطين، فكان موت الشيخ أحمد مذكرًا بهذه القضية الحيوية المركزية، التي هي قضية العرب والمسلمين الأولى، ذكر الناس هذه القضية وأصبحت حديث كل لسان، وأصبح الخطباء على منابرهم، والكتاب في صحفهم، والزعماء في لقاءاتهم، يتحدثون عن قضية فلسطين، ويجب أن تظل قضية فلسطين مذكورة لا تنسى، حية لا تموت، قوية لا تضعف، هذا هو الذي يجب على أمة العرب والإسلام.

ما نطلبه من قمة العرب المرتقبة !

هناك عن قريب ستعقد قمة عربية في تونس، تجمع زعماء العرب في المشرق والمغرب(184)، وهذه القمة عليها مسؤولية كبيرة تجاه قضايا العرب كلها وعلى رأسها قضية فلسطين، نقول لزعماء العرب وقادتهم: آن لكم أن تعرفوا واجبكم نحو هذه القضية، عار عليكم يا عرب، عار عليكم أن تنسوا هذه القضية، حرام أي حرام أن تنشغلوا بمناصبكم وكراسيكم وتنسوا هذه القضية الأولى، وتدعوا إخوانكم في أرض الجهاد والرباط يخوضون المعركة وحدهم، يواجهون ترسانة إسرائيل المؤيدة بقوة أمريكا، وسلاح أمريكا، ومال أمريكا، لا يجوز في منطق الدين، ولا منطق الوطنية، ولا منطق القومية، ولا منطق الشرف والرجولة، ولا منطق المصلحة المحلية لكل بلد: أن تدعو إخوانكم، أن تخذلوهم، أن تتخلوا عنهم.

للأسف يظن كثير من الزعماء: أن القضية قضية الفلسطينيين وحدهم،

---

(184) طلب الشيخ هذه المطالب من القمة قبل انعقادها، وقد كان يرتقبها كما كانت ترقبها الأمة الإسلامية، إلا أننا انتظرنا سرابًا، فقد تأجلت القمة إلى أجل غير مسمى، مما أصاب الشعوب العربية بإحباط وخيبة أمل.

وهذا وهم، كنا نظن أن الأمة تحررت منه من قديم، بعد دراسات معمقة، موسعة، أثبتت أن إسرائيل ليست خطرًا على فلسطين وحدها، بل هي خطر على العرب كلهم، وخطر على المسلمين جميعًا، من إندونيسيا إلى المغرب، إسرائيل خطر عسكري، وخطر اقتصادي، وخطر سياسي، وخطر ثقافي، وخطر ديني، حتى هي خطر ديني، إسرائيل خطر على الجميع.

كيف تركوا الفلسطينيين وحدهم يذوقون المرارة، ويتجرعون كؤوس هذا الأمر، دون عون يذكر من إخوانهم؟ حتى المعونات التي كانت تصل إليهم لم تعد تصل، لا حكومية ولا شعبية، حتى المعونات الشعبية جففوا منابعها، هكذا أرادت أمريكا، اعتبرت المؤسسات الخيرية والجمعيات الخيرية مؤسسات إرهابية، لأنها تمد المقاومة، وتمد الانتفاضة بما يجري الدم في عروقها ويبقي عليها الحياة.

واجب الحكام العرب والمسلمين نحو فلسطين:

هل نستجيب لوساوس أمريكا، وهواجس أمريكا، وأوامر أمريكا؟ نقول لهم رغباتكم أوامر، وإشارتكم حكم واجب الاتباع؟! هل هذا يليق بأمة العرب والإسلام؟ بخير أمة أخرجت للناس، يليق بها أن تحني رؤوسها وتقول: نعم لكل ما يطلب منها؟ لا تجرب أن تقول: لا، مرة واحدة!

إننا ننادي قادتنا وزعماءنا وساستنا الذين سيجتمعون عن قريب في تونس، نناديهم: أن يقوموا بما يفرض عليهم دينهم، وتفرض عليهم قوميتهم، وتفرض عليهم رجولتهم، وتفرض عليهم الأخلاق والأعراف وكل القيم، وما يفرضه عليهم هذا لا بد أن يقوموا بواجبهم، ويشدوا أزر إخوانهم، ويرفضوا ما

يملى عليهم، هذا هو الواجب.

هناك أيها الأخوة آلاف من الأسرى والسجناء والمعتقلين في سجون إسرائيل، آلاف مسجونون بغير حق، لماذا لا يطالب هؤلاء القادة بالإفراج عن هؤلاء، بفك أسر هؤلاء، لماذا يُسكت عن هؤلاء؟ لماذا لا يمدون إخوانهم بالحد الأدنى مما يمسك عليهم حياتهم؟ إخواننا في أرض الجهاد والرباط لا يكادون يجدون القوت، بطالة استمرت، حصار إسرائيلي دمر عليهم حياتهم، جرف مزارعهم، حرق أرضهم، ودمر بيوتهم، خلع أشجار الزيتون المعمرة، بعضها من عهد الرومان قبل الإسلام، خلع هذه الأشجار، يريدون أن يجوعوا هذا الشعب، ويذيقوه المر، حتى يركع لهم، ويذعن لإرادتهم، وهذا الشعب صابر لا يجزع، آمل لا ييأس، عزيز لا يذل، يتجرع آلام الحصار والتجويع بنفسية المؤمن الذي يعلم أن للحرية ثمنًا لا بد أن يدفعه، ويعلم أن كل ما يصيبه إنما هو في سبيل الله كما قال الله تعالى: {**... ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ**} [التوبة: 120]

قادتنا قادرون على فعل الكثير:

والله إن قادتنا يستطيعون أن يفعلوا الكثير إذا وضعوا أيديهم في يد الله، ووثقوا بالله، وتوكلوا على الله، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم، ثم وضعوا أيديهم في أيدي شعوبهم، ولم يتخلوا عن هذه الشعوب، لم يقفوا في واد وشعوبهم في واد، فهذا يضعفهم ولا يجعل لهم أي قوة، الذي يشد أزرهم، ويسند ظهرهم، ويعطيهم القوة: أن يستندوا إلى

الله، ثم أن يستندوا إلى الشعوب، من فعل ذلك فقد لجأ إلى ركن ركين، فقد تحصن بحصن حصين، فقد لاذ بملاذ، وعاذ بمعاذ، { **... وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ**} [آل عمران: 101].

نريد لنسائم الحرية أن تهب على الشعوب:

يا قادة العرب: إن هذه الأمة كتب الله لها الخلود، إنها الأمة الأخيرة الباقية إلى أن تقوم الساعة، وهي أمة الأمم، وخير الأمم، وأنتم المسؤولون عنها، لماذا لا تستمدون قوتكم منها؟ اصطلحوا على هذه الشعوب، وافتحوا لها أبواب الحرية، لن يصنع القوة لهذه الشعوب إلا أن تهب عليها نسمات الحرية، ما دامت مصفدة الأيدي، مغلولة الأعناق، مقيدة الأرجل، فلن تستطيع أن تفعل شيئًا، الحرية خير لكم ولشعوبكم، ولكنها الحرية المسؤولة، نريد حرية منضبطة، لا حرية هوجاء، تسفك الدماء بغير حق، وتأخذ البريء والمسيء معًا، لا، إنما نريد حرية التعبير، حرية الرأي، حرية الصحافة، حرية الاجتماع، حرية النقد، حرية تكوين النقابات والأحزاب. نريد هذه الحريات التي كفلتها مواثيق حقوق الإنسان، وكفلتها المواثيق الدولية، وكفلها الإسلام قبل ذلك، فالإسلام لا يجيز أن يتحكم الحكام في رقاب الناس، لأن الأمة إذا كانت أمة من العبيد لا تستطيع أن تنجز شيئًا، لا تستطيع أن تحقق هدفًا، لا تستطيع أن تهزم عدوًا، الأمة القادرة على هذا هي الأمة الحرة، رضي الله عن عمر حينما قال لعمرو بن العاص: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرار!».

الحيلة لنجدة المسلمين:

كان موت الشيخ أحمد ياسين أيها الإخوة بركة لهذه الأمة، وبركة للقضية

التي نذر حياته لها، وعاش من أجلها، ومات في سبيلها،؛ قضية فلسطين، كان موته خيرًا وبركة، أحيا هذه القضية وذكر بهذه القضية، وأصبحت هذه القضية هي قضية الأمة الآن، قضية شعوب الأمة في كل مكان، من جاكرتا إلى الرباط إلى موريتانيا، هذه الأمة كلها يجب أن تذكر هذه القضية، وتشد أزر هذه القضية. علينا أن نشد أزر إخواننا بما نستطيع من مساندات وتبرعات ما أمكننا ذلك، صحيح أن الطرق مغلقة، والأبواب مسدودة، ولكننا نستطيع أن نتحايل على هذا كله أيها الإخوة.

وعلينا أن نقاطع البضائع الصهيونية والأمريكية والبريطانية(185)، هؤلاء لا يجوز لنا أن نشتري منهم، وأن ننفعهم بفلس واحد، لأن أي ريال يكسبونه منا سيتحول إلى رصاصة تنطلق في صدر إخواننا، لا يجوز أن ينتفعوا منا بشيء.

وأن ندعو الله تنت لهم في سجودنا، في خلواتنا، في أسحارنا، عسى الله عز وجل أن ينصرهم على عدوهم نصرًا مبينًا، وأني فتح لهم فتحًا مبينًا، وان يهديهم صراطًا مستقيما.

* * *

---

(185) لفضيلة الشيخ فتوى مفصلة أصدرها الشيخ منذ فترة، وضمنها سفره القيم «فتاوى معاصرة» الجزء الثالث (497)، كما ضمنها الشيخ في كتابه «فتاوى من أجل فلسطين»، طبع مكتبة وهبة.